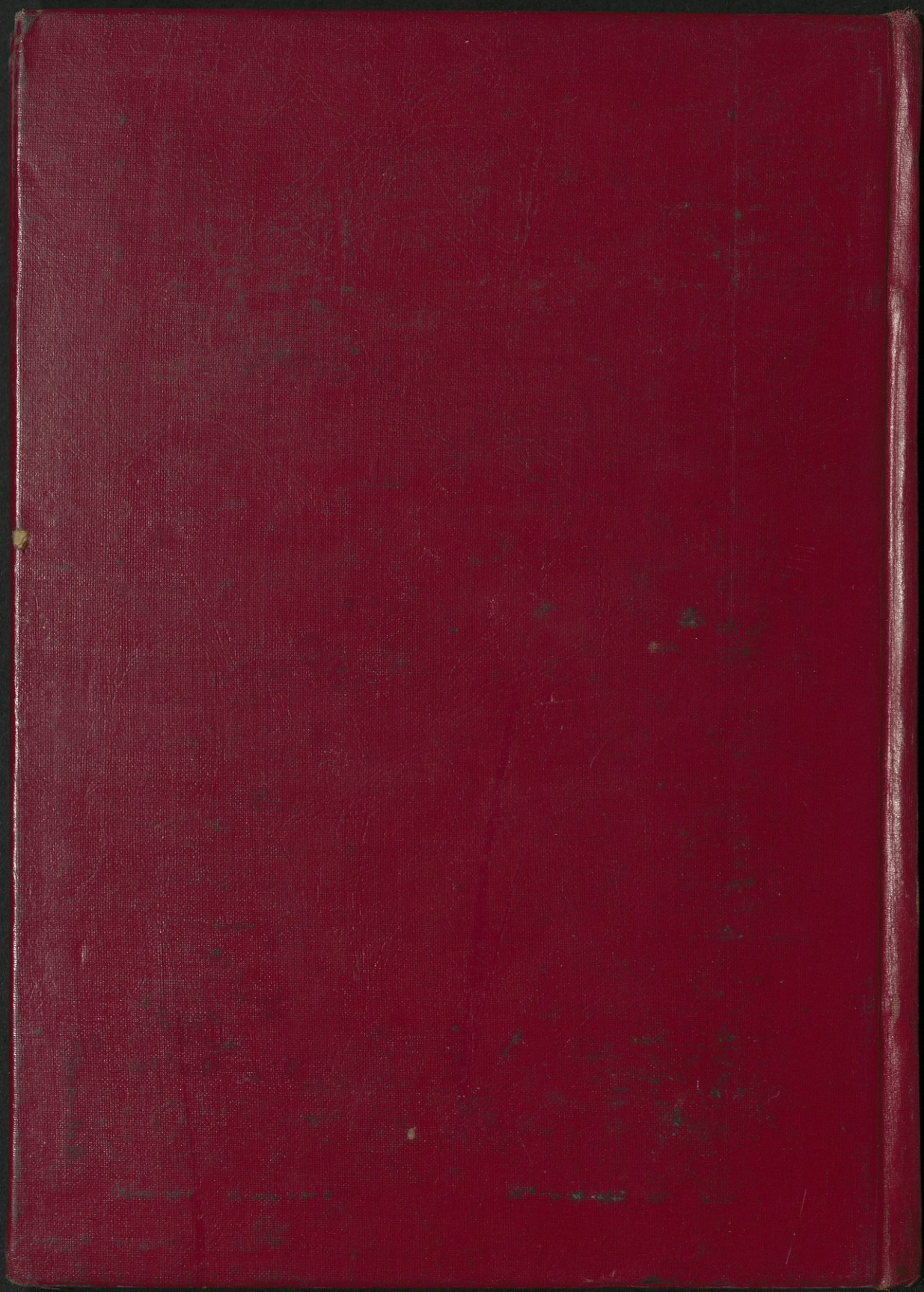
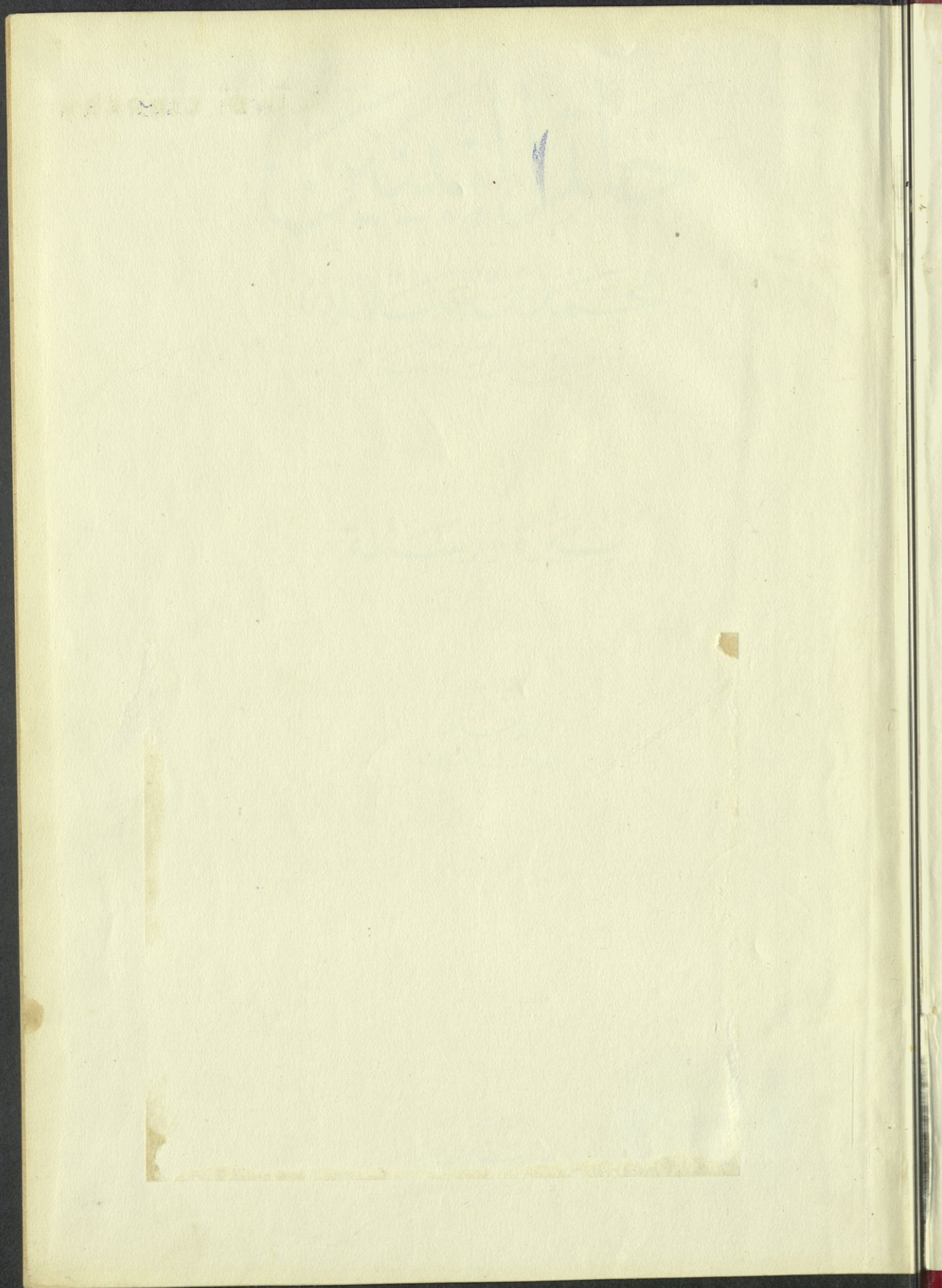
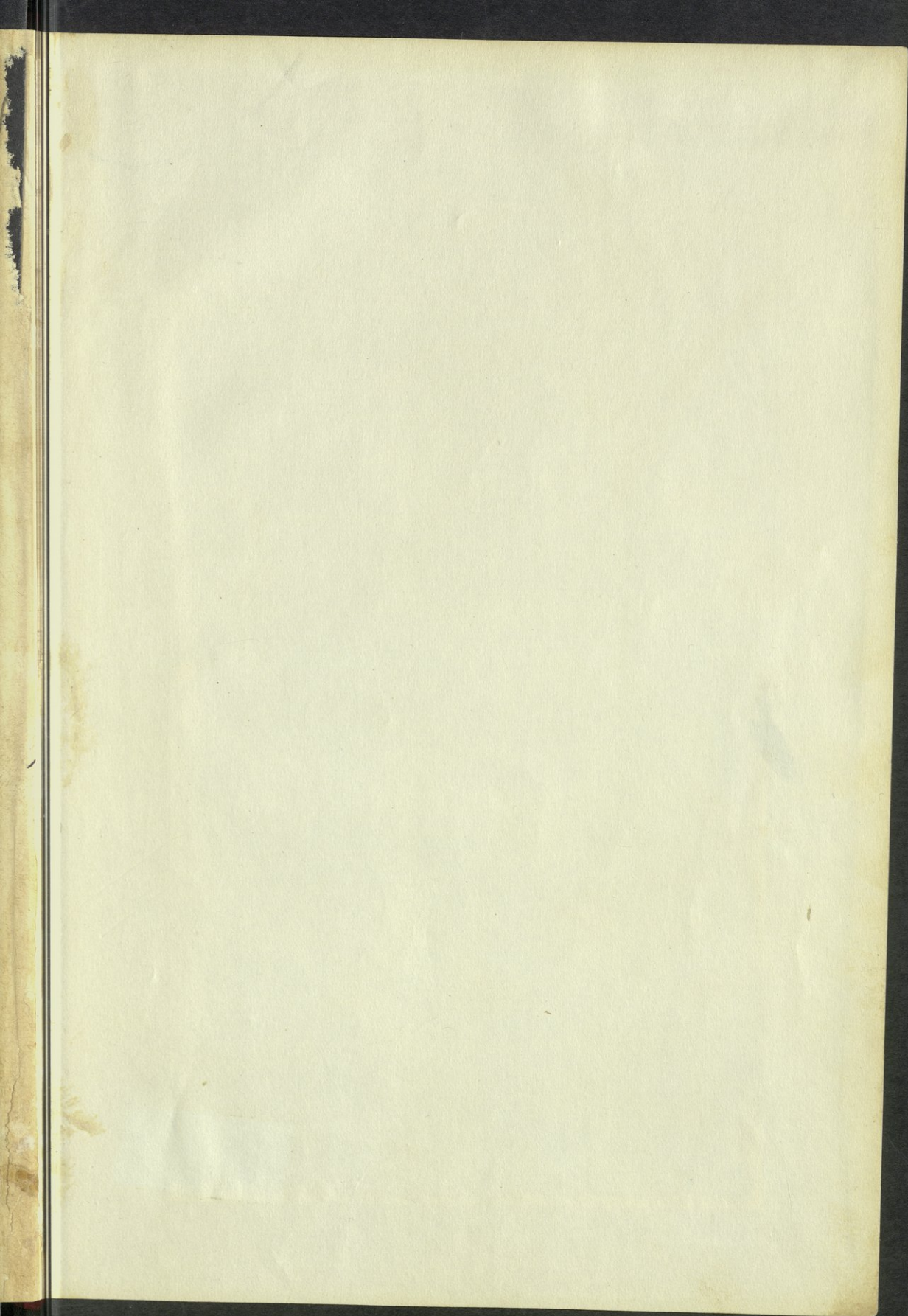




A. U. B. LIBRARY

توليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧





297.63

K452K1

C.I

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ

مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سَيِّرَةٌ وَرِسَالَةٌ

بقلم الصحفي

محمد خالِد

صاحب المصريات

الناشر

دار الكتاب العربي بمصر

محمد باي النياوي

عبادة

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وأشكرك ، وأصلي وأسلم على محمد بن عبد الله نبيك ، وأسألك
أن تغدق عليّ من القوة والبركة ما يجعلني أهلاً لما تصدّيت له من عمل تحبه ، وجهد
ترضاه ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، ولا معول إلا عليك .

و بعد : فإنه لا بد للضارب في مفازة الحياة من وقفة يستعرض فيها ما خلفه من
عمل ، وما ينتظره من أمل ، فإذا رأى في الماضي خيراً حمد الله على ما وفق وأعان ،
واتجه إلى المستقبل منشرح الصدر ، منتعش الوجدان ، أما إذا كان الأمر على غير
ما يرضى فإن عليه أن يجدّ فيما بقي ويُسَمِّر ، حتى يستطيع أن يعوض ما فاتته ،
ويستصلح ما بينه وبين الله .

وقد طوّف بي الفكر متصفحاً الماضي والحاضر ، متشوّفاً إلى المستقبل والآجل ،
ثم اقلب من جولتيه هاتين بحقيقة لا ريب فيها ، ألا وهي أن ليس من حق امرئ
أن يطوى جوانحه على رضا منه على نفسه ، مهما لوحث له بطمأنينة ؛ فإن النفس
أمارة بالسوء ، وهي فيما تمارسه من ألوان الأمر والنهي ، قد مُمّوه بشبهة ، وتلبس
بخدعة ، وتهضم حقاً ، وتزين باطلاً ، ومن ثمّ وجب التحرز وحق التحنث ،
وأصبح الجنوح إلى الاتهام أحوط ، والأخذ بالحذر أضبط .

وحين انتهى بي النظر والتأمل إلى هذه الحقيقة ، وما تقضى إليه من ضيعة
في الماضي وغرور في الحاضر ، أخذت أقش عن عمل يحبه الله كثيراً ، ويرضى عنه رضا
عظيماً ، فأخلص له وأنهمك فيه ، وأصفيه عقلي وجهدي وأحصمه نفسي وفكري ،
وأأخذ بماء طاهرة ، نقية لله تعالى حتى يكفر سيئاتي ويمحو خطيئاتي ، ويبيض
وجهي وصحيفتي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فلم أجده إلا في عبادة الله عز وجل ،

مثلة في تحرير سيرة مهذبة لحياة خاتم أنبيائه وسيد رسله : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ورسم الخطوط العريضة لرسالة الإسلام وتعاليمه الحمديدية .

وأقولها صريحة : إننى لم أجد فيها مارسته من عمل أو حاولته من جهد ، أمراً هو أحوج إلى عون الله العلى القدير وجميل توفيقه من هذا الأمر الذى نصبت له نفسى ، ولست أول من حاوله ، ولا آخر من تمناه ؛ فقد عكف على هذه العبادة السامية من عباد الله الصالحين خلق لا يعد ولا يحصى ، وانقطع إليها من أوليائه الملتقين جمع لا يبارى ولا يجارى ، وقد كان الأسلم — والشأن هكذا — أن يتقى التعرض لهذا الميدان ، امرؤ لم يؤت مالم يؤتته الأوائل ، ولا أوثر بما عزّ على من قبله من أئمة العلماء ، وفحول الأدباء ، ولكنى وقد أجريت هذا العمل مجرى التعبد فى ذات الله والتقرب إليه ، أحسست فيضاً من القوة يشيع فى نفسى وأبصرت نوراً يضىء لى طريقى ، فدلقت منتظم الخطى ، ومضيت مجتمع القوى ، وماتوفيقى إلا بالله .

ولقد كان مما يسر وأعان على هذا العمل الجليل ، أن سيرة الرسول الكريم ، فيها من مصادر العظمة وموارد الخير ، ما لا نفاذ له ولا آخر لمنتهاه ، ذلك إلى أن وردّها قريب وجنّاها داني القطوف ، وعظمتها جامعة شاملة ، ودولتها واسعة كاملة ، وكلما أمعن الطالبون البحث فيها تكشفت لهم جوانب جديدة ، وظهرت لهم معادن نفيسة ، فهم منها بقدر طاقتهم ، وحظهم فيها بحسب مايسعهم ، ولكل مجتهد نصيب . ومهما يكن من كثرة الوارد على هذا المنهل العذب ، فإنه من الوفرة والغزارة بحيث أن كل من يدلى بدلوه فيه ، صادر عنه بما يروى ويشفى ، وكل مغترف منه راجع بما يغنى ويهذى ، وعلى ذلك لاوجه للإشفاق أو التردد نظراً لكثرة الوارد والطلاب ، مادام النبع غزيراً والخير كثيراً .

ومهما يكن من كثرة المؤلفات التى شرفت بتدوين سيرة الرسول الكريم ، فإنها لم تف عظمته حقها ، ولا قاربت من ذلك أو داتته ؛ وأنّى لها ذلك وهو رسول الله ومصطفاه ، وحامل كلمته وناشر هدايه ، إنما هى محاولات أو عبادات ، منها مايقف

عند الفروض ومنها ما يتجاوز ذلك إلى بعض النوافل ، فأما الإحاطة والاستيعاب ، والإلمام بله الإطناب ، فذلك أمر تقتصر عنه المدارك وتعجز عنه الأفهام ، ولا تبلغ مداه الأوهام .

هذا كاتب ينحو منحى السرد المجرد لوقائع السيرة الشريفة ؛ فيعنى بالتواريخ ويحدد الوقائع ، وذلك مؤلف همه التعليق على الحوادث واستخلاص ما فيها من العبر والعظات ، وبيان ما اشتملت عليه من الباقيات الصالحات ، وثالث أهمته الناحية الخلقية التي جمع محاسنها القرآن الكريم في قول الله العليم : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ورابع عناءه من الأمر ما يعنى المولعين بأمور التشريع ، وخامس قيد بصره النور المشع من ذات الرسول هدياً وإرشاداً ، وحكمةً وسداداً ، وسادس وسابع ... الخ . الخ . وكلهم صائب القصد موفق الجهد ، وجميعهم قد وفى بحاجة ، وجاء بالحسنى فيما انتهجه وزيادة .

وكان من مؤلفي السيرة الأوائل في صدر الإسلام من هم أصح منا إيماناً ، وأفصح بياناً ، وأكثر منا محبة للرسول عليه السلام ، وأشد التزاماً لما توحى به سيرته الشريفة من صدق وإخلاص ؛ فانطبع أثر هذا كله في مؤلفاتهم وملاها خيراً وبركة ، وإنى أقول هذا القول إحقاقاً للحق وإيذاناً بالصدق ، مع ما فيه من حكم يلحقى أثره ، ولا تفوتنى مغيبته ، إذ الحق أحق أن يقال ، والصدق أولى بالمقال وأكرم بالرجال .

ثم كان من مؤلفي السيرة النبوية من تأخر عصرهم ، وبعدت الشقة بينهم وبين زمن الرسالة ؛ فاعتمدوا في التأليف على ما بين أيديهم من الكتب التي ورثوها عن السابقين الأولين . وأضافوا إليها ما اقتضته طبيعة العصر الذي عاشوا فيه وما أوحى به الحضارة التي توسطوها من تعليق وتعليل وتفسير وتأويل ؛ فمنهم من وفق في ذلك وأحسن ، ومنهم من اجتهد فأخطأ ، وكلهم مشكور على ما بذله من جهد ، وما وفق له من نتائج .

وقد قمت من هذه الاتجاهات المختلفة ، مقاماً وسطاً ، وقصدت من تأليف هذا الكتاب إلى أن أضع بين أبناء هذا الجيل ومن يلونهم من الأجيال ، في جميع البلاد الإسلامية ، كتاباً يأخذ من كل اتجاه بنصيب ، ويغنيهم عن الغوص في بطون الموسوعات ، والتقلب بين مختلف المؤلفات ، واستندت فيه إلى أصح المصادر وأوثقها ؛ فليست فيه واقعة إلا وهي مستقاة من أصل معول عليه بين العلماء ، مقطوع بصحته عند الأدباء .

وغنى عن التقرير أننى — والله يشهد — قد أفرغت في هذا الكتاب جهدى ، وبذلت فيه كل طاقتى ، وحرصت على أن لا يخلو من جديد من الفكر ، يضاف إلى الثروة الذهنية التى خلفها لنا الأولون ؛ ولولا ذلك لكان من العبث بوقتي ، والعدوان على وقت القراء ، الاشتغال بما لا يفيد جديداً ولا يضيف حديثاً .

وكان من أول ما استأثر برغبتى فى هذا المؤلف ، حرصى على مخاطبة أبناء هذا الجيل باللغة التى يفهمونها ، مع مقارنة أسلوب الكتاب من الأسلوب العربى المبين ؛ ليلم التناسق بين الكتاب وموضوعه ، وتحوم عبارته حول المنهج البيانى الذى شرعه سيد البلغاء وإمام الفصحاء محمد بن عبد الله .

ثم إننى قد حفلت فى الكتاب بتصوير وقائع السيرة النبوية تصويراً لا تكاد تقع عليه أبصار القراء حتى تعرفه بصائرهم وتقبل عليه هاشة هاشة فرحة مستبشرة ، ملفية فيه الصورة الصادقة الأمانة للرسالة المحمدية ، التى هدى إلى عرفانها القرآن الكريم وحددت معالمها الأحاديث النبوية الصحيحة ، والأقوال الصادقة الماثورة عن صحابة رسول الله ومن تبعهم بإحسان .

وقد اقتضى تنسيق الكتاب جعله فى مقدمة ، وقسمين :

وينصب الكلام فى المقدمة على وصف أحوال شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الرسالة المحمدية ، وبيان النواحي الآتية :

(أ) الناحية الاعتقادية عند العرب ومن كانوا يتأثرون به من جيرانهم .

(ب) الناحية الاجتماعية .

(ج) الناحية السياسية .

ويتألف القسم الأول من :

(أ) الإرهاصات التي تقدمت زمن الرسالة المحمدية .

(ب) مولد النبي عليه السلام وطفولته وبقاعته وشبابه حتى نزول الوحي عليه .

(ج) نزول الوحي وبدء الدعوة إلى الله ، وما تلا ذلك من حوادث حتى الهجرة .

ويشتمل القسم الثاني على ما يأتي :

(أ) استيطان النبي عليه السلام المدينة ، وما صاحب ذلك من احتكاك بينه

وبين المنافقين واليهود .

(ب) الغزوات والسرايا .

(ج) انتشار الدين الإسلامي في شبه الجزيرة .

(د) وفاة النبي عليه السلام .

والله ولي التوفيق .

محمد خالد

مقدمة

أحوال الجزيرة العربية والعالم

قبل ظهور الرسالة المحمدية

لا يعرف الشيء إلا إذا قورن بغيره وقوبل بسواه ، ولكي نستطيع الحكم على مبلغ ما أفاءته الرسالة المحمدية — على العرب خاصة وعلى العالم عامة — من خير وبركات ومجد وطيبات ، لا مندوحة لنا من وقفة طويلة ، نستعرض فيها ما كان عليه العرب من فوضى ضاربة الإطناب ، وما صاروا إليه بعد الإسلام من دولة عظيمة الجنب ، وملك واسع الأرجاء ، وبأس ثلّ عرش القياصرة في الشرق ، وترك عرش الأكاسرة أثراً بعد عين !

وكان مما ضاعف خطر الفوضى التي انتظمت العرب في الجاهلية ، وجعلها ضرباً من ضروب الجنون الإنساني ، أنها كانت شاملة جامعة ، مُستوعبة جامحة ، لا أثر فيها للعلم ، ولا ولاية للعقل ؛ بل جاهلية مطبقة ، ومفازة مهلكة ، وحياة لاحظ فيها إلا لمن اشتمل على سيفه ، واعتمد على رحمه ، وكان من قوة البدن ، ومتانة العضل ، وسعة الحيلة ، بحيث ينتزع نفسه انتزاعاً من الأخطار التي تحف به من كل جانب ، وتحيط به من ذات اليمين ومن ذات الشمال .

هل أتاك حديث شرعة الغاب ، وما تنطوى عليه من وحشية وهمجية ، وكيف تعتمد قوانينها — إذا جاز أن تسمى قوانين — على البطش والفتك والسكيد والغدر ، وكيف ترخص فيها الحياة ، وتهون المكارم وتنعدم الفضائل ، ثم كيف يأكل فيها القوى والضعيف . ويبطش فيها الخير بالشر ؟ . . . إذا كنت قد قرأت شيئاً من هذا فضاعفه أضعافاً مضاعفةً ، وكبرّه عشرات المرات لكي تستوى أمام ناظريك صورة حياة الصحراء زمن الجاهلية . وما أحسب أن خيال أهل هذا الجيل ،

وإن اتسع واستطال ، وأخصب وأثمر وبالع وعالى ، متصور ما كانت عليه حياة الجزيرة العربية قبل ظهور الرسالة المحمدية ، إذ كانت طرازاً من الوجود لا نعرفه ولا ندركه ولا تفي أنباؤه التي احتوتها كتب التاريخ بوصف حقيقته ، على وجه يقاربه بعض التقريب ، بله تمثيله أصح التمثيل .

وقد زاد من الجهالة بأمر العرب قبل الإسلام ، أنهم ما كانوا يدونون تواريخهم ، ولا يعتمدون في ذكر أنبائهم وأنباء آبائهم وأجدادهم إلا على الرواية المستندة إلى الذاكرة ، وهي مهما نشطت واتسعت ، لا تعي إلا القليل ، ولا يصمد منها للبقاء إلا الأقل ، ولذلك ندرت أخبار الجاهلية ، وقلت قلة طوعت للكثيرين من الرواة أن يتقولوا عليها ، ويضيفوا إلى أنبائها ، المنقولة بالرواية الصحيحة ، أنباء غريبة كانوا يتطرفون بها فيما بعد لدى الخلفاء الإسلاميين ومن إليهم ، ويتعرضون لمنحهم بكل مصطنع جديد منها ، وعم الأمر حتى لحق الشعر وجميع فنون الآداب . وكتب الأدب فياضة بما كان من ذلك ولا سيما ما نسب إلى حماد الراوية من التلفيق والتزويد في آداب الجاهلية ، واصطناع أخبارها اصطناعاً .

وقد قصدت من هذا الاستطراد القصير إلى بيان حقيقتين مهمتين هما :

(أ) أن الأنباء التي بين أيدينا عن جاهلية العرب قليلة جداً بالنسبة للحقب الطويلة التي اجتازوها حتى أصبحوا على النمط الذي فجأهم الإسلام وهم يحيون عليه .

(ب) أن هذه الأنباء — على قلتها — تطوع للنقطة الحكم بعق الهاوية التي تردى العرب فيها أيام جاهليتهم ، وكيف أنه لولا أن تداركهم الله برحمته منه وفضل فيدهم إلى الإسلام ، لكان من اليسير على التاريخ أن يتخفف من بعض أثقاله فينسخ صفحات الجاهلية من كتابه ، أو يمعن في إخفائها فلا يظهرها إلا على استحياء .

نظرة عامة إلى العالم قبل ظهور الرسالة

كان العالم في نظر العرب قبل ظهور الرسالة الحمديدية، ممثلاً في دولتي الفرس والروم . وتشمل كلمة الروم دولتي الرومان الشرقية والغربية ، ولكن الدولة الغربية كانت بمعزل عن العرب ، ولم يكن احتكاكهم إلا بالدولة الشرقية ، ولا سيما في الجزء الملاصق لهم من أملاكها ، وهو الشام .

دولة الأكاسرة

وكانت دولة الفرس هي الدولة المتصلة بالعرب أكبر الاتصال ، ولم تكن ذات كتاب ؛ بل كانت على الجوسية تعبد النار ، وتخضع لمواكها الأكاسرة خضوعاً تاماً يساوي العبودية ، وكان الشأن فيها مضطرباً ، ونظام الحكم غير قائم على أساس مستقر ، وكان الغالب عليه طبيعة الحاكم ، فإذا اتفق أن كان حَيِّراً ، وقليل ما كان يحدث ذلك ؛ استقام الأمر وقلت المظالم ، أما في الأمم الأغلب فقد كان الأكاسرة قومًا طغاة متجبرين ، لا يرجعون في أحكامهم إلى كتاب سماوي ، ولا يصدر عنهم في سياستهم عن قانون يمت إلى الإنسانية الرحمة بسبب أو يدلى إلى مكارم الأخلاق بنسب ؛ بل كان دستورهم في الحكم ، هواهم المطلق وشهوتهم الجاحجة ؛ وبلغ الشأن بهم في زمن من الأزمان أن سادتهم الشريعة المزدكية وهي شريعة خليعة ماجنة ، ابتدعها رجل مأفون اسمه ماني ونادى فيها بالشيوع في الأموال والأعراض ، يشارك كل فرد فيها إخوانه في العقيدة في أموالهم ونسائهم وكل مقتنياتهم ، وقد خيمت الفوضى التي جلبتها هذه الشريعة الماجنة على الفرس زماناً طويلاً ، ولم تنج منها إلا على يد كسرى أنوشروان ، وهو الملك الذي ولد النبي عليه السلام في عهده ، وسمى الملك العادل لأنه أنقذ دولته من الفوضى التي وصفناها ، وعمل على إشاعة العدل بين الناس والتسوية بينهم في الحقوق والواجبات .

و يستخلص من هذا البيان الوجيز أن دولة الفرس لم يكن لها شأن يذكر في تقدم الحضارة العالمية ، بل أنها لم تكن تستحق الذكر في مقام التحدث عن الدول التي أحسنت سياسة شعوبها ، وعدلت بين مواطنيها .

وقد ذكرها التاريخ على أنها دولة ذات سلاح ، تقوم في أرض كثيرة الخيرات ، وينتمى إليها خلق كثير يعد بالملايين ؛ ومن أجل ذلك ، درجت على الاحتكاك بجيرانها الأقربين والأبعدين ؛ فكانت تلتصر مرة وتنهزم أخرى ، وقد كانت آخر مواقعها بعد ظهور الرسالة المحمدية ، فقد حاربت الروم وانتصرت عليهم ، ولما ورد نبأ هذا النصر فرح له كفار قريش ، لأن الفرس كانت دولة وثنية مثلهم ، وكانت دولة الروم دولة ذات كتاب إذ كانت على المسيحية . ووجه الفرح عند قريش أنهم استبشروا بانتصار الوثنية التي يتعبدون بها مثل الفرس على دولة ذات كتاب سماوى تعبد الله العلى القدير مثل ما يدعو إليه محمد بن عبد الله من ذلك ، فأُنزل الله على نبيه هذه الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم . غَلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

وقد صدق وعد الله ، فانتصرت الروم على فارس في السنة السادسة الهجرية ، وهى السنة التى أرسل فيها النبی علیه السلام كتبه إلى الملوك ، بعد قصة الحديدية . هكذا كان شأن دولة الفرس ، وهو شأن لا يختلف كثيراً عن شأن شريعة الغاب يقوم على القوة مثله ويتتبع وسائله .

ولم يكن لهذه الدولة — خارج هذه الدائرة — نظام يحتذى ، أو مدنية يصح أن يقتدى بها ، وهذا التقرير يجعل للعرب القاطنين في الصحراء القاحلة شيئاً من العذر فيما درجت عليه حياتهم من الغزو والحركة الدائبة ، إذ الأمر في نهايته متماثل والنتائج متوافقة ، ولا فارق بينها إلا من حيث الضلالة والجسامة ؛ فهناك دولة تحارب أخرى لا تفرض عليها مذهباً ينهض بحياتها ويقوم أخلاقها ، بل لتتملك أرضها وتتحكم في رقابها ، وهناك قبيلة تغزو قبيلة أخرى لتستولى على ماشيتها ، وتسبي نساءها ؛ فالدوافع واحدة ، والنتائج متماثلة ، وإن اختلفت قلة وكثرة وتباينت قوة وضعفاً . ولولا الخوف مما يتبعه الاستطراد من الخروج على الغرض من هذا الكتاب لأطنا في هذا المقام ، إنما أردنا أن نبين في إيجاز ، كيف كانت سياسة دولة الفرس ، وكيف أنها كانت غير ذات فضل على الحضارة العالمية ، ولم تكن تُسهم في تقدم الإنسانية بكثير أو قليل ، وإنما كانت دولة وثنية همها الترف ، ودأبها السفه ، ونظرة ملوكها إلى الحياة محدودة بما يرضى الشهوات ويشبع الأهواء ؛ فهي على الحقيقة لا تفضل العرب إلا بالقوة ، وقد أداهم الله منها فنصروا عليها في وقعة ذي قار على يد هانيء بن مسعود ، رئيس بني شيبان .

وقد كانت هذه الواقعة بعد ظهور الإسلام في السنة الثانية الهجرية بين غزوتي بدر وأحد كما حدد ذلك المؤرخون ، ثم أجهز عليها الإسلام في واقعة القادسية على يد سعد بن أبي وقاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

دولة الروم

جاء الإسلام والديانة المسيحية حديثة العهد ، فلم يكن مضي على مبعث السيد المسيح صلوات الله وسلامه عليه أكثر من ستة قرون ، مضى أكثرها وأتباع هذه الديانة مغلوبون على أمرهم مُعرضون لجميع أنواع العذاب والابتلاء ، شأنهم في ذلك شأن أتباع الديانات السماوية أول نشأتها . وسيرى القراء مصداق ذلك في هذا

الكتاب عندما نعرض لما ابتلى به النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأولون من قريش ، وما تعرضوا له من الأذى على يد عبدة الأوثان .

ولم ترسخ قدم الديانة المسيحية إلا عندما اعترف بها الامبراطور قسطنطين الأكبر في مرسوم معروف باسم مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ ميلادية أباح فيه حرية الاعتقاد في إمبراطوريته .

ولسنا متجنين على أحد إذ قررنا أن قياصرة الروم لم يتأثروا كثيراً في سياستهم وملكهم باعتناق المسيحية . ذلك أنهم مضوا في شأن الملك ، وسياسة الأمم المختلفة التي كانوا يحكمونها على ما جرت عليه عادتهم قبل الاعتراف بالمسيحية ، فقد ظلت النظم هي هي ، والقوانين هي هي ، والعادات كما كانت ، والتقاليد لم يطرأ عليها أى طارئ ، ولم تلحقها أثارة من الدين السامى الجديد الذى اعتنقوه ، أما الظاهرة الكبرى التي نشأت من هذا التغيير في العقيدة ، فهي الإقبال على نشر هذه الديانة والمغالاة في ذلك مغالاة تضارع المغالاة في التشكيل بمعنتيها قبل أن تقرها الدولة .

ويستخلص من ذلك أنه على الرغم مما توصى به المسيحية من إخاء وتسامح وحب وغير ذلك من الفضائل التي أوصى الله بها جميع أنبيائه ، وجعلها أساساً لكل شرائعه ، لم تتشرب نظم الدولة السياسية والاجتماعية شيئاً من ذلك ، ولم تطبع بطابعه ، بل مضت على غلوئها قبل اعتناق الدولة هذه الديانة ، وظلت الأمم التي كانت تابعة للدولة الرومانية من شرقية وغربية ، محكومة بالنظم والأساليب التي كانت محكومة بها قبل هذا الحدث التاريخي الكبير . وهي نظم وضعت قبل ظهور المسيحية وظلت سائدة إلى أن جاء الإسلام .

وعلى ذلك يمكن القول بالترفة بين هذه الديانة وبين معتنقيها ، كما يمكن أن يقال بهذه التفرقة من غير تحرج بين الديانة الإسلامية ومعتنقيها هذه الأيام فإن هناك

فرقاً كبيراً و بوناً شاسعاً بين تعاليم الإسلام و بين أعمال المسلمين اليوم . فلو أن المسلمين عادوا إلى سيرتهم الأولى أول ظهور الإسلام لعاد إليهم مجدهم الغابر ، ولا ستأنفوا العظمة التي بلغوها يوم كانت كلمتهم العليا ورأيهم المطاع .

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الكلام عن دولة الروم ، فأقول : إن هذه الدولة بقسميها : الغربي والشرقي ، لم تتأثر بتعاليم الديانة المسيحية بل ظلت سادرة في غلوأها ، ماضية على خطتها ، من ظلم الشعوب ، وهضم الحقوق ، والبعد كل البعد عن وصايا الديانة التي اعتنقتها ، وعلى ذلك أصبحت في نظر الأمم التي كانت تحكمها ، والشعوب التي كانت تجاورها ، وكأنها لم تأت بجديد ولم تتأثر بجديت بل اكتفت بطقى هذه العقيدة في صدرها والقيام بطقوسها ومراسمها في الكنائس والمحافل الدينية ليس غير ؟

وليس من همى في هذا الكتاب أن أتوغل أكثر من ذلك في هذا الموضوع الدقيق ، ولكنى أكتفى بالقول : إن الشعوب التي كانت تابعة للدولة الرومانية بقسميها رأت في الإسلام حين عرض عليها ممثلاً في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، أموراً لم ترها فيمن كانوا يلون أمورهم ، ولهذا أقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه أفواجا ، واستمتعوا بما كان حراماً عليهم حلاً لحكامهم من حرية شاملة ، وعدل مطبق ، وتحنت من الحكم والولاء لم يروا مثله ، ومساواة بين الناس صغيرهم وكبيرهم وبين الحاكم وأفراد الرعية لم ير التاريخ لها نظيراً ولم يعرف العالم لها ، شبيهاً وحسبك بالمثل الذي ضربه عمر بن الخطاب في العدل والاقتصاص بين ابن عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها على عهده ، وبين الفلاح المصرى الذى ضربه ، فقد سافر المصرى إلى المدينة مطالباً بحقه وشكا إلى عمر أمره ، فأرسل فاستحضر عمرو بن العاص وابنه فلما حضرا وسمع القضية من الطرفين ، أمر المصرى أن يقتص من ابن عمرو ، وقال له استهزاء : اضرب ابن الأكرمين ! ففعل ، ثم قال له : اضرب عمراً فأبى وقال : لو ضربنى لضربتته !

هذا ماجاء به الإسلام من تعاليم عمل بها ودخلت في صميم سياسته وصارت مصدراً للحكم والتشريع ، وقانوناً مطبقاً في جميع نواحي الحياة وعلى سائر أفراد الناس ، من عامتهم إلى خاصتهم ومن الحاكمين إلى المحكومين . وهذا ما لم يكن للناس به عهد ، ولا عرف له بينهم أو فيما تناقلته الأخبار شبيه أو نظير !

ونخلص من هذا كله إلى تقرير حقيقة واضحة لا شك فيها ولا خلاف عليها ألا وهي أن الدين الإسلامي قد اختص بخصوصية لم تكن لغيره من الأديان المعروفة وهي كينونته مصدراً للتشريع العام سواء في ذلك ما اتصل بالمعاد أو انصب على المعاش . لا شرع غيره ولا قانون سواه . وكل ما يعرض من أمور لم يأت فيها بنص من القرآن أو الحديث الصحيح قيس على غيره مما هو شبيه به أو قريب منه . وعلى هذا أصبحت ولاية الدين عامة وحياطته شاملة . وانطبعت تعاليمه في الصحابة وعملهم وجميع من اتصل بهم في عمل أو ولاية حتى كانوا لا يصدر عن إلا عنه ولا يتأثرون إلا به ولا يقضون في صغيرة ولا كبيرة في أي شأن من شئون الدنيا والآخرة إلا بهدى من تعاليمه وتحت ضوء من إرشاده .

الناحية الاعتقادية عند العرب

كان العرب الأول من ذرية إسماعيل ، على دين أبيهم إبراهيم ، ولكنهم لما كثروا بمكة وضائق عن أن تبقى بأرزاقهم تفرقوا في شعاب الجزيرة ووديانها ، يطلبون الرزق . وقد ذكر المؤرخون أن كل قبيلة هاجرت من مكة أخذت معها حجراً من أحجار الحرم للذكرى والطواف به ولما تطاول بهم العهد ونسي السبب الذي من أجله حمل هذا الحجر من مكانه عبد على صورة ما من صور العبادة ، فبعض الأصنام كان يعبد لذاته وبعضها يعبد تقرباً إلى الله ووسيلة إليه ، وقد قال الله على لسان عبدة الأصنام : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

وذكر السهيلي في التعليق على السيرة النبوية لابن هشام :

« يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ولا يقال وثن إلا لما كان من غير

صخرة كالنجاس ونحوه . وكان عمرو بن لُحَيّ حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرمهم عن مكة قد جعلته العرب ربّاً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى أله اللّات^(١) الذي كان يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى اللّات . ويقال إن الذي يلت كان من ثقيف فلما مات ، قال لهم عمرو : إنه لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى اللّات ، ويقال دام أمره وأمر ولده على هذا بمكة ثلاثمائة سنة ، فلما هلك سميت تلك الصخرة اللّات مخففة التاء واتخذ صنّا يُعبَد .

وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيّ ، خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العالقي ، وهم ولد عملاق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ! فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

ثم اتسع الأمر بالعرب واختلط عليهم الرأي ، فعبدوا كل ما استحسنوه من الحجارة والأشجار ، فقد عبدت قبيلة نجران نخلة وأقامت لها موسماً سنوياً تحتفل بها . واتخذت بعض القبائل طواغيت تعظمها كتعظيم الكعبة ، وجعلت لها سدة وحجاباً وتهدى لها كما يهدى إلى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده . ولم يكن لهذه العبادة أثر في تهذيب النفوس أو الاستمسك بعري الأخلاق الفاضلة ، إذ كانت الأشياء المعبودة حجارة صماء ، لا تنطق ولا توحى بخير ، ولا تحفز

(١) لت السويق أى عبثه .

عابديها إلى الهدى والاستقامة وأنّى لها ذلك وهى حجر صلد ، ومبلغ الأمر فيها أن عابديها حصروا فائدتهم منها فيما توهموه من أنها تبارك أعمالهم وإن كانت سيئة للغاية ، وتنصرهم فى حروبهم ، ولو كانت حروباً حفز إليها الطمع والجشع وقاد إليها ما ركب فى طبائعهم ، من حب السلب والنهب ، والفتك والغصب ، والعدوان على الجار ، وقطع الطريق على السابلة وإتيان كل منكر بغية الإفادة منه وتحقيق المغنم من ورائه .

وكان من المناسك التى أجمع العرب على احترامها من قديم ، جعل أربعة أشهر من شهور السنة حراماً لا يحل فيها قتال وهى : الحرم ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والحكمة فى ذلك ظاهرة ، وهى القصد إلى سيادة الأمن على الجزيرة فى هذه الأشهر ليقضى الناس فيها مناسكهم وينجزوا أعمالهم تحت ظل الأمن والسكينة ولكن ما لبثت الطبيعة النزاعة إلى الشر أن عبثت بهذه الشرعة الحكيمة فنصب أناس من العرب أنفسهم لإحلال القتال فى بعض هذه الأشهر وإحلال شهر آخر محلها فى التحريم وفى هذه نزل القرآن الكريم :

« إِنَّمَا أَلْئِسُوا زِيَادَةً فِي الْكَفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » .

وهكذا مضت الحياة فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية على مسنخ من العقيدة لا هو بالمفيد النافع ولا هو بالثابت المستقر ، وفوق هذا وذاك لم يكن بذى أثر إطلاقاً فى تكوين رابطة ، أو تثقيف جماعة ، أو إنشاء دولة تجتمع العرب تحت رايتها ويكون لها شأن فى سياسة العالم كما كان من ذلك حين جمع الله العرب على الإسلام ونشر كلمته فى معظم المعمور من العالم فى أقل ما يمكن من الزمن قياساً إلى انتشار الدعوات الدينية التى تقدمت الإسلام .

ونتهى من هذا كله إلى القول ، بأن الناحية الاعتقادية عند العرب قبل الإسلام كانت أضعف نواحي الحياة عندهم وأسفها وأقلها أثراً فيما يصدر عنهم من أعمال

وأقوال ، بل أولى من ذلك وأحق أن يقال : إنها كانت الناحية التي قضت عليهم باعتبارهم عنصراً مهماً لتكوين دولة منظمة فحالت بينهم وبين أن يصبحوا كذلك ، وفقرتهم أيدي سبا ، وجعلت منهم فرقاً وقبائل وأخذوا يتناحر حتى تتفانى وتتقاتل في ناقة^(١) أربعين عاماً !

الناحية السياسية عند العرب

لم يكن للعرب اتجاه سياسي محدد يجمعون عليه ، أو هدف يدلون نحوه ، أو غاية سامية يزنعون إليها ، ونحن إنما نتكلم عن هذه الناحية على يقين من أنها لم تكن معروفة عندهم ولا مصورة في أخیلتهم ، إنما كانت العادة تجري بأن يرأس كل قبيلة أقواها بأساً ، ثم تضطر الأحوال القلقة المضطربة قبيلة أو أكثر لعقد حلف مع مجاورها من القبائل ، وكانت الأحلاف تعقد غالباً بنية العدوان على قبائل أخرى ونهب أموالها وسبي نساءها وذرياتها واستعبادهم .

هذا فيما يتصل بداخل الجزيرة العربية وعلاقات القبائل بعضها ببعض ، فلم تكن هناك رئاسة معترف بها لقبيلة من القبائل على القبائل الأخرى ، ولا نستثنى قريشاً من ذلك فقد تعرضت لعدوان قبائل أخرى عليها ، وحروب الفجار ، التي شهد النبي صلى الله عليه وسلم بعضها ، أكبر دليل على ذلك .

أما من الناحية الخارجية ، فقد كان معظم أنحاء الجزيرة العربية مشمولاً بنوع من أنواع التحكم السياسي للدولة الفرس وكان ينوب عنها في رعاية هذا الوضع ، آل المنذر بالحيرة ، وكان هناك جزء آخر من الجزيرة مما يلي الشام يشرف عليه العساسنة من قبل الروم ، وكان للفرس وضع سياسي في اليمن نتج عن استجابتهم لاستغاثة بعض أبناء ملوك اليمن السابقين بهم على إجلاء الأحباش من بلادهم وحلولهم محلهم . وقد استمر هذا الوضع إلى ما قبل ظهور الإسلام وانتهى بوفاة المندوب الفارسي ونشأة

(١) هي ناقة البسوس وقصتها مشهورة .

طراز من ملوك الطوائف وضع كل واحد منهم يده على ما يليه من الأرض والبلاد ،
وقد جاء الإسلام والشأن هكذا في اليمن ، ففيها رؤساء وأقيال وملوك

وكانت القبائل العربية تعترف بالأوضاع السياسية التي كانت للروم أو للفرس .
ولا تجد في نفسها غصاضة منها ، بل كانت تفخر بها ويعتد كل زعيم من الزعماء
بما يناله من الخطوة عند آل المنذر بالحيرة أو آل غسان بالشام ، وكان الفوز بنصيب
أكبر من هذه الخطوة مناط التفاخر وغاية المجد والجاه .

وكان آل المنذر ينتخبون طائفة من زعماء القبائل ، الفينة بعد الفينة ويوفدونهم
إلى كسرى ، ليقدموا إليه الولاء ولينفكه هو بما يرى من بداوتهم وخشوتهم ،
وما يسمع من أقاصيصهم وطوائف وقائعهم ، وقد تكفلت كتب التاريخ بسرد أنباء
هذه الوفادات فلا داعي لحشرها في هذا المقام ، وإنما عرضنا لذكرها لبين مبلغ تفتت
العرب وضالة شخصيتهم السياسية في الجاهلية ليتسقى للقارىء مقارنة هذه الحال للوضع
بما صاروا إليه في عز الإسلام ، وكيف مكن الله لهم بهذا الشرف العميم فأصبحوا
بفضله سادة الأرض ودكوا عروش الأكاكسة والقيصرة ، وصار رعاة الشاء وحداة
الإبل خير أمة أخرجت للناس وذلك بفضل الرسالة المحمدية وعز الراية الإسلامية .

الناحية الاجتماعية عند العرب

أسلفنا الكلام على الناحيتين : الاعتقادية والسياسية عند العرب في الجاهلية ،
وهما شربحت ورجس محض ، لم نستطع أن نجد فيهما منفذاً نخلص منه إلى تسجيل
مكرمة أو رواية فضيلة ، ولكن الأمر على غير هذا النمط فيما يتصل بالناحية الاجتماعية
فقد اشتملت على التقيضين : غنياً تنسأى وتتصاعد حتى تبلغ الذروة ، وآناً تنسفل
وتنحدر حتى تهوى إلى قاع سحيق من الرذيلة والانهطاط ، وسنضرب فيما يلي أمثلة
على هاتين الناحيتين .

أما الناحية الأولى ففنها :

النجدة : كانت النجدة على رأس الفضائل العربية في الجاهلية ، وقد أثرت عنهم فيها وقائع ذهبت مذهب الأمثال ، وأصبحت من أعلام التاريخ ؛ فكم من مرة استجاب فيها عربى لداعى النجدة فضحى بنفسه وآله طيب النفس بما أقدم عليه غير آسف على ما صنع ، ولا نرى فى هذا المقام مثلاً أروع ولا ذكراً أبقي ولا صورة أصدق على النجدة مما أقدم عليه بنو شيبان فى أمر النعمان بن المنذر ملك العرب النائب عن كسرى حين فسد الأمر بينهما وصمم كسرى على قتل نائبه ، وحديث ذلك يطول وهو مبسوط فى كتب الأدب والتاريخ وخاصة كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني وخلاصته :

وشى بعض بطانة كسرى بالنعمان إليه وملاه حقداً عليه بسبب ما أباه النعمان على كسرى من المصاهرة ، فقد خطب إليه كسرى إحدى بناته فرفض جرياً على عادة العرب من الأنفة أن يزوجوا بناتهم للأعاجم ولو كانوا ملوكاً . وأحس النعمان ما يبيت له كسرى من الغدر وكان قد دعاه إلى زيارته فى عاصمة ملكه فاحتمل نفسه وآله وغادر الحيرة مستجيراً بزعماء القبائل فلم يجره أحد خوفاً من كسرى وجبروته ، ولكن قبيلة شيبان سمعت لهذا الأمر واستجابت لداعى النجدة ، وكان زعيمها هانىء ابن مسعود ، فقال للنعمان فيما قال له : اذهب إلى صاحبك وحاول استصلاحه . فإن قبل منك فذاك وإلا متَّ كريماً ، فلأن تموت ملكاً خير من أن يتخطفك ذوؤبان العرب !

فقال النعمان : وبناتى ونسائى ؟ .

فقال هانىء : إننى أمنعهن مما أمنع منه أهلى وعيالى .

فرضى منه النعمان ذلك وعمل بنصحه ، فأودعه آله ورحل إلى كسرى فقتله

وجرد حملة على بنى شيبان فتداعت لنصرتها القبائل وهزموا جيش كسرى .

هذا هو أبلغ مثل نصرته على النجدة الجماعية فى أهول موقف تلتبس فيه ،

وأعظم مقام تقوم له ، ولست أحب أن أطيل على القراء بالتوسع والإطناب فى الحديث

عن العظمة النفسية التي تجلت في بني شيبان ومن أرزهم من القبائل حين تصدوا لكسرى وأجاروا عدوه ، ولما عرّضوا أنفسهم وأهلهم خاصة والعرب عامة له من عواقب ومغبات ، فإن هذا مما لا ينبغي أن يفوت إنسان أو يحتاج فيه أحد إلى مزيد من البيان !

وقد روى صاحب الأغاني في سند مرفوع إلى عبد الله بن العباس ، أن واقعة ذي قار ذكرت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
« ذلك يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصر » .

وروى أن النبي عليه السلام ، مثلت له الواقعة وهو بالمدينة ، فرفع يديه فدعا لبني شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر ، ولم يزل يدعو لهم حتى أرى هزيمة الفرس .
وروى كذلك . أنه قال :

لَيْسَ بَنِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ انصُرْ بَنِي رَبِيعَةَ ، فَمِنْ الْآنَ إِذَا حَارَبُوا دَعُوا شَعَارَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتَهُ لَهُمْ ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَدُكَ ، فَإِذَا دَعُوا بِذَلِكَ نَصَرُوا .

الكرم : ومن مفاخر العرب ذهابهم في الكرم إلى حد الجود بالنفس فأما الجود بالطعام وبالمال فإن ماثرهم فيه أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تدون ، وحكايات حاتم طي وعروة بن الورد وكعب بن مامة مشهورة معروفة قد تناقلتها الكتب وصارت مضرراً للأمثال ، وتغنى بها الشعراء وتحدث بها الأدباء .

الشجاعة : والحديث عن شجاعة العرب في الجاهلية حديث معاد ، ولم تكن الشجاعة عندهم حلية أو تظاهراً بل كانت قوام حياتهم ولا عيش هناك لجان ، ومن هنا يصح القول بأن هذه الصفة كانت عامة فيهم وقد اقتفتها وظيفة الدفاع عن النفس وحماية الأعراض ، وغاية الأمر أن بعض الأفراد كان يتفق لهم أن يجمعوا بين الشجاعة وقوة الجسم وخفة الحركة ومزيداً من الجرأة فيرقوا إلى مصاف الأبطال .

الناحية الأخرى : ويقتضينا الأمر أن نطوى هذه الصحيفة متلفتين إلى الصحيفة الأخرى كارهين إذ نرى فيها أشنع ماتقع عليه عين ناظر وأفزع ما يوصم به حتى كائن : نرى العرب يئدون بناتهم العزيزات خوفاً من الفقر وبخلا عليهم بفتات العيش .

ونرى الخمر متفشية فيهم يدمنون عليها وينفقون على ثمنها معظم ما يفيدون من كسب وما يملكون من مال غير متأمين منها ولا مبالين بما تعرضهم له من نتائج محرجة ونهايات سيئة .

ونرى الميسر غالباً عليهم ، يقامرون بأموالهم ونسائهم وأنفسهم إذا فرغوا من المقامرة بما يملكون من مال ومتاع ، وأسوأ مثل يضرب على ذلك مارواه صاحب الأغاني في الجزء الثالث ، من كتابه قال :

« قامر أبو لهب ، العاصي بن هشام الخزومي في عشر من الإبل فقمرة أبو لهب ثم في عشر فقمرة ، ثم في عشر فقمرة ، ثم في عشر فقمرة ، ثم في عشر فقمرة ، إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شيء ، فقال له : إني أرى القِداح ^(١) قد حالتك يابن عبد المطلب ! فهلم أقامرك ، فأينا قَمِرَ كان عبداً لصاحبه قال : أفعل ، ففعل ، فقمرة أبو لهب فكره أن يسترقه فتغضب بنو مخزوم ، فشى إليهم وقال : افتدوه مني بعشر من الإبل ، فقالوا : لا والله ، ولا بوبرة ! فاسترقه ، فكان يرعى له الإبل إلى أن خرج المشركون إلى بدر ، وكان من لم يخرج ، أخرج بديلاً ، وكان أبو لهب عليلاً فأخرجه وقعد ، فقتله على بن أبي طالب رضى الله عنه . »

هذا مثل يدل على أسوأ صورة ينحط فيها المجتمع حتى يفقد إنسانيته ويتعري من مقوماته البشرية ، ويصبح هو والبهائم سواء بسواء .

وكان من أسوأ سوات العرب في الجاهلية تحكيم السيف في الحريات العامة ، فكل أسير حرب ينقلب عبداً إذا لم يفتد نفسه بما يفرضه عليه أسرته من فداء ،

(١) القِداح آلة الميسر في الجاهلية .

وهكذا كان يصبح العربي سيداً في قومه ويمسى عبداً يباع ويشترى إذا صار أسير حرب !

أما الأموال التي يضع الجيش المنتصر يده عليها فإنها تصبح ملكاً له ولا سبيل إلى استردادها إلا بالطريقة نفسها ، وقد كان غزو قبيلة قبيلة أخرى وسلبها أموالها أهم وسائل الحياة عند العرب وأول مقوماتها . ومن طريف ما يحكى في هذا المقام — إذا كان للطرافة هنا موضع — أن أحد زعماء القبائل عرض على زعيم قبيلة مجاورة له أن يتحالفا فلا يغزو أحدهما الآخر فأبى المعروض عليه ذلك . وكان زعيماً قوياً وقبيلته أكثر عدداً وأعظم بأساً من القبيلة الأخرى ، وقال :

ومن أين تأكل قبيلتي ؟ ! ! .

وكان من عادات العرب السيئة زواج نساء آبائهم وظلت هذه العادة قائمة حتى أبطلها الإسلام .

وليس من المستطاع حصر سواك العرب الاجتماعية في الجاهلية إذ المقام لا يتسع لها إنما همنا أن نضرب أمثالا عليها تطويع للحكم بأنهم كانوا في حال من البداءة والضراوة والكذب مرنوا عليها حتى استساغوها ، ولم يكن لديهم من سعة الأفق وبعد النظر ما يصرهم بسوء ما كانوا فيه فضلا عن التطلع إلى ما هو أفضل منه ، وما زالوا هكذا يخبطون في أمورهم خبط عشواء وينتقلون من سيء إلى أسوأ ، حتى من الله عليهم بالهدى بعد الضلال ، وبالنور بعد الظلام ، فشرفهم بالإسلام وأكرمهم بالإيمان ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

لقسم الأول

التمهيد لظهور الرسالة المحمدية

إرهاصات وتنبؤات

حين استشرى الشر وعمت الفوضى وطمت ، وانغمست الجزيرة العربية في ظلام دامس ، وغشى العالم كله من الهول والاضطراب والقلق والضيق ما غشيه ، وأصبح لاعاصم للخلق ولا داعى إلى الخير ، وصار العالم فى فتنة هوجاء وداهية دهية ، تلفتت القلوب المستنيرة — وقد كانت موجودة على قلة — تلتبس داعى الهدى ، وتتوقع ظهور البشير النذير محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وجد هؤلاء المتأسسون ملتسمهم داني الظهور ، وعرفوا بواسطة دلائل مختلفة تمثلت فى إرهاصات عجيبة ، وظواهر شتى ، أنهم قد أظلموا وأن هذا النبى الأمى الأمين ، فأخذوا يتوقعون مبعثه يوماً بعد يوم .

المحمدون الثلاثة

و بلغ بهم اليقين من ذلك أن جماعة منهم وقد امتلأوا إيماناً بحلول موعد الرسالة وقرب ظهورها وأن اسم الرسول المنتظر « محمد » ، سمو أبناءهم محمداً ولم يكن هذا الاسم مألوفاً بين العرب ولا تسمى به أحد منهم قبل هذا الزمن .

قال صاحب الروض الأنف :

« لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع آبائهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرّب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز — أن يكون ولداً لهم وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جدّ جدّ الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسى ، والآخر محمد ابن حمران بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده

من علم الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ففعلوا ذلك .

يهود يثرب يتنبأون بالنبي العربي

قال الطبري في تاريخه :

« كان تُبَعَّ : أسعد أبو كرب ملك اليمن مرَّ يثرب مشرقاً فلم يهيج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له قُتِلَ غيلة^(١) ، فقدمها وهو مجمع لإخراها ، واستئصال أهلها وقطع نخليها ، فجمع له هذا الحى من الأنصار حين سمعوا بذلك من أمره ليمتنعوا منه ورؤسهم يومئذ عمرو بن الطلة أحد بنى النجار ، فخرجوا لقتاله ، وكان رجل منهم قد قتل رجلاً من أصحاب تبع ، وجده في عَدَق^(٢) له يجده ، فزاد ذلك تبعاً عليهم حقناً ، فبينما تبع على ذلك من حربته وحربهم ، يقاتلهم ويقاتلونهم ، قال : فتزعم الأنصار ، إنهم كانوا يقاتلونهم بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا هؤلاء لكرام ، إذ جاءه حبران من أحبار يهود بنى قريظة ، عالمان راسخان حين سمعا منه ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له :

أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن آيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة .

فقال لهما : ولم ذلك ؟

فقالا : هي مُهَاجَرٌ نَبِيٌّ يخرج من هذا الحى من قريش في آخر الزمان ، تكون داره وقراره . فتناهى عند ذلك من قولهما عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمعه منهما فانصرف عن المدينة .

نجم أحمد

ومن هذا القبيل ما رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية عن حسان بن ثابت

رضي الله عنه ، قال حسان :

(٢) العدق : النخلة يحملها .

(١) غيلة : أى غدراً .

« والله إنى لغلام يَفْعَة ^(١) ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ماسمعت ،
إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمَة ^(٢) يثرب :
يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ! مالك ، قال : طلع الليلة
نجم أحمد الذى ولد به » .

ملك اليمين يهشر عبد المطلب بن هاشم بولادة الرسول من صلبه

ذكر صاحب الروض الأنف : أن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول عليه
السلام ، وفد إلى ملك اليمين وهو إما سيف بن ذى يزن أو ابنه معدى كرب فى ركب
من قريش ، فقال له :

مرحباً بابن أختنا [يشير إلى أن أم عبد المطلب من الخرزج وأصلهم من اليمين]
وأهلاً ، وناقاة ورحلاً ، وملكا سبجلاً ^(٣) ، يعطى عطاء جزلاً ، ثم بشره بالنبي صلى الله
عليه وسلم وأنه من ولده .

فقال له عبد المطلب ؛ مثلك أيها الملك سرّ وبرّ ، ثم أجزل الملك جباة ،
وفضله على أصحابه ، وانصرف مغبوطاً على ما أعطاه الملك ، فقال :
والله لما بشرنى به أحب إلى من كل ما أعطانى .

البقيّة ثانى

هذا قليل من كثير مما جاء من البشائر عن قرب مولد الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم ، اجتزأنا به لنضرب به المثل على تهيو الأذهان للرسالة الحمديّة ، وقيام البراهين
على قرب موعد ظهورها ، وسنعتقب عليه بفيض زاخر من قبيله عند الكلام على
مولده صلى الله عليه وسلم وما صاحبه وسائر طفولته ويفاعته من الآيات البينات ،
والظواهر الخارقات .

(٢) أطمَة ، أى حصن أو مكان مرتفع .

(١) غلام يفعَة . أى قوى .

(٣) سبجلاً . ضخماً .

مولد الرسول عليه السلام

حقق العالم المصرى الكبير المرحوم محمود الفلكى باشا، تاريخ مولد النبی العربی الکریم، تحقیقاً عالمياً انتهى منه إلى أنه صلى الله عليه وسلم ولد فى صبيحة الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق اليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ ميلادية وذلك عند العرب عام الفيل.

على أن المشهور فى تاريخ ولادته الشريفة، هو أنه ولد فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل، وقد أصبح هذا التاريخ معترفاً به اليوم فى جميع الأقطار الإسلامية، تعطل فيه الأعمال الحكومية، ويتوجه فيه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الله العلى القدير بالشكر، أن تجلت رحمته بهم، فأكرمهم بهذا النبی الأمين، وهداهم إلى صراطه المستقيم.

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» .

عمود النسب النبوى الشريف

ولد محمد رسول الله لأبيه الکریم عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
وهناك من النساين من يرفع هذا العمود إلى نبي الله إسماعيل، ولكن ورد فى الأثر الشريف : أن النبی عليه السلام، كان يعرض عنه لما فيه من التخليط وتغيير الأسماء .

وأياً ما كان فالثابت المحقق والأمر الذى لا يأتیه الشك من بين يديه ولا من خلفه، هو أن نسب النبی عليه السلام منته إلى إسماعيل بن إبراهيم خليل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول

كان عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما ذكره المؤرخون ، أجمل رجال قريش وأنبأ فتيانها ، وكان يعمل في التجارة شأن الغالبية من قريش ، وقد حدث بعد زواجه من السيدة آمنه أن بعثه أبوه إلى المدينة في ميرة يحمل لهم تمرًا فأدركه الأجل بها ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته بالنسبة لتاريخ مولد الرسول عليه السلام فذهب بعضهم إلى أنها كانت بعد ولادته وقال آخرون إنها كانت وأمه في شهرين من حملها ، وهو الأرجح .

وقد توفي عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول عليه السلام وهو دون العشرين من عمره .

آمنة بنت وهب والدة الرسول

أما والدة الرسول عليه السلام ، فهي السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مرة ، زهرية قرشية تلتقي بابنها السيد الرسول عليه السلام في جدتها كلاب بن مرة ، وهي من أوسط قريش نسبًا ، وأرفعهم بيتًا ، وقد سبقت مشيئة الله عز وجل باصطفاء آباء الرسول الكريم وأجداده ، وتسلسل العمود النبوي في أصلاب قوية شريفة وأرحام طاهرة كريمة ، وكان مما كرم الله به نبيه أن جنبه رجس الجاهلية وبهتان أهل الضلالة فليس من آباءه إلا من هو عظيم في قومه ، كريم على الله والناس ، وليس من أجداده إلا من استقل بما أثر تروى عنه ، ومكارم يعرف بها ، وأجداد خالدة وأعمال باقية ، ولا غرو فقد اختارهم المولى عز وجل أمناء على سره ، حفظة لعهد ووسائل سليمة مستقيمة لحمل النور الإلهي إلى مستقره ، ونقل الأمانة الكبرى إلى صاحبها .

عام الفيل

ويجمع المؤرخون على أن ولادة النبي عليه السلام كانت عام الفيل ، وقد جاء القرآن الكريم بذكر الفيل في مقام المنة على قريش أن وقاهم كيد أصحابه ، فقال الله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ،
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ^(٥) ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ^(٢) ، فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ ^(٣) مَأْكُولٍ » .

وحادثة هذا شأنها ، أُرِّخَ مولد النبي بها ، ونزل القرآن فيها ، تستأهل الوقوف
عندها للذكر والتسجيل .

لما غزت الحبشة اليمين بقيادة أبرهة وكانت الحبشة على المسيحية ، أراد أبرهة
أن يبشر بها في جزيرة العرب فبنى كنيسة فخمة ، وأرسل إلى النجاشي ملك
الحبشة يقول :

إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنِ مثلها ملك قبلك ، ولست بمنته
حتى أصرف إليها حج العرب .

وقد غضبت العرب للكعبة فجاء رجل منهم ودخل الكنيسة ثم خرج وقد
خلف فيها من الأثر ما لا يليق ببيوت العبادة ، فغضب أبرهة حين علم ذلك وقرر
هدم الكعبة انتقاماً لفعل العربي بكنيسته ، وكان أن جهز جيشاً جراراً يصحبه فيل
ضخم مدرب على القتال ، وقد اعترضته سرازم من قبائل مختلفة تريد صده عن
عزيمته ، ولكنها كانت من القلة والضالة بحيث لا تثبت أمام جيش منظم كامل
الأهبة كثير العدد ، وسار أبرهة حتى إذا كان على مقربة من مكة ، جرد من
جيشه حملة أرسلها إلى مكة ، فأغارت على أموال قريش فاستأقمتها ، وأصاب
فيما أصابت مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ،
فهتمت قريش وأحلافها بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فعدلوا
عن ذلك .

(٢) حجارة صلبة ذات تنوء حادة .

(١) أبابيل : جماعات .

(٣) كزرع أكل حبه وبق تبته .

وبعث أبرهة رائداً من قبله يسأل عن سيد قريش وشريفها يقول له : إن الملك لم يأت لحرب قريش وإنما جاء ليهدم هذا البيت ، فإن لم يعرضوا له دونه فإنه لا يجرهم فإذا كان سيد قريش لا ينوى حرب الملك فإنه يدعو لزيارته ، ولما بلغ الرسول رسالته قيل له : إن سيد قريش هو عبد المطلب بن هاشم ، فدعا به وسأله رأييه فيما يقول الملك ؟ فقال عبد المطلب :

ما نريد حربه وما لنا بذلك منه طاقة . هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال الرسول : فانطلق معي إليه فإنه أمرني أن آتيك به ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر وقابل أبرهة فقدمه إليه الرسول قائلاً : هذا عبد المطلب بن هاشم ؛ سيد قريش ، وصاحب عين مكة - أى زمزم - يطعم الناس بالسبل والوحوش فى رؤوس الجبال . وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم ؛ فعظم فى عين أبرهة فترل عن سريره وجلس على البساط وأجلس عبد المطلب إلى جانبه فسأله أن يرد إليه إبله التى أخذها .

فقال الملك لترجمانه : قل لعبد المطلب : قد كنت أعجبتنى حين رأيته . ثم قد زهدت فىك حين كلمنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك . وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . لا تكلمنى فيه ؟ .

قال عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

قال أبرهة : ما كان له ليمتنع منى .

قال عبد المطلب : أنت وذاك !

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابها ، وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة يدع الله ويستنصره على أبرهة وجنده ، ويقول .

لَا هُمْ إِلَّا الْعَبِيدُ نَعِ رَحْلَهُ فَاَمْنَعِ حَلَالِكَ
لَا يَغْلِبُنْ صُلَيْبُهُمْ وَمَحَا لَهُمْ أَبَدًا مَحَالِكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْ لَمَتْنَا ، فَأَمْرٌ مَا بِدَالِكَ

فلما أصبح أبرهة ، تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله وعبي جيشه فلما وجه الفيل وجهة مكة برك وأبى القيام ، فضر به ضرباً مبرحاً فلم يبق ، فوجهوه إلى اليمن فقام نشطاً ، فأعادوا توجيهه إلى مكة ، فبرك ، فسلطوا عليه السياط والحراب كي يقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه بعد إلى مكة فبرك .

ثم أرسل الله عليهم طيراً من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحص والعس ، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك وليس كلهم أصابت . وخرجوا هارين يتدرون الطريق الذي منه جاؤا .

وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، يسقط جسمه أئمة أئمة ، وأصابه القيح حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه .

وقال ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية : إنه حدث ، أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب هذا العام .

وفي تعليق ابن إسحاق هذا ، مجال واسع لتأويل هذا الحادث تأويلاً يتصل بالعلم والطب ، فعمل أهل العلم يحولون فيه جولات موفقة .

هذه هي خلاصة حادث الفيل ذكرناها نقلاً عن أهم المصادر التاريخية ، وقد كان هذا الحادث من أهم الأحداث في تاريخ العرب قبل ظهور الرسالة المحمدية ، وبلغ

من شأنه أن العرب أرّخوا به ولم يبطل هذا التاريخ إلا بعد أن ظهر الإسلام
وساد الجزيرة العربية ، وما يليها من الأقطار فكان أن أبطل المسلمون هذا التاريخ ،
وأحلوا محله الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة فكانت أصل التاريخ الإسلامي .
وقد امتن الله على العرب برّ كيد الأحباش في نحرهم ، ووقاية بيته الكريم من
عبث أيديهم وأنزل في ذلك سورة الفيل التي أسلفنا ذكرها ، فله الحمد والمنة .

ظواهر وخوارق صحبت المولد الشريف

ذكرت فاطمة بنت عبد الله التقيّة التي حضرت ولادة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، قالت : رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو
حتى ظننت أنها ستقع علىّ .

ومن خصائصه الشريفة ، أنه ولد معذوراً — أى مختوناً — مسروراً — أى
مقطوع السرة — ولما وضعت أمه وقع إلى الأرض مقبوضة أصابع يديه ، مشيراً
بالسبابة ، كالمسبح بها .

ووضعت عليه أمه بعد ولادته ، جفنة ثلثا يراه أحد قبل جده عبد المطلب ،
فجاء جده والجفنة قد انفلقت عنه ، ولما قيل له : ما سميت ابنك ؟ قال : محمداً ،
فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ ! فقال :
إني لأرجو أن يحمد أهل الأرض كلهم .

رؤيا صادقة

وإنما تنبأ عبد المطلب بهذه النبوة بسبب رؤيا صادقة رآها في المنام ؛
فقد رأى قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم : كأن سلسلة من فضة خرجت من
ظهوره ، لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، وطرف في الشرق وطرف في الغرب ،
ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم
يتعلقون بها ، فقص رؤياه على أهل الذكر ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه ،
يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فذلك سماه محمداً .

ورؤيا أصدق

وقد انضافت إلى هذه الرؤيا الصادقة ، رؤيا أصدق منها ، رأتها السيدة آمنة أم النبي عليه السلام ، وحدثت بها عبد المطالب ؛ فقد رأت حين حملت بالرسول عليه السلام من يقول لها :

إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض ، فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً .

ورأت حين حملت به ، أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصري من أرض الشام .

هذا وأكثر منه

وقد اعتمدت في نقل هذه الخوارق ، على كتب التاريخ الصحيحة كسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، وصحيح البخاري ، والروض الأنف للسبيلي . ولم أوردتها وأنا شاك فيها ، أو غير مؤمن بها ؛ بل فعلت وأنا أجدها دون ما يستأهله النبي الكريم ، وأقل مما ينبغي أن يكون إرهاباً بمولد خاتم الأنبياء الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وبعثه نوراً للبشر أجمعين ، وجعل رسالته الحد الفاصل بين الجهالة المطبقة التي خيمت على العالم قبل مبعثه ، وبين النور الذي عم الأرجاء وشمل جميع الأنحاء وشاع فيما بين الأرض والسماء .

ولست أقول : إنني قد أحصيت جميع الخوارق والظواهر ، وألممت بجميع الإرهاصات والتنبؤات التي تقدمت مولد النبي الكريم أو صحبت ولادته ونشأته حتى نزول الوحي ؛ فإنها كثيرة مستفيضة تستحق أن يفرد لها كتاب مستقل ، ولكني أقول : إنه مع كثرتها واستفاضتها وعمومها وشمولها ، وذهابها مذاهب مختلفة وتعلقها بأسباب متباينة ، لا تفي المقام حق ، ولا تؤدي ما ينبغي له كل الأداء ، ولا تقوم ببعض ما يدين به العالم أجمع والإنسانية كلها لصاحب الرسالة المحمدية من إعظام وإجلال وتقديس وإكبار .

رضاعة الرسول في بني سعد

كان من عادة قريش أن يرضعوا أطفالهم في البادية لينشأ الطفل في الأعراب ،
فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه ، وأصلح لتكوينه ، وأعون على تحمله مشاق الحياة
وتعوده الخشونة واحتمال شظف العيش ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبي بكر ، حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله :

« وما يمنعني من ذلك وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد » .

وحدث على أثر ولادة الرسول عليه السلام أن قدم إلى مكة نسوة من بني سعد
يلتمسن أطفالاً من قريش ليرضعنهم ، وكانت السيدة حليلة ، بينهن ومعها ابن لها
رضيع ، وكانت السنة سنة شهباء لم تبق لسكان البادية شيئاً . وقد أجذبت المراعى
وجفت الضروع ، وما في ثديها ما يقوم ببعض حاجة ولدها ، فلما عرض عليها
محمد بن عبد الله وعرفت أنه يتيم ، أعرضت عنه ، إذ كانت ترجو أن تحظى بطفل
في نعمة تفيد من أهله . وما بقيت امرأة قدمت معها إلا أخذت رضيعاً غيرها .

فلما أزمع الركب الرجوع ، قالت لزوجها : والله إنى لأكره أن أرجع من بين
صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهب إلى ذلك اليتيم فلاخذنه ؛ فقال لها : لا عليك
أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وكان زوجها كان ينظر بظهر الغيب ، فما هو أن أخذته حتى فاضت البركات
وعمت الخيرات ، وحفت بهذا البيت النعم من كل جانب ، وأصبح ما طراً عليها من
تغيير كامل حديث الركب وموضع عجب السفر .

كان ثديها جافاً لا يقوم ما فيهما من لبن ببعض حاجة طفلها فدرّ وأقبل
اللبن دسماً غزيراً حتى رضع الرسول ورضع ابنها وناما ، وقد كان ابنها لا ينام من
الجوع ولا ينمّ أبويه قبل ذلك .

وكانت أتانها محفّاء تحبس الركب من بطئها وتثاقلها ، فغدت فارهة تسبق الحمر
وتزعج الصحب لعجز مراكبهم عن ملاحقتها ، فيقولان : ويحك يا حليلة ! أربعى

علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ، فتقول : بلى ! والله إنها لهى !
ويقول زوجها وقد أدهشته هذه الظواهر :

تعلمى يا حليلة ، لقد أخذت نسمة مباركة ، فتقول : والله إنى لأرجو ذلك .

ونترك المجال لحليمة تروى قصتها بنفسها فتقول :

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها
فكانت غنمى تروح علينا حين قدمنا به معنا شباعا ، فنحلب ونشرب وما يحلب
إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون
لرعيانهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعى نبت أبى ذؤيبَ يعنون حليلة
فتروح أغنامهم جياعا ماتبِضُ بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا فلم نزل نتعرف من
الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان وفصلته .

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(١) . فقدمنا
به على أمه ونحن أحرص شئ على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلما
أمه وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ ، فأبى أخشى عليه وباء مكة .
قالت : فلم نزل بها حتى رده معنا :

تطهير الجسد بعد تطهير الروح

روى الطبرى فى سند مرفوع إلى شداد بن أوس . قال :

بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل شيخ من بنى عامر ،
وهو مدّره قومه وسيدهم وكان شيخاً كبيراً يتوكأ على عصا فثقل بين يدى النبی
صلى الله عليه وسلم قائماً ونسبه إلى جده فقال يا ابن عبد المطلب . إني أنبت أنك
ترغم أنك رسول الله إلى الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من
الأنبياء ألا وإنك فوّهت بعظيم ، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى إسرائيل

(١) جفراً : أى قوياً .

وَأَنْتَ مَنْ يَعْبُدُ هَذِهِ الْحَجَارَةَ وَالْأَوْثَانَ ، فَمَا لَكَ وَالنَّبُوءَةَ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةٌ
فَأَبْنَيْتُ بِحَقِيقَةِ قَوْلِكَ وَبَدَأَ شَأْنُكَ .

قال : فَأَعْجَبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَسْأَلَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَخَا بَنِي عَامِرَ ،
إِنَّ لِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي تَسْأَلُنِي عَنْهُ نَبَأً وَمَجْلَسًا ، فَاجْلِسْ ، فَخَبَّرْتَنِي رَجُلِيهِ ثُمَّ بَرَكَ كَمَا يَبْرُكُ
الْبَعِيرُ ، فَاسْتَقْبَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَدِيثِ ، فَقَالَ :

« يَا أَخَا بَنِي عَامِرَ ، إِنَّ حَقِيقَةَ أَمْرِي وَبَدَأَ شَأْنِي ، أُنِي دَعَوْتُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَرِي
أَخِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأُنِي كُنْتُ بَكْرَ أُمِّي ، وَأَنْهَا حَمَلَتْ بِي كَأَثْقَلٍ مَا تَحْمِلُ
وَجَعَلْتَ تَشْتَكِي إِلَيَّ صَوَاحِبَهَا ثَقُلَ مَا تَجِدُ ، ثُمَّ إِنَّ أُمِّي رَأَتْ فِي الْمَنَامِ أَنَّ الَّذِي
فِي بَطْنِهَا نُورٌ ، قَالَتْ : فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ بَصْرِي النُّورَ ، وَالنُّورُ يَسْبِقُ بَصْرِي حَتَّى أَضَاءَتْ
لِي مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا .

» ثُمَّ إِنَّهَا وَلَدَتْنِي فَنَشَأْتُ ، فَلَمَّا نَشَأْتُ ، بَغِضْتُ إِلَى أَوْثَانِ قَرِيشَ ، وَبَغِضَ
إِلَى الشَّعْرِ . وَكُنْتُ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي لَيْثِ بْنِ بَكْرَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُنْتَبِذٌ مِنْ أَهْلِي
فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابٍ لِي مِنَ الصَّبِيَّانِ ، تَتَقَاذَفُ بَيْنَنَا بِالْجَلَّةِ ، إِذْ أَتَانَا رَهْطٌ ثَلَاثَةٌ
مَعَهُمْ طُسْتُ مِنْ ذَهَبٍ مِلْءِ ثَلَجٍ فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي ، فَخَرَجَ أَصْحَابِي هَرَابًا ،
حَتَّى اتَّهَوْا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي ، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّهْطِ ، فَقَالُوا : مَا أَرَبُكُمْ إِلَى هَذَا
الْغُلَامِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا ، هَذَا ابْنُ سَيِّدِ قَرِيشَ ، وَهُوَ مُسْتَرْضِعٌ فِينَا ، مِنْ غُلَامٍ يَتِيمٍ
لَيْسَ لَهُ أَبٌ فَمَاذَا يَرِدُ عَلَيْكُمْ قَتْلُهُ ، وَمَاذَا تَصِيبُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُمْ لَا بَدَ
قَاتِلِينَ فَاخْتَارُوا مِنَّا أَيُّنَا شِئْتُمْ فَلْيَأْتِكُمْ مَكَانَهُ فَاقْتُلُوهُ ، وَدَعُوا هَذَا الْغُلَامَ فَإِنَّهُ يَتِيمٌ .

» فَلَمَّا رَأَى الصَّبِيَّانِ الْقَوْمَ لَا يَخِيرُونَ إِلَيْهِمْ جَوَابًا ، انْطَلَقُوا هَرَابًا مُسْرِعِينَ
إِلَى الْحَيِّ يُؤَذِّنُونَهُمْ وَيَسْتَصْرِخُونَهُمْ عَلَى الْقَوْمِ ، فَعَمِدَ أَحَدُهُم — الضَّمِيرُ رَاجِعٌ
لِلرَّهْطِ — فَأَضْجَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ إِضْجَاعًا لَطِيفًا ، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي
إِلَى مَنْتَهَى عَانَتِي ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَمْ أَجِدْ لَذَلِكَ مَسًّا ، ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي ثُمَّ غَسَلَهَا
بِذَلِكَ الثَّلَجِ فَأَنْعَمَ غَسْلَهَا ، ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا . ثُمَّ قَامَ الثَّانِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ :

تنح ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم قال بيده يمتة منه كأنه يتناول شيئاً ، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه ، فحتم به فامتلاً نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه ، فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهنراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنح عنى فأمر يده ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عاتقى فالتأم ذلك الشق بإذن الله ، ثم أخذ بيدي فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شق بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم .

« قال : ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عيني ، ثم قالوا : يا حبيب لم ترع ، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عينك .

« قال : فبينما نحن كذلك ، إذ أنا بالحنى قد جاءوا بخذا فيهم ، وإذا أمى وهى ظئرى أمام الحى ، تهتف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ؟ قال : فأنكبوا — الضمير راجع إلى الرهط — على ققبلوا رأسى وما بين عيني ، فقالوا : حبذا أنت من ضعيف .

« ثم قالت ظئرى : يا وحيداه ، فأنكبوا على فضموني إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا أنت من وحيد ، وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ؟

« ثم قالت ظئرى : يا يتيماه ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ، فأنكبوا على فضموني إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من يتييم ، ما أكرمك على الله ، لو تعلم ماذا يراد بك من الخير !

« قال : فوصلوا بى إلى شفير الوادى ، فلما بصرت بى أمى وهى ظئرى ، قالت :

يا بني ، ألا أراك حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت على ، وضمتني إلى صدرها ، فوالذي نفسي بيده ، إني لفي حجرها وقد ضمتني إليها ، وإن يدي في يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم ، يقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : يا هذا ما بي شيء مما تذكر ، إن آرائي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي ^(١) قَلْبَةٌ .

« فقال أبي ، وهو زوج ظئري : ألا ترون ؟ كلامه كلامٌ صحيح ؟ ! إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس ، فانفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن ، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه ، فلما قصوا عليه قصتي ، قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فإنه أعلم بأمره منكم ، فسألني فاقترصت عليه أمرى ما بين أوله وآخره ، فلما سمع قولي وثب إلى فضمني إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته :

يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ، فواللات والعزى ، لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط !

« فعمدت ظئري ، فانترعتني من حجره ، وقالت : لأنت أعتة وأجن من ابني هذا ، فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فإننا غير قاتلي هذا الغلام .

« ثم احتملوني فأدوني إلى أهلي فأصبحت مُفَرَّغاً مما فعل بي وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشراك ، فهذا حقيقة قولي وبدء شأني يا أخا بني عامر ، فقال العامري : أشهد بالله الذي لا إله غيره ، إن أمرك حق » .

المرضة تعيد الرسول إلى أمه خوفاً عليه

وعلى أثر هذا الحادث قدمت حليلة بالنبي عليه السلام إلى مكة وأعادته إلى أمه فعجبت من حالها ، إذ كانت تلح عليها في استبقائه عندها أطول زمن ممكن ، فذكرت حليلة عذراً لم يقنع أم الرسول عليه السلام ، وما زالت بها حتى أخبرتها الحقيقة ، فقالت لها : لا تراعى فإن ابني في حفظ الله ورعايته .

وفاة والدته

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ست سنين ذهبت به أمه إلى المدينة لتزيده أحوال جده عبد المطلب بن هاشم وهم بنو التجار ولما كرت راجعة به إلى مكة أدركتها المنية في الطريق بين المدينتين بمكان يسمى الأبواء . وكانت أم أيمن الحبشية معهما في هذه الرحلة فحضنت الرسول وجاءت به إلى جده عبد المطلب بعد أيام .

كفالة عبد المطلب للرسول

ولما ماتت والدته الرسول عليه السلام ، كفله جده عبد المطلب بن هاشم وكان به حفيفاً وعليه حانياً ، لما تجرى به الطبيعة البشرية من شغف الأجداد بأحفادهم ولا سيما إذا تيم الخفيد في حياة الجد وللإرهاصات والبشائر الكثيرة التي أظهر عليها عبد المطلب بخصوص ما يتوقع لخفيده العظيم من ذكر يملأ ما بين الأرض والسماء ، ومجد يبقى دهر الدهار ير وأبد الأبدان .

وفاة عبد المطلب

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين توفي جده عبد المطلب بن هاشم سيد قريش وزعيمها ، وصاحب الأيادي الماثورة والمآثر المشكورة على قريش خاصة وعلى العرب أجمعين .

وبعد وفاة عبد المطلب كفل ابنه أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أُوثر بهذه الخصوصية لأنه كان شقيق أخيه عبد الله والد الرسول : أمهما فاطمة بنت عمرو من بني مخزوم .

طفولة مباركة وشباب صالح

أسلفنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان في الثامنة من عمره الشريف حين توفي جده عبد المطلب بن هاشم ، وأن عمه أبا طالب كفله بعد وفاة جده إذ كان يوصيه به ويحثه على رعايته ، وقد مضت السنون التالية لهذا الحادث من حياة الرسول عليه السلام كأحسن ما تمضي الحياة على طفل مرموق محبوب تحيط به العناية من كل جانب ، وتحفه الإرهاصات والبشريات من كل مكان ، وقد تميزت هذه الفترة من حياته المباركة أى منذ وفاة جده حتى مبعثه بجملة حوادث نذكرها بحسب الترتيب الزمني :

رعاة الغنم

لما بلغ الرسول مبلغ القوة والجلد ، كان أول عمل مارسه في سبيل كسب عيشه ، رعى الغنم لأصحابها لقاء أجر يفيده من هذا العمل ، ولم تكن في ذلك غضاضة بل كان أمراً سائعاً يزاوله كل من كان فقير الحال ، وكان صلوات الله وسلامه عليه فقيراً لم يرث شيئاً عن أبيه ، وكان عمه أبو طالب فقيراً معيلاً فكان لابد له وقد بلغ أشده أن يعفى عنه من إعالته ، وأن يسعى في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله .

وقد ورد في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد رعى الغنم ، قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا » .

وجاء في البخاري أنه صلى الله عليه وسلم رعى الغنم بمكة على قراريط . وفي ممارسة الرسول عليه السلام رعاة الغنم في حديثه ، إلى جانب أنها سبب

كريم من أسباب الارتزاق ، ترويض شديد للنفس وتدريب على الصبر والرفق ، فإن هذا العمل يتطلب ذلك ، ويقتضى صاحبه التزود بكثير من الأناة والرحمة . لما فى طبائع الغنم من الشرود وعدم التزام خطة معينة بل تفرق ميمناً ثم تعرج شمالاً . وتشرق حيناً ، وتغرب حيناً آخر ، ارتجالاً وانصياعاً لنوازع ركبت فى طبيعتها ، وذلك مما يقتضى راعيها تعود الصبر عليها والرفق بها حتى يصبح ذلك منه عادة ، ويصير له طبعاً مكتسباً يغلب عليه فى أعماله العامة ، ويعده للسياسة الرشيدة عند ما تنهيا له فرصتها .

رحلة الشام الأولى وقصة الراهب بحيرا

كان أبو طالب يعمل فى التجارة كشأن معظم رجالات قريش ، فحدث أن تهباً للخروج فى ركب إلى الشام فتعلق به النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فى التاسعة من عمره ، فرق له وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً .

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرا ، عُرِفَ أنه ثانى اثنين من مؤمنى زمانه صلاحاً وتقوى وسعة علم وبعد نظر ، وكانت قريش تمر بصومعته كل عام فى رحلتها التجارية إلى الشام ، فلا يكون لذلك شأن ، ولكن حدث فى الرحلة التى تتحدث عنها أن أطل الراهب على ركب قريش فأبصر أمراً عجبا : ذلك أنه رأى غمامة تظلل طفلاً من وهج المهجيرة ، وتتحرك فوق رأسه كلما مشى ، وتقف إذ يقف ، فأراد أن يستوثق من الأمر فصنع طعاماً دعا له الركب كله ، فعجبوا من هذا الصنيع ، وقالوا : ما كان العهد بك أن تستضيفنا ، فماذا شأنك اليوم ؟

قال بحيرا يحيب المتعجب من فعله : صدقت ! ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم ، فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينهم لحداثة سنه ، وظل فى الرحال تحت الشجرة . فلما أشرف عليهم بحيرا ولم يجد بغيته بينهم ، قال : يا معشر قريش ، لا يتخلف

منكم أحد عن طعامي ، فقالوا : ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنًا !

فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ، فقال رجل من القوم : « واللات والعزى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا !

ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرا ، جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا ، فقال له : يا غلام ، وحق اللات والعزى ألا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يتحدثون بها ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما !

فقال له بحيرا ، فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سئلي عما بدالك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة^(١) بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده . فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟ قال ابني . قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا ، قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حامل به ، قال : صدقت ، فارجع بإني أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرًا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سريعًا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

(١) وردت في وصف خاتم النبوة أوصاف كثيرة تتلاقى في أنه كان بضعة ناشرة كبيضة الحمامة بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم يتخللها شعر .

حرب الفجار

سميت حروب الفجار بهذا الاسم لفجر المتحاربين فيها بإنشائهم القتال في الأشهر الحرم ، وكان الفجار الرابع وهو آخرها هو الذي شهده الرسول عليه السلام وكانت سنة خمس عشرة سنة ، أخرجه معه عمه أبو طالب وقال الرسول عليه السلام في معرض الكلام عن هذه الحرب :

« كنت أنبئُ على أعمامى. » وفسر ابن إسحاق هذا التعبير بأنه كان صلى الله عليه وسلم يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

ولم يحارب الرسول فيها ، لأنها كانت حرباً فاجرة ، فوفاه الله المشاركة فيها . وتتلخص أسباب هذه الحرب في أن رجلاً من كنانة حليفة قريش ، قتل رجلاً من هوازن في الشهر الحرام غيلة فهاجت الحرب بين قبيلته وقريش وأحلافها ، وقد اتهمت بتحمل رئيس قريش ديات من قتلوا من هوازن والنزول عن دماء من قتلوا من قريش .

حلف الفضول

وحدث بعد حرب الفجار أن جاء مكة تاجر من العرب ببضاعة له ، فاغتال ثمنها من ابتاعها منه ، فوقف بأعلى مكة يستصرخ أشرافها على رد حقه وإنصافه ممن ظلمه بشعر قاله .

فكان أن حجي لذلك جماعة من قريش واستخلصوا له حقه ممن ظلمه ثم بدا لهم أن يعقدوا حلفاً بينهم لدفع المظالم التي تحدث بمكة وقد دخل فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة . وكان الحلف بدار عبد الله بن جدعان التيمي ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه ، وتحدث عنه بعد الرسالة ، فقال :

« لقد شهدت مع عمومى حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب لى به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » .

بدء الاتصال بالسيدة خديجة ، رحلة تجارية

كانت قريش تعيش على التجارة ، يستوى في ذلك رجالها ونساؤها ، وكانت السيدة خديجة بنت خويلد ذات مال كثير وشرف ممتاز وشخصية فذة تفردت بها بين نساء قريش ، وكانت تستأجر الرجال ليخرجوا بتجارتها إلى الشام لقاء أجر معلوم ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ؛ فقبل الرسول ذلك وخرج بمالها ومعه غلام لها يقال له ميسرة .

وقد شاهد ميسرة معجباً من الرسول عليه السلام ؛ فقد كان يرى ظلالاً تقي الرسول من حر الشمس ، وتحدث إليه راهب عن نبوة النبي المنتظرة ، فلما عاد إلى مكة مع الرسول ، وقد ربحت التجارة في هذا العام ضعف ما كانت تربح في العادة أخبر السيدة خديجة بما رأى وسمع ، فلأها ذلك إعجاباً بالرسول ، وأكد لها ما كانت تسمع عن أمانته وصدقه واستقامته .

الزواج من خديجة

أفضى الاتصال التجارى الذى تم بين النبي عليه السلام وبين السيدة خديجة إلى نهاية سعيدة ؛ فقد رغبت فيه زوجاً وكانت قد تأملت بعد وفاة زوجها : أبى هالة ابن زرارة وقد بلغت الأربعين من عمرها في هذا الوقت ، وقد كانت يومئذ أواسط قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا وكانت تدعى في الجاهلية : الطاهرة والعفيفة ، وكان كل واحد من قومها حريصاً على زواجها لو استطاع ذلك ، ولكنها رغبت في النبي عليه السلام ، وكان هو يرغب فيها كذلك ، ولكن تفاوت ما بينهما فيما يتصل بالمال جعله يحجم عن طلب يدها ، إذ كانت غنية جداً وكان فقيراً جداً .

وأرسلت خديجة إلى النبي عليه السلام من يبلغه قبولها الزواج منه إذا عرضه عليها لما تعلمه عنه من شرفه وسمو أخلاقه وطيب عنصره ، واستكمال جميع أسباب الكرامة والرجولة ، فذكر النبي عليه السلام لأعمامه ذلك ، فمضى معه عمه أبو طالب إلى دار خديجة وخطبها إلى ابن أخيه من عمها عمرو بن أسد ، وقد جاء في خطبة الزواج التي ألقاها أبو طالب قوله :

أما بعد : فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قریش إلا رجح به : شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلّ ، فإن المال ظل زائل وغارية مستردة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك .

فقال له عمها عمرو بن أسد :

هو الفحل الذي لا يقدر أنفه . وأقر الزواج . وقد أصدق النبي عليه السلام السيدة خديجة ، عشرين بكرة ، ولم يتزوج قبلها ولا تزوج عليها غيرها في حياتها . وكانت سن الرسول عليه السلام عند زواجه خمساً وعشرين سنة .

الأمين الكريم والمدبر الحكيم وبناء الكعبة

حين بلغت سن الرسول عليه السلام الخامسة والثلاثين ، وحين كان من تكليفه الرسالة قاب قوسين أو أدنى ، ومن حمله الأمانة بمقدار المرحلة الأخيرة إلى الغاية أو أقرب ، هياً له الله الذي كلاًه ورعاه ووقفه وهداه ، مقاماً جليلاً تتجلى فيه روحانية النفس ولا يغنى فيه إلا نور البصيرة وصفاء السريرة ، وقد أكرمه الله جل ذكره وتعالى اسمه فأفاض عليه من النور ما أضاء له عالم الروح ، وبصره بموطن الحكمة ، فمضى في الأمر الذي حفز قریشاً كلها إلى حمل السلاح وجعل منها ، وهي ذات الرحم المتشابه والنسب المتقارب ، أعداء ألداء يوشك أن تسيل بينها الدماء وتزهق الأرواح — قضاء شفي النفوس واستل الأحقاد وأرضى الكرامات .

وقد عينا بهذا الأمر خلاف قبائل قريش على من يكون له الشرف برفع الحجر الأسود إلى مكانه حين جدوا بناء الكعبة إثر سيل جارف صدع جدرانها ، وبلغ البنيان المستوى الذى يأخذ فيه هذا الحجر المقدس مكانه من البناء ، ونحن نتخلى الآن عن الوصف لإمام أهل السيرة النبوية محمد بن اسحاق ، قال :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن — أى الحجر الأسود — فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا^(١) وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعافدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا .

فرغم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : وكان عامئذ أسنّ قريش كلها ، قال :

يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه . قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ! فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل عليه الوحي . الأمين .

هذا ما قضى به أبو القاسم الأمين محمد بن عبد الله فعديل ، وحكم به فأناصف

(١) تجاوزوا : أى انحاز فريق لفريق .

وفصل ، وأرضى وأقنع وأشفي وأمتع ، وأنهى خصاماً كان يوشك أن يكون حرباً ومنع خلافاً كاد يكون بلاء وكرهاً .

وهذا هو نور النبوة يتجلى في رأى صائب وقضاء محكم ، لا يرتفع لمستواه إلا من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولقن هدى أم الكتاب .

نظرة شاملة إلى الماضي

الآن وقد بلغ التدرج في ذكر السيرة النبوية ما شارف الرسالة ، فقد قاربت سن الرسول عليه السلام الأربعين : وأصبح له من شرف المكانة بين قومه ونبل الأحداث في ناديه ما ملأ قلوب العشيرة ذكراً وحرّاً ألسنتها ثناء . يحق لنا أن نلقى نظرة شاملة على ما مضى من تاريخ المصطفى من خلق الله لأداء الرسالة العالمية التي أشرق بها الكون ، وعم بها الهدى ، وانتصر الحق وأزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

وأول ما يؤديه البصر إلى البصيرة لمجرد إرسال الطرف مرتداً هذه الفترة من تاريخ الرسول ، هو مبلغ كلاءة الله جلّت قدرته لنبيه ممثلة في اصطفاء الجوهر الذي تسلسل منه والأصلاب الكريمة والبطون الطاهرة التي تآدّت به إلى الحياة ، فقد كان آباؤه وأجداده سادة في قومهم ، كرماء على عشيرتهم ، ما منهم إلا من انفرد بمكارم كانت حديث عصره ومفخرة زمانه ، وكلهم كان الصفوة المختارة والنخبة الممتازة ، ولا غرو — والشأن هكذا — إذا قال قائل : بأنه عليه الصلاة والسلام : ابن الأكرمين ، وسلالة المفضلين ، أن يكون جوابه : صدقت وبررت ، وقلت فأصبت .

وإذا أرسل البصر كرة أخرى إلى نشأة النبي صلى الله عليه وسلم ، ألفاها نشأة كريمة ، مدّها عليها الفضل رواقه ، وحفت بها الكرامات من كل جانب ، صحيح

أنها لم تكن موسومة بالثراء أو متميزة بالغنى ، ولكنها لم تمتحن بسوءات الفقر ولا زادها شظف الحياة إلا قوة وتماسكا ، لقد نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيراً ، لم يرث من أبيه مالا ، وإنما ورث مجداً لا يسامى وعزاً لا يدانى ، ولأمر ما اختار الله له هذه الصفة : صفة الفقر والخصاصة وألزمه إياها حتى بعد أن فتح له معظم أنحاء الجزيرة ، وأصاب من المغام ملء اليدين واختاره إلى الرفيق الأعلى وهو الفقير إليه حقاً ، ويقول البخارى فى هذا المقام :

« ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بعلته البيضاء وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة » .

وحكمة المولى عز وجل فى اختيار الفقر صاحباً ملازماً لنبية الكريم أوضح من أن تعرف ، وأظهر من أن تحتاج لتعليل ، إذ كان الفقر فى النشأة ، كفيلاً بصحة التكوين وتجنب النفس ما قد تلتاث به من بطر الغنى وميوعة الرخاء ، أما بعد الرسالة والفتح ، فقد صار الفقر دليل التعفف والترفع ، وموضع التأسى والقدوة ، وعدو الفتنة والغرور ، وقد كان مما أدب الله به نبيه الكريم قوله : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » .

وقد استجاب الرسول لهذا الأدب الربانى وبلغ به الشأن أنه رهن درعه عند يهودى بالمدينة ليشتري لأهله شعيراً يقتاتون به ولا أدام يصحبه غير الملح إذا وجد !

شباب صالح

ونظرة أخرى إلى يفاعاة المصطفى وما تلاها من سن الشباب والفتوة ، تملأ الخاطر إعجاباً وإكباراً بهذا الشباب الصالح الذى لم تشبه من الهفوات شائبة ، ولا زناً بعائبة ، بل مضى على خير ما يمضى شباب فتى قد هيء لأمر خطير ، وأعد لشأن جليل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته ، فيقول :

« لقد رأيته في غلمان قريش ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكني لا كم ما أراه ، لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذه وشدته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى » .

وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحال بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته ، فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا فلان بن فلان ، تزوج بفلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذنى فممت فما أيقظنى إلا مس الشمس ! قال : فخبئت صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر » .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته » .

الحاضر المبشر

في بضع السنين التي تقدمت سن الأربعين من حياة النبي الكريم ، كان كل شيء قد تهيأ لحمل الأمانة ، وأصبحت الشرائط التي تقتضيها الرسالة موفورة ، وبدأت الظواهر المختلفة وكثرت الإرهاصات المنبئة بظهور النبي العربي ، فتحدث بذلك

الكهان وأجمع عليه ذلك نفر من العرب ممن كان يؤمن إيماناً جازماً أن نبي العرب على وشك الظهور ، وهذا نفر مؤلف من ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان ابن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل ، فهو لاء نفر من العرب أفضى بهم علمهم بالكتب السماوية ولقاؤهم الرهبان والأخبار واستقراؤهم الظواهر الكونية — إلى الجزم بأنه قد أظلمهم أوان النبي العربي الكريم .

وكان صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة من حياته يمضى قدماً في سبيل التهيؤ لما أعد له من أمر جليل ، فكان يتخلى شيئاً فشيئاً عن أمور الدنيا وأعراض الحياة الزائلة ، وحببت إليه الخلوة ليزداد من التجرد ويكثر من التأمل ويقرب رويداً ، رويداً من الساعة التي يعهد إليه فيها الخالق بمهمة الرسالة والهداية ، فكان يجاور شهراً من كل عام في غار حراء^(١) ، يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من الظواهر ويسمع من الهتافات التي تلقى في سمعه ما يبشر بما هو مرشح له من مهم عظيم ، فما كان يمر بشجر أو حجر حتى يسمعه يقول : السلام عليك يا رسول الله .

وهكذا اكتمل الأمر وتم الإعداد وتهيأت الأسباب ، وتأذنت الكائنات كلها ، بقرب محيى النعمة الكبرى وحلول الهداية العظمى .

نزول الوحي بالرسالة والقرآن

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الأربعين من عمره ، وصار في الذروة العليا من كمال الخلق وتمام الرجولة ونضج العقل وصفاء النفس ، أرسله الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين ، وكان أول ما أثر به من الخصائص الرؤيا الصادقة فكان لا يرى

(١) جبل بأعلى مكة .

رؤيا إلا جاءت مصداق ما رأى كفلق الصبح ، ثم حبت إليه الخلوة بغار حراء فكان يتحنث فيه حتى فجأه الحق فأتاه ، فقال : يا محمد ، أنت رسول الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فحشوت لركبتي ، وأنا قائم ، ثم زحفت ترجف بوادري ، ثم دخلت على خديجة ، فقلت : زملوني زملوني ، حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني ، فقال : يا محمد ، أنت رسول الله ، قال : فلقد هممت أن أطرح نفسي من حلق من جبل ، فتبدي لي حين هممت بذلك ، فقال : يا محمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله ، ثم قال : اقرأ ، قلت ما أقرأ^(١) قال فغتنى^(٢) به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قال قلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال :

« اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

قال صلى الله عليه وسلم : فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني ، فأتيت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسي فأخبرتني بخبري ، فقالت : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق في الحديث وتؤدي الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم قالت :

أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع .

(١) أي ليست ممن يعرف القراءة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً .

(٢) الغت : الخنق وحبس النفس وفي رواية فطنى وانطى هو الغت .

فقال ورقة : قدوس ، قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ، يعنى بالناموس جبريل عليه السلام ، الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .
فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة ، فسَّهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره بغار حراء ، صنع كما كان يصنع : بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت ، فقال يا بن أخى : أخبرنى بما رأيت أو سمعت فأخبره ، فقال له ورقة : والذي نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر ، الذى جاء إلى موسى ، ولتُكذِّبَنَّه ، ولتُؤذِنَنَّه ، ولتُخْرِجَنَّه ولتقاتلَنَّه ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصرأ يعلمه ، ثم أدنى رأس النبي فقبل يافوخه ، فسأله النبي عليه السلام أو مخرجى هم ؟ فقال ورقة : نعم ! لم يأت رجل بما جئت به إلا عودى ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم .

فترة الوحي

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، فحزن حزناً شديداً ، جعل يغدو إلى رؤوس شواهد الجبال ليتردى منها ، فكما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فيقول : إنك نبي الله ، فيسكن لذلك جأشه ، وترجع إليه نفسه ، فكان النبي صلوات الله عليه يحدث عن ذلك ، قال : فبينما أنا أمشى يوماً إذ رأيت الملك الذى كان يأتيني بجراء على كرسى بين السماء والأرض ، فجئنت^(١) منه رعباً فرجعت إلى خديجة ، فقلت زملونى ، فرملناه أى دثرناه فأُنزل الله عز وجل :

(١) جئنت . أى ملئت .

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » .

وحدث ابن إسحاق قال : إنه لما شق على النبي صلى الله عليه وسلم فتور الوحي وأحزنه جاءه جبريل بسورة الضحى ، يقسم له ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ما ودعه وما قلاه ، فقال تعالى :

« وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَآ خِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

فجعل رسول الله ، يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله .

وكانت فترة الوحي — فيما حققه أهل السنة — سنتين ونصف سنة .

إسلام خديجة

وكانت خديجة رضى الله عنها فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ النبوة أعظم معين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخير مؤازر له على أمره ، لقد آمنت برسالته أول من آمن ، وصدقت به أعظم تصديق وأخلصه ، فحفف الله بذلك عن نبيه ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبتته وتخفف عليه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس .

وروى ابن هشام فى هذا المقام : أن جبريل عليه السلام ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال الرسول : يا خديجة : هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة :

الله السلام ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

فرض الصلاة

وفرض الله على نبيه الصلاة فجاءه جبريل وعلمه الوضوء وصلى به وحدد له مواقيت الصلاة فصلت بصلاته خديجة وعلى بن أبي طالب وهو أول من آمن به من الصبيان .

روى الطبري ، في سند مرفوع إلى غفيف الكندي قال :

كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً فينا أنا عنده بمنى فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قام يصلي ، فخرجت امرأة فتوضأت وقامت تصلي ، ثم خرج غلام قد راهق ، فتوضأ ثم قام إلى جانبه يصلي . فقلت : ويحك يا عباس ! ما هذا ؟ قال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه وهذه امرأته خديجة بنت خويلد قد تابعته على دينه قال غفيف بعد ما أسلم : ليتني كنت رابعاً .

والقول المرجح في كتب السيرة أن الصلاة أول ما فرضت — أي قبل الإسراء — كانت ركعتين ركعتين وكانت مرتين ، إحداهما قبل طلوع الشمس وثانيتها قبل غروبها ، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْأَبْكَارِ » ولما أكملت الصلوات خمسا عند الإسراء زيدت إلى حدها القائم إلى يوم الدين .

المسلمون الأولون

أول من أسلم من الرجال ، أبو بكر الصديق ومن الصبيان علي بن أبي طالب وكانت سنه بين التاسعة والعاشر وزيد بن حارثة بن شراحيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن اسحاق : فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه ، أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان أبو بكر رجلاً مألفاً — أي يألوه الناس — لقومه ، محبباً سهلاً ،

وكان أنسب قریش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن أبي عبد الله . فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا .

الفوج الثاني من المسلمين السابقين

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخوه : قدامة وعبد الله ابنا مظعون بن حبيب ، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وامراته فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبي بكر وعائشة أختها وهى يومئذ طفلة صغيرة ، وخباب بن الأرت ، وعمر بن أبي وقاص ، أخو سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارى ، وسليط بن عمرو بن عبد شمس وأخوه حاطب بن عمرو وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة وامراته أسماء بنت سلامة ، وخنيس بن حذافة ، وعامر بن ربيعة ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وجعفر بن أبي طالب وامراته أسماء بنت عميس . وحاطب بن الحارث بن معمر وامراته فاطمة بنت المجلل وأخوه حطاب بن الحارث وامراته فكيهة بنت يسار ومعمر بن الحارث بن معمر ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف وامراته رمة بنت أبي عوف ، والنحام واسمه نعيم بن عبد الله بن أسيد ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامراته أُمَيَّة بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة واسمه مَهْشَم ، وواقد بن عبد الله ، وخالد وعامر وعافل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان .

هؤلاء هم الأولون السابقون إلى الإسلام أصابتهم بركته ، وجمعتهم دعوته ، دعوا فأجابوا ، وسمعوا فاهتدوا ، وكانوا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولين ودعاة الإسلام المجاهدين وأعظم المسلمين بلاء وأشدهم امتحاناً بما لقوا في سبيل خروجهم على معتقدات قومهم السخيفة من محنة وعذاب وابتلاء واغتراب ، ولقد ربط الله على قلوبهم وثبت نفوسهم فصمدوا لكل ما لاقوه وصبروا على جميع ما عانوه ومضوا مثلاً علياً في الإيمان والشجاعة والصدق والإخلاص .

وإنما ذكرنا أسماء هذين الفوجين الأولين من المسلمين السابقين تسجيلاً لما أنعم الله عليهم من نعمة عظيمة ومنة كبرى واستجلاباً للبركة بتضمين هذا الكتاب أسماءهم ليكون مباركا على من قرأه أو اقتناه .

رضى الله عنهم أجمعين ونفع ببركتهم جميع المسلمين إن شاء الله .

دار الأرقم

وكان المسلمون يخفون إسلامهم عن قومهم فإذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب والأماكن البعيدة فصلوا فيها . ثم اقتضت الدعوة أن يكون لهم مجلس يجمعهم فاختر النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً لاجتماع المسلمين .

الجهر بالدعوة الإسلامية

« فاصدع بما تؤمر »

مكث النبي عليه السلام ثلاث سنين بعد نزول الوحي يدعو إلى الإسلام سراً كل من أنس منه حسن الاستعداد لقبول دعوته ، ووثق من صفاء نفسه ونقاء جوهره ، فدخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به الناس . ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجهر بما جاء منه وأن يبادى الناس بأمره فأُنزل عليه قوله تعالى :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » . وقوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

فامتثل الرسول لأمر ربه . وكان أول ما ظهر من ذلك أنه صعد الصفا فهتف : يا صباحاه^(١) ، فقالوا : من هذا الذى يهتف : ؟ قالوا محمد . فاجتمعت إليه قريش ، فقال :

« أرايتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ »
قالوا : ما جر بنا عليك كذبا .

قال صلى الله عليه وسلم :

« فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

فقال أبو لهب بن عبد المطلب عم الرسول :

تباً لك ! ألهذا جمعتنا !

(١) نداء يهتف به عند خطر الحرب وإغارة العدو .

فأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » .

إنذار العشيرة

أما فيما يتصل بإنذار العشيرة ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام دعا آلہ الأقربين
بنی عبد المطلب إلى وليمة فلما طعموا قال :

« يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل
منما قد جئتمكم به ، إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى
أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى
وخليفتى فيكم ؟ » .

قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، ولكنهم ردوا رداً ليناً .

وبدر من بين القوم على بن أبى طالب كرم الله وجهه فندب نفسه لهذه المهمة
وهو أصغر القوم سنّاً ؛ وقال أبو لهب :

خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن سلمتموه إذن ذلتم ،
وإن منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

إنذار قريش أبا طالب

وراح الرسول عليه السلام ينشر دعوته ، وينهض يرسلته ، وكان أول أمره
يذكر الله ويتلو القرآن ويدعو إلى مكارم الأخلاق فلم تكن قريش تأبه له
كثيراً وإنما كانت تكفى بنبذه ببذى القول إذا مر بمجالسها ، فتقول هذا
ابن أبى كبشة^(١) يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يزعم نزول الوحي

(١) أبو كبشة هو لقب زوج حليلة السعدية مرضعة الرسول .

عليه ، حتى إذا تعرض لآلهم فأنكرها ولعقائدهم فسفها وعاب عليهم جميعاً عبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأحجار والأزلام . أنكروا ذلك عليه وغضبوا لأنفسهم ولآلهم ولآبائهم ، وشرعوا في حربه ولكنهم لجأوا أول الأمر إلى طرق المسألة ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب وشكوا إليه ما يلقونه من محمد ابن أخيه ، قالوا :

يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهم ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آبائنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تحل بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه إلى حين . ومضى رسول الله عليه السلام على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ، حتى استشرى الأمر بينه وبين قريش ، وساءت الحال وأخذوا يضطغنون عليه ويبيتون له الشر ، ولكنهم رأوا قبل ذلك أن يُعذروا إلى أبي طالب فذهبوا إليه مرة أخرى ، وقالوا له :

يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهم حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

تعصب أبي طالب لرسول الله

ولما انصرف وفد قريش من عند أبي طالب ، وكان قد أهّمه ما في كلامهم من إنذار ووعيد ، أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له :

يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن الرسول عليه السلام أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ،
وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال :

يا عماء ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ، فلما ولّى ، ناداه أبو طالب ،
فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه الرسول ، فقال :

اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

عرض عجيب

ولما علمت قريش بنصرة أبي طالب للنبي عليه السلام ، أرسلوا يعرضون عليه
أن يأخذ عمارة بن الوليد : فتى قريش جمالا وحسبا ، فيتبنّاه ، ويسلم إليهم
محمدًا ليقتلوه ، فقال :

بئس والله ما تسومني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيتكم ابني
تقتلونه ! .. هذا والله ما لا يكون أبدا .

ولما رأى أبو طالب تكالب قريش على عداوة الرسول ، جمع بني هاشم
وبني المطلب وهم قرابته الأذنون ، ودعاهم إلى ما استقر عليه عزمه من منعة
رسول الله والقيام دونه : فأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا أبا لهب فإنه شذ عنهم
وانحاز إلى قريش في عداوة الرسول .

وعرض أعجب !

ولما أعييت قريشًا الحيل في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . اعترضه أثناء
طوافه بالكعبة ، الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف والعاص بن
وائل ، وهم زعماء قريش وذوو الأسنان فيهم ، وقالوا له :

يا محمد . هلم فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ وَتَعْبُدُ مَا نَعْبُدُ ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بِحُطْئنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما نعبد ، كنت قد أخذت بِحُطْئِكَ منه .

فأنزل الله تعالى فيهم سورة : «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» السورة

خطة شنعاء

ثم اجتمعت قريش وتشاورت فيما تستطيع فعله لكيد محمد ودعوته ، فلم تر أنجح من أن تتحرى كل قبيلة من بايع محمداً منها فتكفه عنه إما طوعاً وإما كرهاً ، وكان أن مضوا في تنفيذ هذه الخطة الشنعاء ، وكان أن تعرض المسلمون لأفطع ألوان العذاب وأشنع وسائل التنكيل ، فكانوا يحرقونهم بالنار ويدخلون عمد الحديد ، وهى متأججة فى أجسامهم ، ويمنعونهم الطعام والشراب ، وكان أخف ألوان العذاب أن يُلْقَى الرجل مكتوفاً فى وَقْدَةِ الحَرِّ وعلى صدره ما ينوء به من الصخر .

وكان أشد المسامين ابتلاء العبيد والموالى لانعدام ناصرهم وعدم وجود من يشفق عليهم ، وقد كان ما لاقاه آل عمار بن ياسر من العذاب فوق ما يحتمله البشر ، وقد ماتت سُمَيَّةُ أُمُّ عمار وهى تعذب ، وصبر من بقى من آلها صامدين لما يلاقون من تعذيب وتنكيل . وكان النبي عليه السلام يمر عليهم وهم يعذبون ولا يستطيع لعذابهم دفعا . فيقول : صبرا آل ياسر

مكرمة للصديق

لما اشتد أذى المشركين لعبيدهم الذين أسلموا ؛ عمد أبو بكر رضى الله عنه إلى شراء جماعة منهم لينقذهم مما هم فيه ثم أعتقهم ، وكانوا خمسة بين رجال ونساء ، منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله ، وكان مملوكاً لأمية بن خلف ، فكان يجعل فى عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به ، ثم يخرج به وقت الظهر فى الرمضاء ويلقيه على الحصى المتوقد ويضع على صدره صخرة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت

أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول بلال : أحد ، أحد ، وقد أعتق أبو بكر أم بلال كذلك .

ومن اشتراهم أبو بكر من العبيد المعذبين بسبب إسلامهم وأعتقهم عامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة عبد صفوان بن أمية وامرأة تسمى زنييرة وقد عذبت حتى عميت وكان متعجرفو قريش يتندرون بإسلامها ويقولون لو كان الإسلام خيراً ما سبقتنا إليه زنييرة . وامرأة أخرى اسمها : أم عنبس كانت مملوكة لبني زهرة .

وقد شكر الله لأبي بكر هذا الصنيع العظيم ووصفه بالأتقي ، فقال :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

ولما رأى أبو قحافة والد أبي بكر ما يصنعه ابنه في عتق العبيد ، قال له : يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك ؟

فقال أبو بكر : يا أبت ، إني إنما أريد ما أريد الله عز وجل .

ابتلاء الصديق

وما كان أبو بكر الصديق ، وهو أول من آمن بالله ورسوله من غير توقف ، وأكبر داعية للإسلام وأكثر المؤمنين عطفاً على المسلمين المستضعفين ، لينجو من أذى قريش ويسلم من الابتلاء الذي شمل حبيبه الرسول وسائر إخوانه الموحدين ، فقد ناله من ذلك أذى كثير و بلاء عظيم .

ومن ذلك أن أبا بكر أشار على النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يخرج هو ومن معه من المؤمنين من دار ابن الأرقم حيث كانوا يختفون ، إلى المسجد الحرام مراغمين

لقريش ، فقال له الرسول عليه السلام : يا أبا بكر ، إنا قليل ! ولكنه ألح في طلبه حتى استجاب له الرسول . فلما استقر المسلمون بالمسجد قام أبو بكر في الناس خطيباً ودعا إلى الله ورسوله ، فثار المشركون عليه وعلى المسلمين وأخذوا يضربونهم ضرباً شديداً ، ووُطِئَ أبو بكر بالأرجل وصار عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مَخْصُوفَتَيْنِ على وجهه حتى طَمَسَتْ معالمه ، وأشرف على الهلاك ، فجاءت قبيلته بنو تيم واستنقذته من المشركين وهم لا يشكون في موته ، فأقسموا لئن مات ليقتلن به عتبة بن ربيعة .

والتف أهله حوله يكلمونه فلا يجيب ، فلما كان آخر النهار تكلم ، وكان أول ما جاء على لسانه ، سؤاله عن رسول الله ، وكان أهله ما يزالون مشركين ، فعذله على ذلك ، فألح في السؤال حتى أشقت أمه عليه وقالت : والله ما عندي علم بذلك ، فقال لها : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب : أخت عمر بن الخطاب — وكانت مسامة — فأسأليها ، فذهبت أمه إلى أم جميل وجاءت بها فلما رآته جزعت ، وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق ، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فسألها أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : هو بخير ، وهو في دار ابن الأرقم .

فقال أبو بكر : والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شرباً أو آتى رسول الله ، فأمهله حتى سكن الناس ثم خرجوا به يتوكأ عليهم حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقعة شديدة وأكبَّ عليه يقبله ، فقال : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي ، وهذه أمي : برّةٌ بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار ، فدعا لها الرسول عليه السلام ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

الهجرة إلى الحبشة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذه المحنة ولا يستطيع لها دفعا ، فكان يواسي المسلمين المتحنين ويدعو الله لهم ، ثم فتح الله عليه برأى صائب فيه نجاة بني

الأحرار منهم وهو إيصالهم بالهجرة إلى الحبشة حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه ، وذلك لما كان يعلمه من صلاح النجاشي الذي كان يحكمها وقتئذ وحبه الخير ، فهاجر إليها من استطاع من المسلمين مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينه ، وكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام .

وقد بلغ عدد المسلمين الذين لحقوا بالحبشة في الهجرة الأولى ثلاثة وثمانين رجلاً ومن حق التاريخ علينا أن نسجل ما لاقاه مهاجرو المسلمين إلى الحبشة عند النجاشي من حسن الضيافة وكرم الجوار ، ومن حق النجاشي هذا علينا أن نشكر له ذلك وأن نشكره مرتين على أنه أبى أن يستجيب لقريش حين طلبت إليه تسليم المسلمين المجاورين له إلى وفد أرسلته لذلك برياسة عمرو بن العاص قبل أن يسلم ، فقد غضب من ذلك غضباً شديداً ورد إلى الوفد القرشي هداياه وأبى أن يبيع مكارمه بثمن أو ينزل عن مروءته لقاء عرض .

رجوع معظم المهاجرين إلى مكة

إثر إشاعة سماعها

وبعد بضعة أشهر من إقامة المسلمين بالحبشة ، سمعوا إشاعة هزتهم : ألا وهي أن قريشا آمنت وصدقت ، فلم يكن أحب إليهم من الرجوع إلى وطنهم ليشاركوا قومهم في الفرح بإسلامهم وليستأنفوا حياتهم من جديد .

ولكنهم حين عادوا إلى وطنهم علموا كذب هذه الإشاعة ، ولم يستطع معظمهم دخول مكة إلا مستخفياً أو في جوار واحد من طغاتها ، وتمكنت قريش منهم وأمعنت في إيذائهم وأغرقت في التتكيل بهم ، فلما أنشئت الصحيفة التي قاطعت قريش بها بنى هاشم وبنى المطلب واشتد الحال بالرسول عليه السلام ، أشار على المستضعفين من المسلمين بالهجرة ثانية إلى الحبشة فهاجروا إليها وظلوا بها حتى هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة وفتح خيبر فأرسل فاستدعاهم .

جوار الله ، لا جوار المشركين

واشتد إيذاء قريش المسلمين وعمّ حتى أصبح جاء ذى الجاه لا يعصمه منه . ولا سيما أن المسلمين من ذوى المكانة كانوا يتكرمون أن يعتزوا بأهلهم من المشركين ، وقد حملت هذه الحال أبا بكر على الهجرة فخرج يريد الحبشة فلقية حين بلغ برك الغماد زعيم قبيلة القارة واسمه ابن الدغنة وكان يعرفه ويقدره ، فسأله وجهته ، فأخبره أنه مهاجر إلى الحبشة اتقاء أذى قريش ، فقال له : مثلك لا يهاجر ، فعد إلى مكة في جوارى ، ثم رجع به إلى مكة ، وأعلن قريشاً أنه قد أجار أبا بكر ، وأنكر عليهم أن يخرجوا رجلاً مثله : يصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ؟ ! .

فأجازت قريش جوار ابن الدغنة لأبى بكر ، ولكنها شرطت عليه أن يصلى في داره خشية أن يفتن نساءهم وأولادهم ، وفعل أبو بكر ذلك زمناً ، ثم بنى مسجداً بفناء داره فصلى فيه ، وكان رجلاً بگاً تفيض عيناه بالدمع حين يقرأ القرآن فلا يكاد من يسمعه يستعصم من تأثيره فيه .

وغضبت قريش من إخلال أبى بكر بما شرطوه عليه فأرسلوا إلى ابن الدغنة فلما جاء أطلعوه على ما فعل أبو بكر ، فذهب إليه وخيّر بين أن يكتم صلاته أو يرد عليه جواره ، فاختر الثانية مؤثراً جوار الله على جوار العبيد ، متحملاً كل ما يلقاه من كيد وأذى وسخرية واستهزاء فى سبيل الله .

إيذاء الرسول الكريم

وعمد المشركون إلى إيذاء الرسول الكريم إيذاءً شديداً فسلطوا عليه سفهاءهم يتعرضون له ببذى القول وهُجْر الكلام ؛ فما كانت تسلم طوفة له حول الكعبة من أذية يتأذى بها ، ولا خلت راحة أو غدوة له إلى البيت الحرام من بلية يتبلى بها ومحنة يتعرض لها ، وجاوز الأمر حد القول والشم والنبد والتسفيه إلى حد العمل

العدواني . فعمد عقبة بن معيط إلى خنق رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه وما زال يشد عليه حتى جحظت عيناه . وأقبل أبو بكر فخلاه عنه ، وقال وهو يبكي :

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ؟

وعمد سفية آخر من سفهاء قريش إلى روث جزور فأتى به وألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بجوار الكعبة ، فظلّ الرسول ساجدا حتى جاءت ابنته فاطمة رضي الله عنها وأزلت الأذى عن أبيها .

وكان من ألوان الأذى التي تعرض لها النبي الكريم مجابهة سفهاء قريش إياه بالكذب والتسفيه ورميه بالسحر والكهانة والجنون .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم :

أن أشد ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ » .

المدو اللدود

وكان عمرو بن هشام المنبوذ في الإسلام بلقب أبي جهل ، أشد الناس عداوة لرسول الله وأكثهم بغياً عليه وحسداً له ، فكان يحرض السفهاء عليه ويؤلب القبائل ضده ، ويتعمده بالسوء حيثما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وقد بلغ من فوران حقه على الرسول أن أمضى عهداً على نفسه أمام الزمرة الخاسرة التي كانت تشاركه في عداوة الرسول ، أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بأن يلقى على رأسه حجراً ضخماً .

فلما جاء الرسول ليصلي ، عمد أبو جهل إلى حجر كبير وحمله ومضى به نحو الرسول والقوم ينظرون إليه في إعجاب وتشجيع ، ولكنه ما كاد يقترب من الرسول حتى

رجع مذعوراً وقد انتقع لونه ، فسأله ماذا جعله يحجم عن عزمه ؟ فقال : اعترضني دون محمد فخل هائل من الإبل هم أن يأكلني .

وكان هذا الرجل العنيد المتجبر يجمع في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين البغض لدعوته والنفاسة عليه والحسد له أن يصبح ذا شأن يعلو شأنه ، وأن يكون في نجاح دعوته ما يجعل لبني عبد مناف رجحانا في الجاه والرياسة على بني مخزوم قومه . وتروى له في هذا المقام مساجلة عجيبة ، فقد أنكر عليه أحد المقربين منه حقه الشديد على محمد مع ما يعلم من صدقه ومالا يحجده من أمانته ، فقال :

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا^(١) على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه ؟!

وهذه واقعة من وقائع كثيرة تشهد بأن زعماء المشركين من قريش ، قد أخذتهم العزة بالإثم وركبهم الغرور حتى صدمهم عن سواء السبيل ، وليس أدل على ذلك مما حكاه الله عنهم في معرض التقرير والسخرية حيث يقول :

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . »

ووجه العجب في هذا الجموح ، أنهم لم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، كما يقول العقلاء في مثل هذا المقام ، لأنهم زعموا أن في آذانهم وقرا لا تسمع هدى الرسول ، وقلوبهم مغلقة لا ينفذ إليها النور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) تجاذبنا : أى أقمينا .

سخريّة من نوع عجيب

وكان من أشد الناس كيدا للرسول صلى الله عليه وسلم ، النضر بن الحارث ، فقد كان رجلا ذلق اللسان ، معسول البيان ، قد وعى بعض أخبار الفرس وقصص الملوك الأقدمين ، فكان يزعم أنه يحسن الحديث إحسان محمد إياه ، ثم يعمد إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يخليه . فيقعد مكانه ويحرك لسانه بالخزعبلات التي يستظهرها مضاهاة للقرآن ومحاكاة للحديث النبوى الشريف ، ثم يقول : بماذا يزعم محمد أنه أحسن منى حديثاً ؟

وهكذا ، اشتد البلاء على الرسول ، وكلبت قريش في عداوته ، وأصبح كيدهم إياه شغلهم الشاغل وهمهم المقيم المتعد ، والنبي صلى الله عليه وسلم ، ماض لطِيبَتِهِ ، مُصْعَدٌ في سبيله . لا تعوقه عقبة مهما تعاظمت ، ولا يثنيه عن عزمه إيذاء مهما اشتد وتفاقم ، والقرآن الكريم مطرد النزول ، يتعقب أقوال المشركين وأعمالهم بالزجر والوعيد والبطش والتهديد ، والمسلمون يتكاثرون يوماً بعد يوم ، والدعوة الحمديّة تشيع وتتسع حتى تجاوزت حدود مكة ، وملأت آذان العرب على الرغم من مشرّكي قريش .

إسلام حمزة بن عبد المطلب

كان المسلمون حتى ذلك الحين قلة مستضعفة ، ولا سيما بعد أن هاجر أكثرهم إلى الحبشة ، وكانوا بسبب هذه الحال أميل إلى المسالمة والصفح عن يسيء إليهم ، ولم يكن هناك من يفكر في رد السيئة بمثلها ، ويمجّزى على الشر بشر مثله ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمدّهم بروح من عنده فهدى حمزة بن عبد المطلب أسد الله وعم الرسول إلى الإسلام وقوّى به شوكة المسلمين .

ومن عجيب صنع الله أن إسلام حمزة قد جاء أول الأمر عصيبة لابن أخيه بعد أن أنهي إليه بعض مساءات أبي جهل له ، ونحن نروى هذا الحادث الجلل في تاريخ الإسلام ، فيما يلي :

مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره : من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سمعت مولاة لبعض قريش ما قاله أبو جهل للرسول ، وحدث أن جاء حمزة بن عبد المطلب ، وكان ممّا يسلم ، من صيده ، متقلداً قوسه وكان أعزفتي في قريش وأشدها شكيمة ، فأنهت إليه الجارية ما حدث قائلة :

يا أبا عمار ، لو رأيت مالتى ابن أخيك آنفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجده جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد !

فاحتلم حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضر به بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال :

أشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك علىّ إن استطعت !؟!

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فإني والله ، قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وتم حمزة على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال حمزة :

لما احتملني الغضب ، وقلت أنا على قوله — أى قول النبي عليه السلام — أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدرى للحق ، ويذهب عني الريب ، فما استتمت دعائي ، حتى زاح عني الباطل ، وامتلاً قلبي يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعاني بأن يثبتني الله .

فلما علمت قريش كلها بإسلام حمزة عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ بإسلامه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

ما هو بالشعر ولا بالسحر ؟

لما عز الإسلام بدخول حمزة فيه ، وإقبال الناس عليه ، أرادت قريش أن تعجم عود النبي صلى الله عليه وسلم علما تقتنه عن أمره ، فأرسلت إليه عتبة بن ربيعة أحد زعماء المشركين فذهب حتى جلس إلى الرسول عليه السلام ، فقال :

« يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة^(١) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفّته به أحلامهم ، وعبت به آلتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا تقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّا^(٢) تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه . حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :

أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : افعل ، فقال الرسول عليه السلام :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« حَمْ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ... » الآيات

(١) السطة : هي التوسط .

(٢) الرئي : بفتح الراء وكسرهما ما يتراءى للانسان من الجن في زعم الجاهلية .

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ،
ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال :
قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير
الوجه الذى ذهب به . فلما جلس اليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :
ورأى أنى قد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر
ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى ، وخلّوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ،
فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم
وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه !

قال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ؟

حلاوة وطلاوة ولكنه ساحر ! ...

كان الوليد بن المغيرة ، والد خالد بن الوليد وعم أبى جهل ، عظيماً من عظماء
قريش وسيداً يقع منها فى الصدارة الكبرى .

وقد حدث أن سمع النبي عليه السلام ، يقرأ القرآن ، فبهره ما سمع وملاًه
إعجاباً وتقديراً ، وجاء قومه يحدثهم بأثر ما انطبع فى ذهنه مما سمع من آى الذكر
الحكيم ، فقال :

والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام
الجن ، وإن له حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ،
وإنه يعلو وما يُعلَى عليه .

فقلت قريش : صبا والله الوليد ، لتصبأ قريش كلها .
فقال أبو جهل : أنا أ كفيكموه ، ثم ذهب إليه وناقضه ما قال ، واشتد عليه
في المقال حتى أركبه العزة بالإثم ولواه عن قصده ، ثم عاد إلى مجلسه من قريش ،
غمى الوليد وذهب إلى حيث تجلس قريش ، وقال :

ترعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل
رأيتموه يتكهن ، وترعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟
وترعمون أنه كذاب ، ؟ فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

وكان جواب القوم عن كل ما جابهم به الوليد من الأسئلة ، أن قالوا :
اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ، ففكر قليلا ، ثم قال :

ما هو إلا ساحر : أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟
فعج القوم سرورا وإعجاباً من تخريج هذا الأفاك ، وأرضاهم قوله غاية الرضا ،
وقد نزل فيه من القرآن آيات كثيرة منها :

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ، وَبَنِينَ شُهُودًا ،
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ، سَأُرْهِقُهُ
صَعُودًا ، إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ، فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ، إِنْ هَذَا
إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » .

وليس هناك ما هو أروع ولا أشنع من هذه الصورة التي صور القرآن بها
هذا الأفاك المبين .

عتاب شديد

وكان الوليد بن المغيرة الذي مر ذكره ، سببا في عتب الله على رسوله عتبا شديداً .
ذلك أنه حدث بينما كان النبي عليه السلام يتحدث معه في الإسلام راجيا هدايته إذ

جاءه عبد الله بن أم مكتوم الأعشى وصاح به : استدنى يا محمد ، يريد من النبي أن يعرض عليه الإسلام والقرآن والنبي مستغرق في إقناع الوليد بن المغيرة ، فلما أكثر عليه انصرف النبي عنه عابسا وتركه ، فكان أن عاتبه الله عتابا شديداً على إهمال من جاءه يتزكى ولو كان فقيراً . فقال عز شأنه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى فَآتَتْ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى » .
الآيات بسورة عبس .

وفي رأى بعض خيار أهل السيرة النبوية ، إن ابن أم مكتوم لم يكن قد أسلم يوم نزل فيه القرآن ذلك أنه قال : استدنى يا محمد ولم يقل : يا رسول الله ، وهذا الفهم للواقعة يجعلها أدخل في مكارم الأدب الرباني الذي وصفه الرسول بقوله : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ووجه ذلك أن عتب الله على نبيه لإهماله شأن مسلم أمر تجرى به العادة وليس فيه غرابة ، أما عتبه عليه لأنه أهمل مشركا فقيراً أعشى بسبب إهماله في تبليغ الدعوة لرئيس من رؤساء المشركين ، وما في ذلك من إثارة القوى على الضعيف ، فذلك هو الأدب السامي والتعليم الرباني .

إسلام عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب من فتيان قريش ذوى البأس والنجدة ، ومن فرسانهم أهل الحفيظة والشكيمة ، وكان إلى ذلك حربا على الله ورسوله ، وكربا وبلاء مصبوبين على المسلمين الأولين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم من أمره ما يعلم ويدرك مبلغ الكسب الذى يفيد الإسلام إذا صار من أهله ، ولذلك كان يدعو ربه أن ينصر الإسلام بواحد من اثنين هما ، أبو الحكم بن هشام وعمر بن الخطاب .

واتفق في الوقت الذى تخرجت الأمور فيه بين النبي عليه السلام وبين قريش وحين رأى أعداء الإسلام أن الدعوة إليه تفشو يوما بعد يوم ، والإقبال عليها يزداد

ساعة إثر ساعة — أن تقمص الشيطان جسم عمر بن الخطاب فألى على نفسه أن يفيض هذا المشكل الذي أعيأ قريشا كلها فضه ، بأن يتولى هو قتل محمد ويبوء بتبعية جرمه وحده .

وتفقد عمر سلاحه ، وسأل أين محمد ؟ فقيل له : في بيت عند الصفا ، فقصد إليه ، وبينما هو سائر لقيه نعيم بن عبدالله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلها ، فأقتله .

فقال له نعيم ! والله لقد غررتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟

قال : حَتَنُكَ وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما ، وأراد نعيم بذلك أن يصرفه عن وجهته من التصدي للنبي عليه السلام .

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسَّ عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذاها .

وكان عمر قد سمع حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل ، قال :

ما هذه الهميمة ^(١) التي سمعت ؟ قالوا له :

ما سمعت شيئاً .

قال : بلى ، والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد ابن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضر بها فشجها ، فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه :

نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك .

(١) الهميمة : صوت كلام لا يفهم .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته :
أعطني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ،
وكان عمر قارئاً كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى
وحلف لها بألته ليردنها إذا قرأها إليه ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له
يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ،
فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما انتهى إلى قوله تعالى « لَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعَى » قال :

ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه ، فقال له يا عمر ، والله ، إنى لأرجو أن
يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام
بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله ، الله ، يا عمر !

فقال له عند ذلك عمر : فدلنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم ، فقال له خباب :
هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه . ثم عمد
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ،
قام رجل من أصحاب الرسول عليه السلام ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحاً
بالسيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ،
هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن
كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه
الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ^(١) ثم جبذه ^(٢)
جبذة شديدة ، وقال :

(١) الحجزة ، موضع شد الإزار .

(٢) جبذه : هزه هزاً عنيفاً .

ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة .
فقال عمر :

يا رسول الله ، جئت لك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .
فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب
الرسول أن عمر قد أسلم .

و بإسلام عمر عز الإسلام وقويت شوكة المسلمين . وحسبك دليلاً على هذا
قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود :

إن إسلام عمر بن الخطاب كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته
كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً ،
حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

ولما أسلم عمر عز عليه أن يتخفى المسلمون فخرج بهم صفّاً ، على رأسه حمزة بن
عبد المطلب وكان هو في مؤخرته ، فذهل المشركون منه وخفضوا رؤوسهم
ذلة واستكانة .

وهكذا خرج عمر والشيطان متقمصه وراح إلى بيته ، وقد فارقه الشيطان فراق
الأبد ، ووجد من عمر خصماً عنيداً وعدواً لدوداً ؛ ولا غرو فقد أخرج البخاري في
صحيحه قول الرسول عليه السلام :

« إيها ، يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا
سلك فجاً غير فجك » .

وكان عدد المسلمين حين أسلم عمر بضعة وأربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة .

إشهار الحرب الاقتصادية على محمد وآله

لما رأى مشركو قريش ، أن أبا طالب يمنع محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ،
وأن أنصاره كل يوم في ازدياد ، وأن شوكتهم قد قويت بإسلام حمزة بن عبد المطلب

وعمر بن الخطاب ، اجتمعوا للنظر في خطة نعم النبي وآله بالشر وتفضي بهم إلى كرب عظيم ، وقد أملى عليهم الخقد المتغلغل في نفوسهم هذه الخطة وهي مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة اقتصادية تامة ، فلا يتزوجوا إليهم ولا يزوجهم ، ولا يبيعون لهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً . وقد كتبوا بذلك صحيفة تعهدوا فيها بأغظ الأيمان وأشد الموائيق أن يحترموها كلهم ولا ينقضوها بصورة ما ، ثم علقوا الصحيفة بحواف الكعبة توكيدا على أنفسهم .

وعلى أثر تحرير هذه الصحيفة انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه ، ولم يشد عنهم إلا أبو لهب ، فإنه اسلخ من عشيرته وظاهر عليها قريشا .

وقد جدّت قريش في تنفيذ شروط الصحيفة ، بل جاوزوها إلى ما هو شر منها ، ذلك أن أبا لهب كان يتتبع بنى هاشم حين يريدون شراء بعض حوائجهم من غير قريش فيغري التجار أن لا يبيعوهم ما يريدون شراءه على أن يدفع لهم من ماله أكثر من الثمن الذي يسمونه لبضائعهم ، ويقول للتجار قد عرقم كثرة مالى وانتشار جاهي فأموالكم مضمونة وحقوقكم مكفولة .

وحدث أن لقي عدو الإسلام أبو جهل ، حكيم بن حزام بن خويلد ابن أخ السيدة خديجة رضي الله عنها ، يحمل قمحاً يريد به عمته فتعلق به ، وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . فجاء أبو البختری ابن هشام من بنى أسد ، فقال : مالك وله ! هذا طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل فأخذ أبو البختری ليحى بعير فضر به به فشجه .

وقد لاقى رسول الله ومن معه من عشيرته الأقربين ، عنتا كبيراً من هذا الحصار فجاءوا وجاعت أطفالهم حتى لقد كانوا يأكلون كل رطب ويتبلغون بجلود الأنعام ، وقد كان بعض أقاربهم وأنسابهم يرسلون إليهم بعض الطعام خفية ولكنه ما كان يغنى شيئاً .

وقد ظل هذا الحصار الاقتصادي الشديد قائماً ثلاث سنين تقريباً ، ونال من المحاصرين نيلاً شديداً وابتلوا منه بمحنة لم يعصمهم معها من الفتنة أو ينجيهم من الموت غير لطف الله وعظم همتهم وصلابة عودهم .

نقض الصحيفة

ولم تكن قريش كلها راضية عن هذا العمل غير الكريم ، ولكنها قد تورطت فيه تورطاً غطى على بصائرهم ، وشاء الله أن ينزع ، عن بعض القلوب الرحيمة ما خيم عليها ، فهب جماعة من أشرف قريش من سباتهم ، وتذكروا فيما بينهم ما يلقاه بنو هاشم وبنو المطلب من الشدة والضنك ، وعز عليهم أن ينعموا هم بالعيش وإخوانهم لا يجدون منه ما يقيم الأود ، وكان أن اتفقوا على أن يجتمعوا في الحرم صبيحة اليوم التالي لاجتماعهم ، فيعلنوا نقض الصحيفة .

وقد كانت هذه الفئة الرحيمة من قريش مؤلفة من : هشام بن عمرو بن الحارث العامري — وكان السابق إلى فكرة نقض الصحيفة ، وأعظم إخوانه بلاء في تحقيق هذه الفكرة النبيلة ، والمطعم بن عدى النوفلي ، وأبو البختري بن هشام الأسدي وزمعة بن الأسود الأسدي ، وزهير بن أبي أمية الخزومي .

وأصبح هؤلاء نفر قصبوا إلى البيت الحرام فكانوا به ثم انضموا إلى مجلس قريش ، فقال زهير بن أبي أمية :

يا أهل مكة : أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكوا لا يبيعون ولا يبتاعون ! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة .

فقال أبو جهل : كذبت !

فقال زمعة لأبي جهل : أنت والله أكذب ، ! مارضينا كتابتها حين كتبت !

وقال أبو البختري : صدق زمعة !

وقال المطعم بن عدى : صدقنا ، وكذب من قال غير ذلك !

وصدق على ما قيل ، هشام بن عمرو .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد شوورا فيه بليل !
ثم قام المطعم بن عدى فأخذ الصحيفة فشقها فوجد الأرضة قد أكلتها ولم يبق
فيها غير عبارة « باسمك اللهم » وهي العبارة التي كانت قريش تستفتح بها كتبها
في الجاهلية .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر عمه أبا طالب بفعل الأرضة بالصحيفة .
وعلى هذا النحو انكسر الحصار الاقتصادي ، وفشلت الخطة التي وضعتها قريش
لإماتة النبي وآله جوعاً ، فخرج المحاصرون من شعب أبي طالب ، وذهب كل منهم
إلى مسكنه من مكة ، واسترد الجميع حريتهم في البيع والشراء .

الدعوة ماضية في سبيلها

استعانة قريش بيهود يثرب

كان الحصار الاقتصادي الذي ضرب على محمد صلى الله عليه وسلم وآل بيته ،
مقصوراً على صفته الاقتصادية ، وبعض النواحي الاجتماعية ، كمنع التزاوج بين آل محمد
وبين سائر بطون قريش ، وأبقت قريش للمحاصرين حرية الحركة فكانوا يذهبون
كعادتهم إلى البيت ويطوفون بالكعبة ويذهبون كيف شاءوا .

وكان النبي عليه السلام ماضياً في نشر الدعوة الإسلامية بكافة الطرق وشتى
الوسائل ، وكانت قريش ماضية كذلك في محاربة هذه الدعوة بكل ما يسعها من
جهد ، ولم تقتصر وسائل الحرب على ضرب أو أكثر بل افتمنت في ذلك افتناناً ،
ولجت فيه كذباً وبهتاناً .

وقد مضى وصف بعض ألوان هذه الحرب ماثلاً في تعذيب من يسلم منهم سواء
أكان حراً ، أم كان عبداً ، وقد ظل هذا الضرب من فنون الحرب قائماً ، لا تأخذ
قريش رحمة فيمن يسلم ولا تعصمه رَحْمَةُ مَنْهُمْ ومكاته فيهم من العذاب الشديد
والنكال المبين .

ومن بين الوسائل التي ابتدعوها محاولة نقض الرسالة المحمدية عن طريق أهل الكتاب فكان أن أرسلوا وفداً إلى يهود يثرب يصف محمداً بالكذب في زعمهم ، ويطلب إلى أهل الكتاب أن يدوهم بمدد من علوم الدين يعينهم عليه ، فأمدهم علماء اليهود بثلاثة أسئلة وضعوها ، وقالوا لهم : إن أجاب محمد عليها فهو صادق الدعوى ، وإن لم يجب عليها فهو متقول .

أما هذه الأسئلة فأولها متصل بحكاية أهل الكهف ، وثانيها متصل بحكاية ذى القرنين ، وثالثها متصل بالروح : ما هي ؟

فلما رجع وفد قريش إلى مكة طرح على رسول الله عليه السلام هذه الأسئلة فقال : سأجيبكم عنها غداً ، ولم يقل إن شاء الله فلم يهبط عليه جبريل بالوحي خمسة عشر يوماً ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه خالها في أشد حالة لما كان يخشاه من خذلان الله إياه ، ولما كان يلقاه من شماتة قريش وتحديها له . وقد تدارك الله رسوله برحمته فأنزل عليه جبريل بسورة الكهف رداً على الأسئلة التي وجهت إليه ، فذكر القرآن قصتي أهل الكهف وذي القرنين ، وعتب الله على نبيه عتاباً رقيقاً أن حدد موعد الإجابة ، ونسى أن يقول : « إن شاء الله » .

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن هَٰذَا رَشَدًا » .

وأجاب عن سؤال الروح بقوله تعالى :

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»

الحيلولة بين الرسول وبين شخصيات العرب

وكان من وسائل الحرب التي شهروها على الدعوة المحمدية ، المبادرة إلى استقبال الشخصيات العربية ذات الجاه والنفوذ في محيطها بالقبائل ، عند وفودها إلى البيت الحرام في موسم الحج ، وسائر أيام السنة ، وتحذيرها من محمد وتصويرهم إياه بأنه ساحر كذاب ، قد جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجيب ! ..

وكان من بين مشاهير الشخصيات التي صدّها كيد قريش عن مقابلة الرسول عليه السلام أعشى قيس ، وهو شاعر مشهور ، وكان للشعر في ذلك الزمن ما يساوى مكانة الصحافة هذه الأيام ، فلما علمت قريش أن هذا الشاعر الكبير قدم مكة مادحاً لمحمد عليه الصلاة والسلام ، سارعوا إليه ونفّروه من الإسلام ، وكان أعظم شيء وقع من نفسه وقعاً سيئاً فيما سمع : أن الإسلام يحرم الخمر . فقال الأعشى : لقد بقي في نفسي شيء منها فلا أرجع هذا العام فأقضى حاجتي منها ثم أعود من قابل ، ولكنه مات ذلك العام .

ومن الشعراء المحدثين في الجاهلية الطفيل بن عمرو الدوسي ، وكان إلى ذلك سيداً في قومه مطاعاً فيهم ، وقد قدم مكة وحرب الكلام مستعرة بين رسول الله وبين قريش ، فتلقاه رجال من قريش وحذروه من لقاء محمد وقالوا له : إن هذا الرجل يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين المرء وبين زوجه . ولكن إرادة الله كانت قد سبقت له بالهداية ، فقال يخاطب نفسه :

إنني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .
ثم تبع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، فأخبره بما وسوست به إليه قريش ، فعرض عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه الإسلام وتلا عليه القرآن . وهنا يحلف الطفيل بالله : أنه ما سمع قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلم ، وكان من المجاهدين الصابرين ، ورجع إلى قومه فأسلم أهله بإسلامه .

وفد من النصارى يؤمن بالله ورسوله

وكانت هجرة من هاجر من المسلمين إلى الحبشة سبباً في انتشار ذكر الإسلام بها ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وفد من النصارى يبلغ نحو عشرين رجلاً وقابلوه بمجلسه حول الكعبة وكلوه وسألوه ، فلما فرغوا دعاهم الرسول إلى

الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله
وصدّقوا برسوله ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم من أمره في كتابهم .

فلما انصرفوا من حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام اعترضهم أبو جهل بن
هشام في نفر من قريش ، وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من
أهل دينكم ، ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم
دينكم وصدقتموه بما قال !

فقالوا لهم : سلام عليكم ، لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أتمم عليه ،
لم نأل أنفسنا خيراً .

هزل صار جدًّا

وكان من بين فنون الكيد لرسول الله ، إغراق قريش في السخرية به والتهكم
عليه ، وقد حدث من هذا القبيل أن رجلاً من العرب باع إبلاً لأبي جهل فظله ثمنها ،
فقصد إلى نادى قريش حول الكعبة وسأل : من يأخذ له بحقه منه ؟ فأشار سقهاء
قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس ناحية أخرى من الكعبة ، وقالوا للرجل
— وهو يجهل ما بين النبي وبين أبي جهل من عداوة — : عليك بهذا الرجل فإنه
الوحيد الذى يستطيع إنصافك من أبي الحكم !

فذهب الرجل وهو خالى الذهن مما هنالك إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر له
قصته مع أبي جهل ، ومشورة رهط قريش عليه بالالتجاء إليه لينصفه منه ، فقام معه
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاء به دار أبي جهل فطرق بابها ، فقال أبو جهل :
من هذا ؟

قال محمد : فاخرج إلى .

فخرج أبو جهل ، وقد انتقع لونه ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : أعط
هذا الرجل حقه !

قال : نعم ! لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، ثم ذهب فجاء بمال البدوى فدفعه إليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للبدوى : الحق بشأنك .

ولكن البدوى رأى حقاً عليه أن يذهب إلى الرهط الذى دله على محمد ليشكر إليه حسن مشورته ، فقد استخلص له محمد حقه من أبى جهل ! فذهل القوم وكبر عليهم أن يصدقوا ذلك حتى جاءهم أبو جهل فسأله عن جلية الأمر ، فقال : ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملت منه رعباً ! ..

ومن ضروب الحرب التى شنتها قريش على الله وعلى رسوله ، تتبع مايوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن بالنقض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتحدى البغيض والتمرد على الله ورسوله ، والعمد لخالفه كل ما يدعو إليه الإسلام من مبادئ شريفة وتعاليم صالحة ، وكانوا يفعلون كل هذا وغيره وهم على يقين من أن محمداً رسول الله حقاً ، وأن ما جاء به هو تنزيل من عند الله ، وليس سحراً أو كهانة ، ولكن غلبت عليهم الضلالة ، ففضوا في غيهم يعمهون .

وفاة خديجة

وفي العام السابع من مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، اختار الله إلى جواره الكريم السيدة خديجة زوج النبي ، وأول من آمن به وصدق برسالته ، وأعظم من آزره وأعاناه وكان له الملاذ الأمين حين تشدد الحوادث وتدهم الخطوب .

وقد حزن الرسول الكريم لوفاة زوجته الفضلى حزناً شديداً ، وأحسن سعة الفراغ الذى خلفه وفاتها ، وافتقد العون الذى كان يلقاه منها في مثل الظروف التى كان لا يزال يعانيتها من غنت قريش وتكذيبها إياه .

وقد تزوج النبي من خديجة وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وعلى ذلك يكون هذا الزواج المبارك قد دام اثنتين وعشرين سنة .

وقد ولدت السيدة خديجة للنبي عليه الصلاة والسلام جميع أنبائه إلا إبراهيم ، وهم : القاسم — وكان النبي يلقب به — وعبد الله الملقب بالطيب ، والطاهر ، وأم كلثوم ، ورقية ، وزينب ، وفاطمة . وقد مات القاسم وعبد الله قبل الرسالة .

وفاة أبي طالب

وعلى أثر وفاة السيدة خديجة بشهر تقريباً ، هلك عمه أبو طالب ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب ، حتى إنه كان يسمى العام الذي توفي فيه عام الحزن ، وهو حقيق بهذه التسمية .

وكان أبو طالب مجموعة من الأخلاق الكريمة ندر أن تتلاقى في رجل من الرجال ، وقد اضطلع بالعبء الأكبر من حماية الرسول عليه الصلاة والسلام ومنع الأذى عنه ، وعصمه من كيد قريش ، وآثر أن يجوع هو وعياله على أن يسلمه لهم ؛ فتمت بذلك مروءته ووفى بعهد الذي قطعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له : اذهب فقل ما شئت فإنى لا أسلمك لهم أبداً .

وقد كان أبو طالب شاعراً فحلاً ، خلد موقفه من قريش وموقف قريش منه فيما يتصل بأمر ابن أخيه محمد صلوات الله وسلامه عليه في قصائد رائعة مملوءة بالعزة والكرامة ، وهى منشورة في كتب السيرة المطولة ، ولا سيما لاميته المشهورة التى يصف فيها رسول الله بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقد جهّد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مع عمه أبي طالب وهو يحتضر أن يسلم ، ولكنه أبى ذلك مع حبه إياه حباً يتسامى عن الوصف ، وكانت حجته فى ذلك معجبة ، فاستمع إليه يدلى بعذره إلى الرسول :

يا ابن أخى ، والله لولا مخافة السُّبَّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أتنى إنما قتلها جزعاً من الموت لقاتلها — أى الشهادتين — لا أقولها إلا لأسرك بها .

وبوفاة أبي طالب فقد الرسول عليه الصلاة والسلام الملجأ الأمين الذى كان يعوذ به فى الشدة ، والحصن الذى كان يحميه من أعدائه ، إذ ما لبثت قريش أن بلغت

مرادها منه ، واشتد أذاها له حتى إن سقيها من سفهاها نثر التراب على رأسه ، فأخذت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي والرسول يقول لها : لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك ، ثم يقول : ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

أم المؤمنين سودة بنت زمعه

بعد وفاة السيدة خديجة بأقل من شهر تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بسودة بنت زمعة العامرية القرشية ، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو ابن عمها وهما ممن آمن بالله ورسوله ولقيا أذى كثيراً من قومهما ، مما اضطرهما معه إلى الهجرة إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، فلما عادا توفي عنها زوجها فتزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام يرأبها ، وخوفاً عليها من أن تتعرض للفتنة والأذى .

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يوثق الروابط القوية التي كانت بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه فتزوج ابنته عائشة وهي في سن السابعة ولم يدخل بها إلا بعد أن هاجر إلى المدينة وكانت قد بلغت التاسعة من عمرها ، ولم يتزوج النبي عليه الصلاة والسلام بكراً غيرها ، وكانت أحب أزواج النبي عليه الصلاة والسلام إليه ، وأكثرهن أخذاً عنه ورواية لحديثه ونقلًا لتعاليمه ، وقد ورد في الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وللكلام عنها بقية ترد عند بناء المصطفى عليه الصلاة والسلام بها في سياق السيرة إن شاء الله .

رحلة الطائف

كانت الطائف أقرب المدن جواراً إلى مكة ، وقبيلة ثقيف التي تستوطنها من أكبر القبائل العربية عدداً وأمنعها مكاناً ، فخرج إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه يرجو لأهلها الهداية ، ويلتمس منهم المعونة والمنعة من قريش ، ولكن الله لم يشأ

أن يشرفهم بهذه الفضيلة فأساءوا استقباله وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط^(١) لعنته وشيبة ابني ربيعة القرشيين ، فجلس تحت ظل شجرة عنب وأخذ يناجي ربه قائلاً :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني^(٢) ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ما أبلغ هذا الخطاب وما أكرم هذا العتاب !

ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة علم أن ثقيف أخبرت قريشاً برحلته إليها وأن مشركي مكة قد غلت عداوتهم له واستحال عليه جوارهم ، فأرسل إلى المطعم ابن عديّ أن يكون جاراً له فقبل ذلك ، وذهب هو وبنوه إلى البيت شاكي السلاح ومعهم رسول الله ، فلما رآته قريش قال قائلاً : أحجير أم تابع ؟ فقال مجير . فقالوا : إذن لا نخفر جوارك !

الإسراء والمعراج تحت ضوء الاعتقاد

نرى قبل أن ندخل في تفاصيل معجزة الإسراء والمعراج أن تقدم بين يدي ذلك قولاً حضرنا والله ولي التوفيق .

إن حديث الإسراء والمعراج داخل في باب المعجزات التي اختص الله بها رسله وأكرم بها أنبياءه ، وقد كانت عامة في جميع الأديان التي تقدمت الإسلام ، فلكل رسول معجزة أو معجزات ، ولكل نبي خارقة أو خارقات ؛ حتى أصبحت المعجزات

(١) حائط : بستان .

(٢) تجهمني : استقبله بوجه كرهه .

تجرى من الأديان مجرى الأصل من أصولها والطبع الملازم لها ، وتتتابع الرسل وتتواتر المعجزات التي أيدوا بها صارت المعجزة أمراً تعبدياً ، يقتضينا الإيمان أن نصدقها من غير أن نناقشها ، وقد يستطيع العقل والعلم تأويل بعضها وتفسيره تفسيراً علمياً ، ولكن معظمها يتأبى ذلك . ومن أجل هذا أصبح التسليم أسلم وصار الوقوف منها عند حد الاعتقاد والإيمان أحكم ؛ وإلا فماذا يؤول العلم إحياء عيسى عليه السلام الموتي وكلامه في المهد صبياً ؟ وماذا يؤول العلم محو آية النار حين ألقى فيها إبراهيم عليه السلام وصيورتها عليه برداً وسلاماً ؟

لهذا ولغيره من الأسباب الكثيرة التي لا تخفى على ذوى البصائر يرى المؤمن الخالص العقيدة قبول أمر المعجزات من غير شك أو مباحكة ، على أنه أمر اختص الله به رسله وأنبياءه ليكون آية للناس وعلامة على أن ما يدعون إليه من الإيمان هو من عند الله .

نقول هذا ولا يخفى علينا أن معجزة الإسلام الكبرى هي القرآن ؛ وهي معجزة لا يضارّ معها العقل ولا يابأها العلم ، فقد تحدّى الله سبحانه وتعالى العرب أن يأتوا بسورة واحدة مثل سورة فأعجزهم ذلك ، ومضت الدهور وتعاقبت الحقب من غير أن يستطيع أحد أن يقوم لهذا التحدى مقاماً يحفل به أو يؤبه له ، على حين أن معجزات الرسل الذين تقدموا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كانت كلها أو معظمها قائمة على خرق النواميس الكونية كما سبق أن ذكرنا مثلاً من ذلك في معجزات عيسى وإبراهيم عليهما السلام .

ونخلص من هذا كله إلى الكلام عن معجزة الإسراء والعراج ، فنقول : إن هذه المعجزة مروية على وجهين ، وجه يقول : إنها كانت رؤياً منامية ، وآخر يقول : إنها كانت رؤياً عيان ومشاهدة يقظان ، ولكل من هذين الوجهين أنصار من الصحابة والتابعين وأصحاب المذاهب الفقهية في الإسلام ، ومن الصعب ترجيح أحدهما على الآخر ، فمن ذهب مذهب القول بأنها كانت رؤياً منامية ،

وجد من الروايات ما يؤيد مذهبه ، ومن آثر الوجه الثاني ألفى ما يؤكده اجتهاده ويطمئن نفسه ، وليس لأحد الوجهين ترجيح على صاحبه إلا من حيث إن الوجه الأول — وهو أنها رؤيا منامية — يخرج المسألة من نطاق الخوارق الكونية ويضعها موضع الخصوصية الروحانية التي لا تستكثر على نبي ولا تتعاضد على رسول .

وقد جاءت الكتب السماوية بكثير من الأمثلة التي كانت الرؤيا المنامية تقوم مقام الوحي ، وتنزل منزلة الأمر الإلهي واجب التحقيق ، فكان النبي الذي يرى رؤيا محددة المعالم بينة الاتجاه ، يعمل بما رآه حتماً . والمثل الواضح على ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه إسماعيل ، فقد عمد إلى تحقيق هذا الأمر الإلهي ومضى فيه إلى أن نودي بأنه قد صدق الرؤيا وأُحِلَّ منها بفداء ولده الكريم .

وفي أصدق الأنبياء عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أن الرؤيا الصادقة كانت أولى بشائر الوحي ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ولحادث الإسراء والمعراج مدخل مستفاد من علم النفس في وضعه الحديث ؛ ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان حريصاً جداً على هداية قومه لما يعلمه من أنهم إذا آمنوا به تبعهم العرب على إيمانهم ، وكفى مؤونة الاحتجاج القائل بأنه لو كان جاء بخير لكان قومه أول من صدقوا به ، ومن أجل هذا كان كثير الدعاء أن يمد الله بروح من عنده يحق عناد قريش ومما حكته بسبب ما فيه من خوارق تتسامى على القوانين الكونية ، ولا تخضع للنواميس العادية ، فكان أن استجاب الله لرسوله ، فتجلت نعمته عليه بهذه الرؤيا لتكون آية لمن يريد الله له الهدى ، وفتنة لمن لجَّ في الضلالة :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ »^(١) .

ومن أخذ بالوجه القائل بأنها كانت رؤيا عيان ، وأن المعراج إلى السموات قد تحقق فعلا ، فليس أمانه إلا إيمانه الصادق بالله ورسله يعصمه من الزلل ويحميه من الخطل .

ومتى استذكر المؤمن عظمة الله البالغة وقدرته التي لا حدود لمداها ولا غاية لمتبناها ، فإنه سيجد من انشراح صدره وطمأنينة نفسه ما يعلم أن الإسراء بشخص من بلد إلى بلد والمعراج به إلى السموات العلى ليس بشيء أمام قدرة العلى الكبير وعظمة ذى الطَّوْلِ والحول القدير .

ومن يدرى فعل بعض قراء هذا الكتاب من الأحياء أو أبنائهم يشهدون معراج آدميين إلى الكواكب فقد كثر الكلام في ذلك اليوم . ومتى استطاع الإنسان الفاني هذا العمل فينظر العاقل مبلغ القدرة الإلهية ، وعظمة الإله العلى الكبير .

قصة الإسراء

وتتلخص قصة الإسراء في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بالبراق — وهي الدابة التي كانت تحمل الأنبياء قبله ، وهي تضع حافرها في منتهى طرفها — فحُمِلَ عليها حتى انتهت إلى بيت المقدس فوجد فيه إخوانه النبيين : إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ، وأُتِيَ له بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، فأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هُدِيتَ للنفرة وَهُدِيتَ أَمْتَك يا محمد ، وحرمت عليك الخمر .

قصة المعراج

فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولا يرى شيء أحسن منه ، فأصعده جبريل فيه إلى السموات العلى ، وقابل فيها كثيرين من إخوانه الأنبياء وأبيه آدم عليه السلام ، وفرضت عليه الصلاة وكانت

خمين في اليوم ، ولكن موسى عليه السلام ذكر له أنها كثيرة ، وأشار عليه بمراجعة ربه لتخفيفها عن أمته ، وما زال النبي عليه الصلاة والسلام يراجع ربه في هذا الأمر بمشورة موسى عليه السلام حتى خففت الصلاة إلى خمس في اليوم ، فسأله موسى أن يراجع ربه في التخفيف مرة أخرى فاستحيا رسول الله من ذلك لكثرة ما راجع ربه في هذا الأمر .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة السماوية مشاهد كثيرة دالة على عظمة الله شاهدة بوحدانيته ، ناطقة بعظمة ملكوت السموات ، منبئة بمصائر من يكفرون بالله أو يجترئون على حد من حدوده .

وأرجح آراء الفقهاء وأصحاب السير أن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادى قريشا فحدثها حديث الإسراء فكذبوا به ، وطلبوا إليه أمارات تشهد بصدق قوله فذكر لهم الكثير من ذلك ثم طلب إليه وصف المسجد الأقصى فصوره الله أمام ناظريه حتى وصفه وصفا دقيقا ؛ ولكنهم كذبوه وجحدوه على رغم صدق الأمارات التي ذكرها .

وصدقه أبو بكر في كل ما ذكره من غير تردد أو تشكك ؛ ومن أجل ذلك سمي الصدِّيق .

عرض الإسلام على قبائل العرب

وعمد النبي عليه الصلاة والسلام إلى توسيع دائرة الدعوة إلى الإسلام من طريق عرضها على العرب كافة ؛ فكان لا يسمع بوفادة أحد من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

ثم أخذ صلوات الله وسلامه عليه يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه به الله ، ويقول فيما يقول :

« يا بني فلان : إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى آيئ من الله ما بعثني به . »

وكانت قريش ترسل وراءه من يعقب على كلامه بتحذير العرب من طاعته وتهجين دعواه ، وكان عمه أبو لهب يتولى هذه المهمة في أغلب الأحوال .

واختلفت أحوال القبائل في الرد على دعوة المصطفى لينا وشدة ، ولكنها اتفقت في عدم الاستجابة لها ، ولم يكن هناك أحد من العرب أقبح رداً على الرسول من قبيلة بني حنيفة رهط مسيلمة الكذاب .

الاتصال الأول بالأنصار

لم يكن بين حيين من أحياء العرب من التناحر والبغضاء مثل ما كان من ذلك بين الأوس والخزرج أهل يثرب ؛ فقد كانوا دائماً في قتال ، أو على موعد من قتال . وقد حدث أثناء الفترة الزمنية التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل أيام موسم الحج ، أن وفد إلى مكة أبو الحيسر : أنس بن رافع في فتية من الأوس يلتمسون الحلف من قريش على أعدائهم من الخزرج ، وقد سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم :

هل لكم في خير مما جئتم له ؟

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً - : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ ،

وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس وانصرف الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم كانت وقعة بُعث بين الأوس والخزرج وكان النصر فيها للأوس .

ولم يلبث إياس بن معاذ أن توفي وهو يهمل ويكبر الله ويحمده ويسبحه ؛ إذ كان قد استشعر الإسلام حين سمع من رسول الله ما سمع .

بشائر الفتح

الأنصار الستة المباركون

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، خرج رسول الله في الموسم التالي يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع كل موسم ، فبينما هو عند العقبة ، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، وهم :

أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة ابن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله .

فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما فتح الله به عليهم أنهم كانوا يجاورون يهود يثرب ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك ، وأصحاب أوثان ، فكانوا إذا حدث بينهم نزاع ، قال اليهود لهم :

إن نبياً سيعت الآن ، قد أظل زمانه ، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ،

تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه !

وكان أن استجابوا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا :

إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين ؛ فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعواهم إلى الإسلام ، فاستجابوا له حتى فشا فيهم ، ولم تبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بيعة العقبة الأولى

بيعة النساء^(١)

كان إسلام الفتيان الستة من الأنصار خيراً و بركة على الأنصار وعلى الإسلام ، فقد أسلفنا أنهم نشروا الإسلام في المدينة حتى أصبحت دورها عامرة به . ومع أن هؤلاء الفتيان كانوا من الخزرج ولم يكن بينهم أحد من الأوس ، وعلى الرغم من أن فريق الأنصار كانوا على حرب دائماً وكان عهدهم قريباً بيوم بُعث الذي كادت الأوس تفنى فيه الخزرج — أقول على الرغم من هذا كله ، أَلَّفَ الإسلام بين قلوبهم حتى أصبحوا بنعمة الله إخواناً ، ولم يحدث منذ أن نشبت الحروب المعمرة بينهم أن اتفقوا على شيء أو اجتمعت كلمتهم على أمر ، قبل أن يجتمعوا على الإسلام .

ولما جاء موسم الحج الذي تلا إسلام مَنْ ذكرناهم من الأنصار ، وافى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، عشرة من الخزرج وهم :

أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعه ، ورافع بن مالك بن العجلان وذكوان بن عبد قيس ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر .

(١) سميت بيعة النساء لأن شرط القتال لم يكن فيها إذ أنه لم يكن شرع .

واثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم بن التَّيْهَان واسمه مالك ، وعُوَيْم بن ساعدة .
وقد بايعوا جميعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يشركوا بالله شيئاً
ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ،
ولا يعصوا الرسول في معروف ؛ فإن وفوا بما عاهدوا فلهم الجنة ، وإن غشيتهم من ذلك
شيء فأخذوا بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سئروا عليه إلى يوم القيامة فأمرهم
إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر .

ولما انصرف القوم بعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام مُصْعَب بن عُيمِر
يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين . وكان منزله على أسعد بن زرارة .

سياسة بارعة وتوفيق كبير

تفتحت قلوب الأنصار للإسلام ، ودخلوا فيه أفواجا ، وكان إقبالهم عليه متميزا
باليسر والبشر والحماسة والسماحة ، وقد عصمهم الله مما كانت قريش تقابل به دعوة
الحق ، وماذا لك إلا لأنه ، تعالت إرادته ، قد كتب لهم السعادة ووفقهم للحسنى وزيادة .
ولعل من أكبر الأسباب التي ساعدت على قبول الدعوة الحمديدية بين الأنصار
سلامة فطرتهم ، وتجردهم من الحقد الذي كان يملأ نفوس قريش ، أن اختص الله
برسالته محمداً دونهم ، ولم يؤثر بها رجلاً عظيماً من القريتين : مكة والطائف كما كانوا
يتندرون بذلك .

ومن تأمل الشروط التي بايع عليها النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار في العقبة
الأولى ، ألفها دستوراً للفضائل وجماعاً للمكارم ، وغاية في تثقيف النفوس ورعاية
الحقوق . ولما كانت فطرة الأنصار سليمة فقد تفتحت قلوبهم للدعوة الإسلامية ورحبوا
بها ولم يحدوا فيها إلا كل ما يزيدهم كمالاً ويرفعهم مقاماً .

وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم منذ أرسل يغادى قريشاً ويرأوحها بمثل هذه
الشروط فلم يزد عليها ذلك إلا عناداً ولجاجة في الباطل وبعداً عن الله ورسوله !

وسنورد فيما يلي حادثة لطيفة تدل على دماثة خلق الأنصار وصفاء نفوسهم ، ومبلغ استعدادهم الطيب لتفهم الحق وقبوله ، وبعدهم عن الفساد المؤدى للجهالة والخسران .
قدمنا أن مصعب بن عمير الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأنصار يفقههم في دينهم نزل على أسعد بن زرارة ، وذات يوم خرج به أسعد يريد دار بني عبد الأشهل ، وهم سادة الأوس ، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا .

وسمع بذلك سعد بن معاذ ، وهو ابن خالة أسعد بن زرارة ، وأُسَيد بن حُضَيْر وهما — أى سعد وأُسَيد — سيدا بني عبد الأشهل ، فقال سعد لأُسَيد : انطلق إلى هذين الرجلين — يعنى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير — اللذين قد أتيا دارينا ، ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهمهما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت — يقصد إلى أنه ابن خالته — كفيتك ذلك .
فأخذ أُسَيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير :

هذا سيد قومك قد جاءك فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكله .

ووقف أُسَيد عليهما غاضبا ، فقال :

ما جاء بكما إلينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .
فقال مصعب :

أو تجلس قسمك ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره .

فقال أُسَيد : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال :

ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين قالوا له : تعتسل وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى .

فقام واغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما :

إن ورأى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، وهو سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم ، فلما نظر سعد بن معاذ إليه مقبلا ، قال :

أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زراراة ليقتلوه .

فقام سعد مُغضباً مبادراً تخوفاً على ابن خالته ، وأخذ الحربة من يد أسيد بن حضير ، وقصد إلى حيث كان أسعد ومصعب جالسين ، فلما رآهما مطمئنين ، عرف أن أسيداً أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما مُتَشَتِّماً ، ثم قال لأسعد بن زراراة : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة مارئت هذا منى ، أتعشانا في دارينا بما نكره ؟

وكان أسعد قد قال لمصعب حين رأى سعداً قادماً : جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ، فقال له مصعب :

أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره !

قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن . فقال لهما : كيف تصنعون إذا أتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟

قالا : نغتسل وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام ففعل ذلك كله ثم أخذ حربته ورجع إلى قومه ، فلما رأوه مقبلا قالوا :

نخلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، قال :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيية .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

ولقد أبر القوم قسم رئيسهم ، فما أمسى في دور بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا على الإسلام .

هكذا كان الإسلام يجد طريقه السهلة المعبدة إلى قلوب الأنصار ، فيعمرها نوراً ويملاها يقيناً ، وهكذا تمت نعمة الله على الأنصار فدخلوا دينه في يسر وسهولة ، وإقبال واستبشار .

بيعة العقبة الثانية

وتوكيد الأمر بين الرسول والأنصار

وفي أوان الحج رجع مُصعب بن عمير — مُفَقَّه الأنصار — إلى مكة ، وقصد إليها مسالموا الأنصار الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية وغيرهم ممن آمنوا ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج جميعاً ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانوا يكتمون الأمر على من معهم من أهل المدينة الذين قد قدموا إلى الحج وهم لا يزالون على شركهم ، فلما مضى ثلث الليل من الليلة التي واعدوا فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أخذوا يتسللون تسلل القطا ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة .

وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وكان لا يزال على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما أخذوا مجالسهم قال العباس : يا معشر الخزرج ^(١) ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز

(١) كانت العرب تطلق اسم الخزرج على الأوس والخزرج جميعاً .

إليكم ، والحق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، وما نعود ممن خالفه ، فأتتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مساموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .
فقال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .
فأخذ البراء بن معرور بيد الرسول عليه الصلاة والسلام ثم قال :
نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعك مما تمنع منه أزربنا^(١) ، فبايعنا يا رسول الله ،
فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة^(٢) ، ورثناها كابراً عن كابر .
وقال أبو الهيثم بن التيهان :

يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً^(٣) ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟
فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :
بل الدم الدم^(٤) ، والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أخرجوا إلى اثني عشر ثقباً ليكونوا على قومهم . فلما أخرجوهم قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) أي نساءنا ، كناية عن المبالغة في منعته .

(٢) أي السلاح .

(٣) يعني يهود يثرب ويقصد من الحبال : العهود .

(٤) أي ذمتي وحرمتي حرمتكم .

أتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم ، وأنا
كفيل على قومي .
وهذه هي أسماء النقباء :

نقباء الخزرج

أبو أمامة : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن
مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبد الله بن
الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس

أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر .
وبعد انتهاء البيعة وانتخاب النقباء طلب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى
الجميع الانصراف إلى رحالهم ، فقال له سعد بن عبادة :
والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيفنا .
فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم تؤمر بذلك^(١) ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . فرجعوا إليها .
وأحست قريش الأمر فغدت على الأنصار تسائلها عما علمت ، وتقول :
إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ،
وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب
بيننا وبينهم منكم .

ولما كان مشركو أهل يثرب لا علم عندهم بما حدث فقد أخذوا يحلفون لمشركي
قريش أنه ما كان من هذا شيء .

ونفر الناس من منى ، واستيقنت قريش صحة الخبر ، فخرجوا في طلب الأنصار

(١) لم يكن الله قد شرع حتى الآن محاربة المشركين .

فقاتوهم ولم يلحقوا إلا اثنين منهم : سعد بن عباد ، والمندر بن عمرو . فأما المنذر فإنه نجا منهم ، وأما سعد فإنهم أخذوه فربطوا يديه إلى عنقه ، وأخذوا يضر بونه ويحبذونه من شعره ، حتى هتف باسم جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية لأنه كان يحير تجارتها بيثرب ، فجاء إليه واستخلصاه من القوم ، ومكانه من اللحاق بقومه .

شرعية القتال

مضت الدعوة الإسلامية حتى الآن على العرض المسلم والإقناع بالحسنى ، ولذلك أسباب : منها أن شأن أية دعوة في أول نشأتها ينبغي أن يكون هكذا جريا على سنة الطبيعة ، ولأن الدعوة بالحسنى يجب أن يكون لها الأولوية ، فإن استجاب لها المدعوون إليها فيها ونعمت ، أما إذا كذبوها وشفعوا التكذيب بإلحاق الأذى بصاحب الدعوة ومن اتبعه ، فإن التطور الطبيعي يقتضى تغيير الأسلوب ، عملا على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وسعيًا إلى نشر كلمة الله ونسخ كلمة الشيطان المثلة في عبادة الأصنام والأوثان وترويج الإفك والبهتان .

ويأتى بعد ذلك في ترتيب الأسباب الموجبة لتغيير أسلوب المسألة فيما يتعلق بمشركى قريش خاصة ومشركى العرب عامة ، أن هؤلاء الناس كانوا من غلظ الأكباد وتحجر النفوس وعى البصائر بحيث لا تجدى معهم الحجة الواضحة ، ولا يفيد معهم البرهان القاطع ، وقد استنفد معهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل ما يهدى إليه العقل من وسائل الإقناع ، وضروب التبصير ، ولكنهم كانوا كلما خطف أبصارهم سنى الحجة ، ازدادوا عمى ، وكلما سطع البرهان ، أمعنوا في الضلالة . ولما كان لا بد لكلمة الله من أن تلو ، ولا مناص لدينه من أن يسمو ، فقد شرع القتال وأحل الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يحطم الأصنام وعبدتها ، ويزيل الأوثان وسدتها ، ويستبدل بلغة المسألة التى لم تعقلها قريش لغة القوة التى التزمته من أول يوم ، وامتنحت بها المسلمين الأولين امتحانًا شديدًا فجعلتهم بين معذب يغاديه العذاب ويرأوحوه كل يوم ، وبين مشرد فى رءوس الجبال ،

أو مستخف لا يقر له قرار ، أو مهاجر إلى الحبشة ، أو هائم على وجهه لا يدري ولا يعلم أين المصير .

حصار الرسول بمكة

وكانت قريش حين تسربت إليها أنباء الحلف الذي عقد الرسول عليه الصلاة والسلام مع الأنصار قد رت العواقب المنتظرة لهذا العمل الخطير ، فعملت على مضاعفة الأذى بالمسلمين ، وضربت على النبي صلى الله عليه وسلم حصارا شديدا ، وراقبت حركاته مراقبة دقيقة ، حتى لا يلحق بالمدينة ، وتكون له العزة بالتفاف الأنصار حوله ، لأنها كانت تعلم حق العلم تدرس الأنصار بالحرب وولعهم بالقتال ، وكيف أنهم قوة لا يستهان بها وعصبية يحسب حسابها .

وعلى رأس هذه الأحوال المؤذنة بالتطور ، شرع الله لنبيه القتال فأنزل عليه :
 « أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .
 الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .
 الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^(١) » .

وقوله تعالى :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينَ كُلُّهُ لِلَّهِ ^(٢) » .

الهجرة إلى المدينة

فلما أذن الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام في الحرب وبايعه هذا الحى من

الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه بمكة أن يهاجروا إلى المدينة ، ويلحقوا بإخوانهم من الأنصار وقال :
إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها .
فخرجوا أرسلاً^(١) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج منها والهجرة إلى المدينة .

المهاجرون الأولون إلى المدينة

وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام : أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومي واسمه عبد الله ، ولما علمت عشيرة زوجته بعزمه على الخروج اعترضوه وقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتك هذه ؟ علام نترك تسير بها في البلاد ؟ ثم أخذوها منه عنوة ومعها طفلها منه ، فغضبت عشيرته للطفل وقالوا لا ندع ابننا عندها ، فأخذوه منها ؛ فكانت في مكان ، وطفلها في مكان ، وزوجها في مكان بعيد .

ثم تابعت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وهاجر كثير من أهل الدار الواحدة حتى خلت من أصحابها وأقفلت . وقد حدث أن مر بدار بني جحش ، بعد أن هاجر أصحابها ، عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ، فنظر إليها عتبة تحفق أبوابها يباباً^(٢) ، ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ، وتمثل بقول الشاعر :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحب^(٣)

ثم قال : أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل : هذا عمل ابن أخي هذا — يشير إلى العباس بن عبد المطلب — فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطّع بيننا .

وهاجر عمر بن الخطاب وبصحبه عياش بن أبي ربيعة المخزومي إلى المدينة ، فتبع

(١) أرسالا : أي جماعة إثر جماعة .

(٢) يباب : القفر .

(٣) الحب : التوجع .

أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام عياشا إلى المدينة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأُمهما ، فاحتالا عليه حتى أخرجاه من المدينة ، ثم شدا وثاقه وأدخلاه مكة وهو على هذه الحالة النكراء ، ثم قالوا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاءكم كما فعلنا بسفِيننا هذا !

وهاجر إلى المدينة حمزة بن عبد المطلب ، والزبير بن العوام ، وزيد بن الخطاب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وجميع من لم يكن في حبس أو وثاق من المسلمين ، ولم يتخلف في مكة عن الهجرة إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب .

أما أبو بكر فإنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فلم يأذن له ، وقال له : « لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا »

وقد طمع أبو بكر أن يكون هو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة .

وأما علي بن أبي طالب ، فقد استبقاه الرسول عليه الصلاة والسلام لأمر مهم سيرد ذكره عند هجرة الرسول ، وليرد الودائع التي كانت قريش المشتركة تضعها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابها .

وقد كانت قريش على الرغم من تكذيبها الرسول في دعوته لا تعدل به أحدا في الأمانة عند ما تحتاج إلى أمين تودع عنده كرائم أموالها ونفائس مقتنياتها .

هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام

مؤامرة دار الندوة على قتله

أقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة بعد هجرة أصحابه إلى المدينة ينتظر الإذن من ربه بالهجرة ، ولم يكن يخفى عليه مبلغ ما هو عرضة له من الخطر وهو يقيم وحيدا تقريبا بين ظهراني أناس امتثلوا حقا عليه وضيقا به ، وخوفا منه ، ولكنه سلم أمره إلى الله واستعاذ به وهو خير معاذ ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وكانت قريش تعلم مبلغ الخطر الذي يتهدد كيانها بعد أن صارت للنبي صلى الله عليه وسلم شبيعة قوية تقوم لهم ، وتنهض بمنعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونصرة دعوته ، وتؤكد أمره ، ولم يكن يفوتها المعنى المستفاد من هجرة المسلمين إلى المدينة ، فقد استيقنت أن النبي صلى الله عليه وسلم يُعد العدة لحربها ، وأنه لا يني أن يلحق بأصحابه ، إن لم يكن اليوم فغدا ، وإذا تم له ذلك وقع ما كانوا يخشونه من محذور .

ولما مثلت أمام أعينهم هذه الحقائق اجتمعوا في دار الندوة ليتشاوروا في الأمر ، وكانوا حشداً تمثل فيه أشراف قريش من بني عبد شمس ، وبني نوفل ، وبني عبد الدار ، وبني أسد ، وبني مخزوم ، وبني سهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش . وقال بعضهم لبعض :

إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم ، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

فقال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهير والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

وفُئِدَ هذا الرأي بأنه إن حبس ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه ، إلى أصحابه فلا وشكوا أن يشبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ثم يكاثروكم به . حتى يغلبوكم ، على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره . فقال قائل :

نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت . فكان جواب هذا الاقتراح :

ما هذا لكم برأى . ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقته ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به . والله لو فعلتم ذلك ما أمتنم أن يحل على حي من العرب ،

فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يظاًكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ! قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل^(١) ففعلناه لهم . فقالوا جميعاً : هذا هو الرأي ، وتفرقوا وهم عليه مجموعون .

الله يعصم نبيه

فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

فلما أظلم الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم . قال لعلي ابن طالب :

نم على فراشي وتسبج ببردى هذا الحضرمي الأخضر فتم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذاك إذا نام .

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام ، فأخذ حفنة من تراب في يده فنثرها على رءوسهم وهو يتلو :

(١) العقل : الدية .

« يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ
الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

ولم يبق من القوم رجل إلا وضع الرسول على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث
أراد أن يذهب ، فأتى القوم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا
محمدًا ، قال خبيكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد
وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده
على رأسه ، فإذا عليه تراب !

ثم جعلوا يتطلعون من خلل الباب فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون :

والله إن هذا لحمد نأثم ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على
رضى الله عنه عن الفراش ، فقالوا : لقد صدقنا الذي حدثنا .
ثم سألوا علياً ، أين صاحبك ؟ قال : لا أدري ! أوقياً كنت عليه ؟ أمرتموه
بالخروج فخرج .

فاتمروه وضربوه وأخذوه إلى المسجد فخبسوه ساعة ثم تركوه .

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (١) .

وقوله عز وجل :

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ^(١) » .

الصاحبان في الغار

وأذن الله عز وجل لنبيه بالهجرة ، فأتى أبا بكر وأخبره بذلك وأنه صاحبه ، فبكى فرحاً ثم قال :

يا نبي الله : هاتان راحلتان ^(٢) ، قد كنت أعدتهما لهذا وعرض عليه خيرهما ، فأخذها النبي عليه الصلاة والسلام بثنهما قائلاً : لا أركب بغيراً ليس لي . فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة موله ليخدمهما في الطريق .

ولما خرجا وفد على بيت أبي بكر نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر ، فقالوا أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : لا أدري والله أين أبي ! فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدها لكمة طرحت قرطها !

وقصد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه إلى غار بجبل ثور وهو بأسفل مكة ودخل أبو بكر الغار قبل النبي عليه الصلاة والسلام لينظر أفيه سبع أو حية ليقى رسول الله بنفسه .

وكان من أسباب العناية الإلهية التي صرفت أبصار قريش حين خرجت تقتفي آثار الرسول عن هذا الغار ما كان يظهر عليه من إفقار ، فقد كان كل ما يحيط به من التقاف النباتات والأشجار الجبلية ووقوف الطير عليه ينبئ بأنه غير مطروق .

وفي الصحيح أن أبا بكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهما في الغار وكفار قريش يعاونونه : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! »

(١) الطور : ٣٠

(٢) الراحلة : ما يرحل عليه من الأبل .

ومكث الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، ثم أمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريهما عليهما إذا أمسى في الغار ؛ ليشربا من لبنها ويأكلا من لحمها . فإذا أصبح الصباح وعاد عبد الله بن أبي بكر إلى مكة أتبع عامر أثره بالغنم حتى يعنى عليه لئلا تقتفى قريش أثره ، ويعرفوا مكان الصاحبين .

فلما انقضت الأيام الثلاثة وسكن الناس غنهما ، أتاهما عبد الله بن الأرقط الذي استأجراه ليدلها على الطريق — وكان مشركا — ببيعيريهما وجاء معه ببيعير له ، ومضى بهم نحو المدينة سالكا بهم أسفل مكة ، ثم مضى بهم نحو الساحل ، متعرجا في طرق ومسالك شتى إمعاناً في التخفي والتستر .

مائة ناقة مكافأة لمن يرد الرسول

وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة مكافأة لمن يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وعلم سراقه بن مالك بن جُعشم من بني مدلج ثم من بني كنانة ، مكان الرسول وصاحبه ، فلحق بهما شاكي السلاح على فرس له ليردهما طمعاً في المكافأة ، فبينما فرسه يشتد به عثر فسقط عنه ، فعاد إلى ظهره وجرى به فرسه فعثر مرة أخرى فسقط عنه ، فعاد إلى ظهره وأتبع الركب حتى لاح له ، فعثر الفرس مرة ثالثة وسقط راكبه عنه وغاصت يدا الفرس في الأرض ، ثم انتزع الفرس يديه وتبعهما دخان كالإعصار ، فأدرك أن النبي صلى الله عليه وسلم منيع وأن أمره لا بد أن يظهر ، فنادى القوم ، فقال :

أنا سراقه بن جُعشم . انظروني أكلمكم ، فوالله لا أرييكم ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا ؟ فلما سألته

أبو بكر هذا السؤال ، قال :

تكتب إلى كتاباً يكون آية بيني وبينك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب له كتاباً^(١) في رقعة فأخذه ورجع ، وصار يرد كل قصاصي الأثر من قبل قريش ، ويقول : ما مر أحد بهذه الطريق .

وانطلق الرسول وصاحبه متجهين إلى المدينة فبلغاها لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ووافق ذلك يوم الاثنين ، وكان الوصول حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل ، وقد استغرقت الرحلة من وقت الخروج من الغار حتى الوصول إلى المدينة اثني عشر يوماً .

وكانت إقامة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة من البعثة إلى الهجرة ثلاثة عشر عاماً .

مقدم الرسول إلى المدينة

وتابع الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه طريقه إلى المدينة ، وقبل أن يصلها لحق به بريدة بن الحصيَّب الأسامي في نفر معه وكان ممن خرج أثر الرسول طمعاً في المسكافة التي جعلتها قريش فيمن يرد إليه ، وكان لا يعرف الرسول بشخصه ، فسأله الرسول : من أنت ؟ فقال : بريدة بن الحصيَّب ، فالتفت النبي إلى أبي بكر ، وقال : يا أبا بكر ، برد أمرنا وصلح ، ثم قال لبريدة : ممن أنت ؟ قال : من أسلم . قال : سلمنا ، فقال بريدة : من أنت ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله .

وكان أن نزلت كلمات الرسول عليه الصلاة والسلام برداً وسلاماً على قلب بريدة فشرح الله صدره للإسلام ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأسلم جميع من معه وكانوا سبعين رجلاً .

(١) وقد اتى سزاقة بن مالك النبي صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من حنين وأبرز كتابه ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذا يوم وفاء وبر ، وأسلم سزاقة يومذاك وأجزل الرسول عطاءه وكان مما بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام سزاقة أنه سيلبس سوارى كسرى ، فلما فتح الله فارس على الساميين في خلافة عمر بن الخطاب وجيء له بكنوز كسرى ومن بينها سواراه دعا سزاقة وألبسه إياها .

وسار بريدة وأصحابه في ركب الرسول ، فلما أشرفوا على المدينة نزع بريدة عمامته واتخذ منها لواء ، واتفق في هذا الوقت أن التقى الرسول عليه الصلاة والسلام بركب من المسلمين قادمين من الشام في تجارة وبينهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، فكسا الزبير الرسول وأبا بكر ثيابا بيضا .

وكان الأنصار لما سمعوا بخروج النبي عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجراً إليهم يخرجون كل يوم في انتظاره إلى ظاهر المدينة ولا يرحلون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى بيوتهم .

وحدث في اليوم الذي قدم فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وبعد أن انصرف الأنصار أن صعد أحد يهود يثرب إلى أطم^(١) له فرآى الرسول وصحبه وعلم أنهم الذين ينتظرهم الأنصار كل يوم ، فصاح : يا بني قيلة^(٢) ، هذا جدكم^(٣) الذي تنتظرون ؟

فثار الأنصار إلى السلاح ، ووافوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو نائم في ظل نخلة وأبو بكر إلى جانبه فلما تحول الظل عن الرسول راح هو يظله بردائه ، ولما استيقظ حنّ به الأنصار وأخذوا يحيونه أبلغ التحيات وأكرمها ، ثم قالوا لهما : ادخلا آمنين مطمئنين .

وسار الرسول وصحبه من الأنصار والمهاجرين حتى بلغ قباء^(٤) فنزل على بني عمرو ابن عوف في دار كلثوم بن الهدم رئيسهم ، وذلك في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول .

واتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام من دار سعد بن خيثمة مكاناً يجتمع فيه بأصحابه ويتحدث إليهم لأنه كان عزاباً وكان منزله يسمى منزل العزاب ، ونزل أبو بكر على حبيب بن أبي أساف بالسُّنْح .

(١) الأطم : المكان المرتفع .

(٢) قيلة : اسم جدة الأنصار .

(٣) جدكم : أي حفظكم .

(٤) قباء : مكان بأعلى المدينة .

يوم الاثنين

يوم الأيام في حياة الرسول

وكان مقدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، يوم الاثنين .
وقد ولد النبي يوم الاثنين ، واستُئنيَّ يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة حين أعادت قريش بناءها يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين ؛ فجميع العظام التي احتوتها حياة الرسول الكريم وافقت يوم الاثنين ، فهو بهذه المكارم يوم الأيام وأشرفها قدراً لما اتفق فيه من الأحداث المباركة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام

المسجد الذي أسس على التقوى

وأقام النبي عليه الصلاة والسلام بقاء أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وبني أثناء ذلك مسجد بقاء الذي أسس على التقوى ، وهو أول مسجد بني في الإسلام وابتنى لعموم المسلمين ، وقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يختلف إلى هذا المسجد ويأتيه ماشياً وراكباً ويصلي فيه طوال حياته الشريفة .

خلوا سبيلها فإنها مأمورة

وحين ارتفع النهار من يوم الجمعة برح الرسول عليه الصلاة والسلام قباء قاصداً إلى المدينة وسار الناس معه ما بين ماش وراكب وهم يتنازعون زمام ناقته تعظيماً له وتكريماً وهو يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ولم تكن الناقة تمر بدار إلا ويمسك أهلها بزمامها يريدون منه أن ينزل عليهم ويعددون ما لديهم من عز ومنعة وبأس وقوة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يكرر دائماً عبارته التي أسلفنا ذكرها ، وما زالت الناقة سائرة حتى بلغت محلة بنى النجار أخوال عبدالمطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام فبركت في مرَبْد لغلّامين يتيمين من بنى النجار في حجر معاذ بن عفراء واسمهما : سهيل وسهيل ابنا عمر ، وعادت الناقة فاستوت قائمة والرسول ما يزال على ظهرها فسارت غير بعيد

وهو مرخ لها الزمام ، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مبركها أول مرة فأناخت به فنزل عنها الرسول : وقال : « رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنَزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ثم أردف قائلاً : هذا إن شاء الله يكون المنزل ، وأمر أن يحط رحله فأخذه أبو أيوب الأنصاري إلى منزله .

وخرجت جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف ابتهاجا بنزول الرسول بينهم وما حازوه من الشرف بسبب هذه الخصوصية ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبيذا محمد من جار !
فخرج إليهن الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أتحيبنني ؟ قلن : نعم يا رسول الله !
قال : وأنا والله أحبكن .

بناء المسجد والمسكن

ومكث الرسول عليه الصلاة والسلام بمنزل أبي أيوب الأنصاري زهاء عام ابتنى فيه مسجده ومسكنه ، وذلك في المكان الذي أناخت به ناقته . وقد أراد وصي اليتيمين أن يهبه للرسول ويعوض صاحبيه من ماله ولكن الرسول أبي ذلك ودفع لهما عشرة دنانير من مال أبي بكر ثمناً له .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام ينقل الحجارة بنفسه مع أصحابه حتى اغبر صدره وهو يقول :

اللهم إني الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
وكان طول البناء سبعة أذرع وعلى سقفه يسير من الطين لا يمنع المطر من التسرب . وقد ورد في الآثار أن الأنصار بعد ذلك جمعوا مالا لبناء مسجد مزين فأبى الرسول قبوله وظل مسجده كما هو .

وبنى مسكنان للرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار المسجد من حجارة وجريد مطين بالطين أحدهما لأم المؤمنين سودة بنت زمعة وثانيهما لأم المؤمنين عائشة لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن متزوجاً بغيرها حينئذ ، ثم كانت العادة أن يبنى مسكن جديد على هذا النحو كلما زيدت إلى أمهات المؤمنين أم جديدة .

التاريخ الهجرى

لم يكن التاريخ ، بمعناه المتعارف عليه اليوم ، معروفا عند العرب ؛ إنما كانوا يعمدون إلى حادث من الحوادث ذات الوقع فى نفوسهم فيتخذونه تاريخا يسندون إليه الوقائع على وجه التقريب ، فيقولون حدث هذا على مضى سنتين أو خمس من حادث الفيل مثلا . وحادث غزو الحبشة مكة لهدم البيت ومعهم الفيل كان آخر الأحداث التى أرّخت بها قریش .

ولما هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة أرّخ المسلمون بعام هجرته ، مقرين أن هذه الهجرة كانت أهم الحوادث أثرا فى نشر الدين وتثبيت قدم المسلمين .

وهناك خلاف بين المؤرخين على الوقت الذى ابتدأ فيه التاريخ بالهجرة ؛ فبعض المؤرخين يذهب إلى أن ذلك قد حدث على عهد الرسول عليه السلام وبأمره ، وبعضهم - وهو الأكثر والأرجح - يذهب إلى أن ذلك قد حدث على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ؛ فقد شكّا إليه بعض أمرائه من أنهم يتلقون منه كتباً لا يعرفون وقتها فتفتوت على المسامين مصالحهم بسبب هذا اللبس ، فكان أن اتخذ عمر بن الخطاب الهجرة أساساً للتاريخ الإسلامى .

ومع أن مقدم النبى عليه السلام إلى المدينة كان فى شهر ربيع الأول وكان المنطق يقضى بجعل هذا الشهر أول شهور السنة ، آثر المسلمون أن يجعلوا شهر المحرم أول السنة لأنه منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام .

السنة الأولى الهجرية

تبدأ حوادث هذه السنة بهجرة الرسول عليه السلام ومقدمه إلى المدينة واستقبال الأنصار إياه وحفاوتهم العظيمة به ، وتنافسهم فى استضافته .

وقفه مريحة على أطلال عهد بائد

لا يسع الإنسان وهو يتتبع مراحل حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلا أن يقف عندهذه المرحلة وقفه يزجي فيها الشكر إلى المولى عز وجل ، أن أخرجه من وسط الكفر المطبق والشرك المرهق ، والفساد المودى بصاحبه ، والغرور المتلف لراكبه ، وأحله دار صدق وإخاء ، وموطن عز وإباء ، بين أصحاب ملاء الإيمان قلوبهم ، وعمرت التقوى نفوسهم ، وأشربوا حب الرسول فهو يجري في دمائهم ويخالط أفئدتهم ، ويقع منهم موقع الروح من الجسد ، ويعدل عندهم الحياة أو يزيد عليها .

لقد كنت وأنا أكتب أهواء المرحلة الأخيرة لإقامة الرسول عليه السلام بمكة يكاد قلبي ينفطر حزناً على ما لاقاه الرسول من كفار قریش من الكيد والأذى والتكذيب والاستهزاء ، وما هموا به من العدوان على حياته ، وكيف أحكموا التندير وأعدوا العدة ؛ ولكنهم مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

لقد كان الصحابة على حق حين أرخوا بالهجرة إذ اعتبروها أكبر الأحداث في تاريخ الإسلام ، وهى كذلك حقاً ، فقبل الهجرة كانت الدعوة الإسلامية ضعيفة خافتة لا تكاد تُسمع ، وكان المسلمون مستضعفين ، ينكل بهم ويشردون في الآفاق ، ويعرضون لجميع أنواع العذاب والاضطهاد ، أما في المدينة فقد أخذت الدعوة تدوى وتجلجل ، وراح المسلمون من المهاجرين والأنصار يهللون ويكبرون ، ويرفعون أصواتهم بالأذان وهم أحرار طلقاء ، سادة كرماء ، آمنين على أنفسهم ، مطمئنين إلى أنهم لن يعترضهم معترض ، ولن يعاقبوا على أن يجهروا بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولسنا نرشح بهذا القول إلى أن المدينة قد خلت من أعداء للإسلام ، ولا أن متاعب الرسالة قد انتهت وتكاليفها قد أدت ، فليس هذا من الحق في شيء ، ولا كان من قصدنا ونحن نسطر الأسطر السابقة ؛ إنما أردنا أن نشير إلى التغيير الذى

حدث ، ونسجل الفروق الكبيرة بين ما كانت عليه حال الدعوة الإسلامية وبين ما صارت إليه ، مع التنبيه إلى اختلاف الحال ، وتباين الوسائل ، ومع التذكير بأن الجهاد من مستلزمات الدعوة لا يفارقها بحال من الأحوال ، ولكن صورته تختلف باختلاف الزمان والمكان .

كان عداء قريش للرسول عداء لا يشفيه إلا قتل الرسول عليه السلام وطمس دعوته ومحو أثر الإسلام ، أما العداء الذى استقبل الرسول بالمدينة فكان من نوع آخر ، وقد استغل به فريقان : فريق الأوس والخزرج الذين كبر عليهم أن يسلبهم الرسول ما كان لهم من حقوق الرياسة على قومهم قبل مقدمه ، فبعضهم هاجر من المدينة والتحق بقريش ، وبعضهم ظل فيها ونافق فأظهر الإسلام واستبطن الكفر والعداء ، وفريق اليهود المقيمين بجوار المدينة أو بعيد منها ، فقد حسدوا النبي على مكائنه من الأنصار ، وخشوا أن ينتشر الإسلام فيغلب دينهم ، فحاربوه بالدهس والكيد ومناقضة ما يوحى إليه به . وسيرد نبأ ذلك كله مفصلاً فى مكانه من هذا الكتاب ، إن شاء الله .

الامة الإسلامية

قدم النبي عليه السلام إلى المدينة والأنصار قد ائتلفوا بعد شقاق ، واتحدوا إثر حروب أفعمت قلوبهم بالضغينة ، وأشاعت فى نفوسهم البغضاء ، وقد كانت الحال التى انتقلوا إليها ببركة الإسلام إحدى المعجزات الكبيرة التى تحققت على يد المصطفى عليه السلام .

وقد شرع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الساعة الأولى ، فى إنشاء الأمة الإسلامية ، فألف بين المهاجرين والأنصار ، وأخى بين الفريقين فى الله ، فقال : تأخوا أخوين أخوين ، ليزيل من نفوس المهاجرين أثر غربتهم عن ديارهم ، وليعجل بامتزاج الفريقين بعضهم ببعض ، وقد استعملت القرعة فى التأخى بين الفريقين .

عهد جديد

كان أمر اليهود في المدينة عظيماً لا ينبغي أن يهمل شأنه، وقد مضت سنة الأوس والخزرج على أن يتحالف كل فريق منهم مع فريق من اليهود للاستعانة بهم في الحروب التي كانت تنشب بينهم دائماً قبل الإسلام ، فلما جاء الرسول وهذه السنة قائمة لم يشأ أن يخالفها ، بل عمل على تنسيقها لتلائم العهد الجديد ، فكتب كتاباً وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد تضمن هذا الكتاب مبادئ خطيرة وتعاليم بعيدة الأثر ؛ ذلك أنه نص على أن المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة .

وأن المؤمنين يكونون يداً واحدة على من بغى منهم ولو كان ولد أحدهم .

وأن ذمة الله واحدة يحير عليها أدناهم .

وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأن من تبعنا من يهود فإن له من النصر والأسوة ما للمسلمين .

وأن سلم المؤمنين واحدة .

وأن المؤمنين مهما اختلفوا في شيء فمرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن اليهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم .

هذا بعض ما تضمنه هذا الكتاب الكريم من أسس قامت عليها الدولة الإسلامية . وأظهر ما فيها هو العمل على تنظيم الأمة وتكوين الجماعة ، وإقامة الحكومة ؛ فقد نص أكثر من مرة في هذا الكتاب على أن مرد كل خلاف إلى الله ورسوله ، يحكم فيما شجر بين الناس من نزاع وما استحكم بينهم من شقاق .

خطب الرسول

وأخذ الرسول يوالى الخطابة فى الأمة الإسلامية ، وكانت المعانى التى تدور خطبه عليها أول الأمر ، دائرة حول التذكير بالله والتخويف من عقابه والتأميل فى ثوابه ، وحث المؤمنين على البر والتعاون فيما بينهم ، يقول صلى الله عليه وسلم فى إحدى خطبه : فمن استطاع أن يبق وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فى كلمة طيبة ؛ فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعةائة ضعف .

تشريع الأذان

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحکم الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام .

وقد كان الناس يجتمعون للصلاة لحين مواعيتها بغير دعوة ، ولم يكن هناك شىء ينبه إلى هذه المواقيت ، ففكر بعضهم فى اتخاذ الأبواق أو النواقيس ولكنهم كرهوا أن يتشبهوا باليهود أو النصارى ، فشرع الله الأذان وكان أول من رفع صوته به بلال .

كيد اليهود للرسول عليه السلام

لم يطق اليهود رؤية النبي عليه الصلاة والسلام على رأس الأنصار والمهاجرين ، يوحى إليه من الله ، ويزداد أتباعه يوماً بعد يوم ، وتستقر على يديه الحال بين الأوس والخزرج ، وتنفذ إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية : تؤمن به فتزداد دعوته انتشاراً ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا — أقول لم يطق اليهود رؤية هذا كله وأكثر منه يقع تحت أنظارهم ويحرق أسماعهم ويتهدد زعامتهم الفكرية — باعتبارهم أهل كتاب — على من حولهم ، فهبوا للعمل على الكيد لرسول الله ، على الرغم من أنهم يعلمون أنه النبي المرسل ، وأنه النبي العربى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، يجدونه مكتوباً عندهم ، ويعرفونه بسيماهم وشمالهم وبذاته وفضائله . ولا غرو أن يفعل

اليهود هذا بالنبي الأُمى الأمين ، فقد فعل أجدادهم ما هو شر منه بأنبيائهم ؛ ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

وقد استعان اليهود في كيدهم الرسول بنفر من الأنصار من أهل النفاق ، أسلموا ظاهراً وأسرُوا الكفر خوفاً من الجماعة ؛ فكان هؤلاء النفر يسمعون ما أنزل الله على رسوله ويحفظون حديث رسول الله ، وينقلون هذا وذاك إلى اليهود ، فيتداوله أخبارهم الذين أعماهم الحقد وأضلهم الحسد ، فيحرّفونه عن مواضعه ، ويتأولونه تأويلاً كاذباً ، ويعلقون عليه بما يخيل أنه ليس من عند الله ولا هو من طبائع النبوة .

وقد كثر حجاج اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعارضتهم إياه ، وكان القرآن ينزل تباعاً في الرد على مما حُكِيَ اليهود وتفنيد حججهم وتسفيه أباطيلهم ، مستدلاً على ذلك بما هو ثابت في التوراة التي بين أيديهم مما لا يعلمه غيرهم ؛ إذ كان اليهود يحرصون دائماً على عدم تداول كتبهم الدينية في غير أوساطهم ، وقد نزل في اليهود ومن إليهم من المنافقين صدر سورة البقرة حتى الآية المائة منها .

ولم يكن اليهود كلهم على هذه الشاكلة من العناد واللجاجة ، بل كان من أخبارهم الكبار من شرح الله صدره للإسلام ، فأسلم وآمن وأصبح حجة لله ورسوله على سائر الأخبار الذين عرفوا من صدق محمد ما عرف ، ولكن غلبت عليهم الشقاوة فباءوا بالخسران المبين

إسلام عبد الله بن سلام

ونذكر على سبيل المثال اثنين من أخبار اليهود الذين آمنوا بالله ورسوله ، وكان لإيمانهم قصصٌ يحكى وعبرٌ تذكر .

فأما أولهم فهو عبد الله بن سلام ، وسندع القول له يروى قصة إسلامه ، قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوَكَّفُ^(١) له ، فكنت مُسرّاً لذلك ، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله

(١) تتوَكَّف : أى : تتوقع وتترقب

عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدمه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعتُ الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى :

خبيك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت !

فقلت لها : أى عمّة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبي الذي كنا نُخبرُ أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

فقلت لها : نعم !

فقالت : فذاك إذن !

ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا .

وكنمت إسلامي من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا رسول الله ، إن يهود قوم بهت^(١) وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ودخلوا عليه ، فكلّموه وساءلوه ، ثم قال لهم :

أى رجل الحصين^(٢) بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم :

(١) البهت : الباطل . (٢) اسمه قبل الإسلام .

يامعشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه .

فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بي .

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهتٌ ، أهل غدر وكذب وفجور ! فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها .

إسلام مُخَيَّرِيق

وكان من حديث مخيريق أنه كان حَبْرًا عالماً من أبحار اليهود وعلمائها ، وكان إلى ذلك ، رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه ، ولكن غلب عليه إلفُ دينه ، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد ، وكان هذا اليوم يوافق يوم السبت ، قال :

يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصرَ محمد عليكم لحق .

قالوا : إن اليوم يوم السبت ^(١) .

قال : لاسبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه بقوله :

إن قتلت هذا اليوم فأموالي لحمد ، يصنع فيها ما أَرَادَهُ الله .

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

مُخَيَّرِيقٌ خير يهود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامّة صدقاته عليه السلام بالمدينة منها .

(١) يشيرون إلى أن هذا اليوم يوم لا يزال اليهود فيه عملاً .

وقية اليهود بين الأوس والخزرج

ولما رأى اليهود أمر الله ماضياً قَدْماً في الظهور ، وأحزنهم مارأوا من التفاف الأنصار حول الرسول ونسيانهم ما كان بينهم وبين بعض من العداوة المدمرة في الجاهلية ، أرادوا أن يفتنوه عن دينهم بنش الماضي وتحريك ماسكن من الأحقاد ، فحدث أن مرَّ شاس بن قيس — وهو من رؤساء اليهود ، وكان شيخاً قد أسن ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين — بنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فعاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملاً بنى قبيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال له :

اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعث^(١) ، وما كان قبله ، وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ما أمر به ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب فتناولوا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها جَدَعَةً .

فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة^(٢) ، فخرجوا إليها ! وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

يامعشر المسلمين ، الله الله ، أَدْعَوِي الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هذاكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وآلف به بين قلوبكم ؟ !

(١) بعث : اسم يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل بيعة العقبة الأولى بعام وكان النصر فيه للأوس .

(٢) الظاهرة : اسم حرة المدينة : مكان منبسط بظاهرها فيه حجارة سوداء .

فلما سمع الفريقان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفوا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين .

وفد نجران وأمر المباهلة

ولم يقف النصراني بعيداً عن هذه الحلبة ، فقد أهتمهم ما أهتم اليهود من ظهور الإسلام وانتشاره بين العرب ، فقدم وفد من نصارى نجران ينتظم ستين من خيرهم ، وعلى رأسهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه : عبد المسيح .

والسيد ، ثملهم^(١) وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه : الأيهم .
وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بني بكر بن وائل ، أسقفهم وحرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم .

وكان أبو حارثة هذا ، قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، حتى حسن علمه في دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

ودخل هذا الوفد على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجده ، وتكلم علماءهم في أصول عقيدتهم القائمة على التثليث ، فأنزل الله على رسوله الكريم :
« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

ثم استشرى جدلهم وتتابع محالهم ، فأنزل الله على نبيه الأمين في اختلاف أمرهم كله ، صدر سورة آل عمران ، مؤكداً فيه وحدانيته ، راداً على ما ابتدعه من كفر ، مبيناً حقيقة نبيه عيسى بن مريم عليه السلام ، وما أمدد الله به من آيات لإثبات نبوته ،

(١) ثمال القوم : أصلهم الذي يرجعون إليه .

ثم رخص الله لنبيه الكريم في مباهاة^(١) هذا الوفد قطعاً لحجته ودحضاً لكلمته ،
فقال عز وجل :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ
عَلَى الْكَاذِبِينَ^(٢) . »

فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله الفصل في القضاء بينه وبينهم ،
وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن لجوا في عنادهم ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا له :
يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ،
فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا :
يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً كَنِيَّ مُرْسَل ، ولقد جاءكم
بالفصل من خبر صاحبكم^(٣) ، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبيا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت
صغيرهم ، وأنه للإِسْتِصَال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد آيتم إلا إلف دينكم
والإقامة على ما آتم عليه من القول في صاحبكم ، فودعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم
فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ،
ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من
أموالنا ؛ فانكم عندنا رضاء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
اثتوتى العشية أبعت معكم القوى الأمين .

(١) المباهاة هنا : الملاءمة ، ومن معانيها الاجتهاد في الدماء .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) يشير بالصاحب إلى السيد المسيح عليه السلام .

قال عمر بن الخطاب يحدث فيما بعد :

ما أحببت الإمارة قط حبي أياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرا ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة ابن الجراح ، فدعاه فقال :

أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة وقد سمى أبو عبيدة باسم « أمين هذه الأمة » من ذلك اليوم .

وقال عمر بن الخطاب وهو يحتضر حين سئل من يولي من بعده :

لو كان أبو عبيدة بن الجراح — حياً لاستشرته ؛ فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه بأنه أمين هذه الأمة .

رأس المنافقين

وقد لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقا شديداً من المنافقين ، الذين أظهروا الإسلام واستبطنوا الكفر ، إذا كان اظهروا الإسلام يعصمهم مما شرعه الدين في معاملة الكفار ، وكانت هذه العصمة لهم سلاحاً أساءوا استعماله ، وأمعنوا في ابتذاله . وكان رأس المنافقين ، عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قد ساد قومه حتى شرعوا في تنويجه ملكاً عليهم ، فلما أنعم الله على الأنصار بالإسلام ، انصرفوا عنه والتفتوا حول الرسول عليه السلام ؛ فغمّ ذلك وملاءة حقداً على النبي الأمين ، وقد أبطأت به حاله هذه عن الدخول في الإسلام ولم يُسلم ظاهراً إلا بعد أن أسلم سائر الناس ، فرأى أن يدخل فيما دخلوا فيه نفاقاً ، وظل على حسده الرسول وبغضه الإسلام ، ومظاهرتة كل من حاول الكيد لله ولرسوله والمؤمنين إلى أن مات في السنة التاسعة الهجرية .

أحداث سياسية واجتماعية

من الأحداث التي وقعت في السنة الأولى فوق ما قدمنا :

البناء بعائشة

في هذه السنة بنى النبي عليه الصلاة والسلام بالسيدة عائشة ، وقد قدمنا طرفاً من الحديث عنها عند ذكر عقد قرانه عليها ، ويسرنا أن نسجل في هذا المقام بعض خصائصها نقلاً عنها من رواية الطبري ، قال :

(قالت عائشة لأحد محارمها : يافلان ، أسمعت حديث حفصة ؟ فقال وما ذاك ؟ قالت : خلال فيّ تسع لم تكن في أحد من النساء إلا ما أتى الله مريم بنت عمران ، والله ما أقول هذا فخرًا على أحد من صواحي . قال لها : وما هو ؟ قالت :

نزل الملك بصورتي ، وتزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبع سنين ، وأهديت إليّ تسع سنين ، وتزوجني بكرًا لم يشركه فيّ أحد من الناس ، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لحاف واحد ، وكنت من أحب الناس إليه ، ونزلت في آية من القرآن كادت الأمة أن تهلك ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري ، وقبض في منزلي لم يله أحد غير الملك وأنا .

استقدام آل الرسول من مكة

وبعث النبي عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيّا بآله فيها وهم : بنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وزوجه سودة بنت زمعة ، أما زينب بنت الرسول فقد أبى زوجها أبو العاص بن الربيع أن يرسلها مع بقية أهل البيت إلى أبيها .

قدوم آل أبي بكر

وقدم مع آل الرسول آل أبي بكر ، يصحبهم عبد الله بن أبي بكر ، وعائشة

وأسماء أختاه ، وأم رومان زوج أبي بكر ، وقد صحب آل أبي بكر كذلك طلحة بن عبيد الله .

أول مولود بعد الهجرة

وكانت أسماء بنت أبي بكر زوجاً للزبير بن العوام ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله بن الزبير حين قدمت المدينة وقد وضعت بعد مقدمها بشهر ؛ فكان أول مولود ولد من أبناء المهاجرين بالمدينة بعد هجرة الرسول إليها .

أول ميت بعد الهجرة

وكان أول من توفي من المسلمين بالمدينة بعد الهجرة كلثوم بن الهدم ، الذي نزل الرسول عليه الصلاة والسلام عليه .

ثم توفي بعده أسعد بن زرارة ذو اليد البيضاء في نشر الإسلام ، بين الأنصار ، وصاحب القصة التي نشرناها قبلاً بشأن إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير .

وكان أسعد أحد النقباء الذين اختيروا ببيعة العقبة الثانية ، فلما توفي جاء قومه من بني النجار إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون إليه أن يختار من بينهم نقيباً يحل محل أسعد ، فكره عليه الصلاة والسلام أن يختار واحداً فيدخل في نفوس الآخرين شيء ، فقال لهم : أنتم أخوالي وأنا نقيبكم ، فسروا بهذا الحل وعدوه من مفاخرهم ، فكانوا يقولون : أن نقيبنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفيها توفي من المسلمين المهاجرين عثمان بن مظعون ، أخو النبي عليه الصلاة والسلام من الرضاع . ولما دفن أمر الرسول برش قبره ، ووضع عليه حجراً ليميزه به ، ويدفن إليه من مات من أهله .

هلكي قریش

وهلك من قریش هذا العام : الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد وأحد طغاة المشركين ، وفيها هلك أبو أحيحة سعيد بن العاص والعاص بن وائل السهمي أبو عمرو بن العاص .

سلمان الفارسي

تاريخه وإسلامه

كان سلمان الفارسي من أبناء دهاقين الفرس بأصبهان ، وكان أبوه يحبه حباً جماً حتى إنه كان يحبسه في البيت كما تحبس الفتيات خشية عليه . وفي يوم من الأيام كلفه الذهاب إلى ضيعته ، فمر في طريقه بكنيسة لبعض النصارى ، فسمعهم يترنمون بالأنشيد فأعجبته ، ودخل الكنيسة وعرف ما هو دين النصرانية وفضله على عبادة النار ، فخرج حتى أتى الشام وسأل عن أفضل أهل هذا الدين ، فذللّ على رجل ولكنه لم يحمده لأنه كان يكتنز أموال الصدقات ولا يعطيها الفقراء ، ثم عثر برجل صالح أرضاه خلقه وزهده ، فلما مات الرجل الصالح أوصى بسلمان إلى رجل صالح مثله .

واطرّد الأمر هكذا : كل رجل صالح يموت يوصى بسلمان إلى أخ له في الصلاح ، إلى أن كان آخرهم ، فقال له : يا سلمان لست أجِد من أرضي بأن أوصي بك إليه ، ولكنه قد أظَل زمان نبي من العرب مهجره إلى أرض بين حريتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة .

وكان سلمان قد أصبح ذا مال فمر به جماعة من العرب ، فساومهم على أن يعطيهم ماله ويأخذوه معهم إلى بلاد العرب ، فرضوا بذلك ولكنهم غدروا به ، فلما توسطوا بلادهم باعوه عبداً رقيقاً ، وقلّبه الرق بين الأيدي المختلفة حتى آل أمره إلى رجل من يهود المدينة ؛ فبينما هو يعمل ذات يوم مع سيده فوق نخلة إذ جاء يهودي آخر فأخبر الأول باجتماع الأنصار بقاء على رجل اسمه محمد يزعمون أنه نبي .

فذهب سلمان إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأعطاه شيئاً من طعام تصدق به على أصحابه الفقراء ، فأعطاه النبي لهم ولم يأكل منه شيئاً .

وجاء يوماً آخر بشيء من طعام فأهداه إليه ، فأكل منه هو وأصحابه . وأراد سلمان التثبيت من خاتم النبوة ، فجاء من خلف ورأى الخاتم كما وصف

له ، فأكتب على يدي النبي صلى الله وسلم يقبلهما وهو يقول : أهلا بك يا رسول الله ، ثم قص عليه قصته من أولها إلى آخرها .

وأمره النبي عليه الصلاة والسلام أن يكتب صاحبها ، فكاتبه على عدد من النخل ووزن أربعمائة أوقية من الذهب .

فأوصى النبي الأنصار أن يعينوه بالنخل ، فأعانوه بما قدروا عليه ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل بيده في غرس النخل مشاركة في تحريره .

ثم أعطاه الذهب المقدر عليه ، وأصبح سلمان بفضل الله ورسوله حرا ، وقد تمت له حريته بعد أحد ، فكان أول مشهد شهده مع الرسول عليه الصلاة والسلام غزوة الأحزاب ؛ وهو الذي أشار بحفر الخندق . ثم لم يفته مشهد من مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك .

بدء الجهاد

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة منذ قدومه إليها مهاجرا بضعة أشهر مضى فيها كثيرا من مهام الأمور وعظائم الشئون ؛ فأنشأ مسجده وأقام مسكنه ، وأخى بين المهاجرين والأنصار ، مؤذنا بهذا العمل الجليل تكوين الأمة الإسلامية من هذين الفريقين ومن تابعهما بالدخول في الإسلام ، وحدد مركز المسلمين من يهود المدينة بعد أن أدرك مبلغ تشابك مصالحهم وعلاقاتهم بالأنصار ومالهم من الصلات المتوارثة منذ الجاهلية بهم ، فكتب العهد الذي نشرنا خلاصته قبلا .

وكان مما استقل به العام الأول للهجرة من الأعمال الجسام ، رسم أصول السياسة الإسلامية التي تسير عليها الأمة الجديدة في جميع النواحي والمذاهب : من دينية واجتماعية واقتصادية ، فكان الوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم بالتعاليم الواضحة ، وبيان ما أشكل على القوم من أمور ، وما غم عليهم من شئون .

ولما تم للرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد من هذا كله ، واستتب أمر الإسلام

بالمدينة ورسخت قدمه فيها ، شرع في تحقيق ما أمره به المولى عز وجل من قتل
« حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

وليس يخفى أن خروج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجرا لم يُنه
صلته بكفار قريش ، بل أولى من ذلك إن يقال أن مبارحته مكة كانت إيذانا بتحويل
هذه الصلاة إلى أسلوب جديد يقتضيه العمل على نشر الدعوة الإسلامية بالأسلوب
الذى تفهمه قريش .

كذلك كان لابد أن يشرع الرسول عليه الصلاة والسلام في العمل على ما من
شأنه أن يستخلص المسلمين الذين أكرهتهم قريش على البقاء بمكة ، وأخذت تسومهم
سوء العذاب ، وتمثل بهم أشنع تمثيل .

وكان واضحاً جداً أن لا سبيل إلى تحرير الدعوة الإسلامية وانتشار كلمة الله إلا إذا
أزاحت قريش من طريقها ؛ إذ كانت تضع يدها على الكعبة وهى تحجّ العرب ،
وتنتفسمومها ضد الإسلام بين الحجاج أثناء المواسم ، متخذة من استمساك العرب بما
ورثوه عن آبائهم من عادات ، وما يغلب على النفوس من التثبث بالأمر القائم ،
ذرائع تنصبها ضد الإسلام ، ووسائل تشعن بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
من أجل هذا كله أجمع الرسول أمره على مجاهدة قريش ، انصياعاً لأوامر الله ،
واتباعاً لما أمر به من الجهاد .

تجارة قريش

كانت قريش تعيش على التجارة ، وكانت الشام من أعظم الأقطار التى تتجر
معها ، ولما كانت طريق قريش إلى الشام تمر قريبا من المدينة فقد رأى الرسول
عليه الصلاة والسلام أن يحارب قريشاً بالاستيلاء على تجارتها ، والتعرض لها أثناء
ذهابها أو إيابها ، وكان من عادة قريش أن تحرس تجارتها بحرس مسلح يقوم به
أبنائها ومواليها .

سرية^(١) حمزة إلى سيف البحر

بعث النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من السنة الأولى حمزة بن عبد المطلب ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم أحد من الأنصار ، إلى سيف البحر من ناحية العيص ، ليعارض تجارة لقريش ، فلقى أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بين الفريقين ، مجديئ بن عمرو الجهني ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن بينهم قتال .

وكانت الراية التي عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام لحمزة أول راية عقدت في الإسلام .

سرية عبيدة بن الحارث

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال من السنة الأولى عبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين فحسب لملاحقة تجارة لقريش ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرأة ، ووجد عندها جمعاً كبيراً من قريش عليهم مكرز بن حفص ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعداً بن أبي وقاص ، أحد المسلمين الأولين ، رمى بسهم فكان أول سهم رمى به مسلم ، ثم انصرف الفريقان كل إلى سبيله .

وحدث حين تراءى الفريقان أن خرج المقداد بن عمرو البهراني ، وعتبة ابن غزوان من صفوف المشركين ، والتحقا بصقوف المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك وعجزا عن اللحاق بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فخرجا مع المشركين ليتوصلا بذلك إلى اللحاق بالمسلمين .

(١) السرية : هي جماعة من المقاتلين ، وقد اصطلح مؤرخو الإسلام على هذه التسمية ، أما الغزوة فإنما تكون بجيش كبير ويغلب أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام على رأسه .

السنة الثانية الهجرية

غزوة الأبواء^(١)

في أوائل السنة الثانية الهجرية بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن تجارة لقريش ستمر بطريق الشام ، فخرج إليها في جمع من أصحابه المهاجرين ليس بينهم أحد من الأنصار ، واستخلف على المدينة سعد بن عباد ، وأعطى لواءه لحمة بن عبد المطلب . وكان اللواء أبيض اللون .

ومضى الرسول بجيشه حتى بلغ ودان^(٢) فقاتته العير . وقد وادع في هذه الغزوة قبيلة ضمرة من بني كنانة على أن تكون مع المسلمين ويكون عليهم نصرتها إذا اعتدى عليها . وكانت هذه الغزوة أول غزوة خرج فيها الرسول بنفسه ولم يلق فيها كيداً .

غزوة بواط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة الثانية يريد قريشا ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، ومضى حتى بلغ بواط من ناحية رضوى . ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

غزوة العشيرة

وفي شهر جمادى الأولى من تلك السنة علم الرسول عليه الصلاة والسلام أن عيراً^(٣) لقريش متجهة إلى الشام ، جمعت كل أموالها ولم يبق بمكة قرشى ولا قرشية يملك مثقالا فصاعداً إلا بعث به في تلك العير ، وقد قدر ذلك بما يقرب من خمسين

(١) اسم قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

(٢) اسم قرية على طريق المدينة .

(٣) العير : القافلة .

ألف دينار ، وكانت التجارة محمولة على ألف بعير ، وقائد القافلة أبو سفيان بن حرب ومعه تسعة وثلاثون رجلا .

فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه مائتان من المهاجرين فحسب ، وحمل لواء حمزة بن عبد المطلب ، واستخلف الرسول على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وسلك الرسول نقب بني دينار ثم فَيَقَاءَ الْخَبَارِ ، فنزل تحت شجرة يبطحاء بن أزهر ، يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها قَتَمَ مسجده ، وصنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه .

ثم ارتحل النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل العُشَيْرَة من بطن ينبع ، وهناك علم أن العير قد مضت قبل ذلك بأيام ، فأقام الرسول بالعشيرة جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني مُدْج وحلفاءهم من بني ضُمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

غزوة سفوان

وهي غزوة بدر الأولى

ولم يقيم الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد رجوعه من غزوة العُشَيْرَة إلا ليالى قلائل لاتبلغ العشر ، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سَرَح^(١) المدينة ، فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام في طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ، فرجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان .

ونسمى هذه الغزوة أيضاً : بدر الأولى .

(١) السرح : هو الماشية .

سرية عبد الله بن جحش

وشرعية القتال في الشهر الحرام

- وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب عبد الله بن جحش الأسدي ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، وحين يقرأه يمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا هو :
« إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه :
قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أمضى إلى نخلة ، أرصد بها قريشاً ، حتى آتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره منكم أحداً ؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فامض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى معه أصحابه ولم يتخلف عنه منهم أحد .

وقبل أن يصلوا إلى موضع بعثتهم ، أضل سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غَزْوَانَ بعيداً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه .

وظل عبد الله بن جحش وما بقي معه من أصحابه سائراً حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً^(١) وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل وهما من بني مخزوم ، والحكم ابن كيسان ، ومولى هشام بن المغيرة .

وكان اليوم الذي التقى فيه الفريقان آخر يوم من أيام شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحرم عند العرب ، فتخرج المسلمون من قتالهم فيه ، ثم بدا لهم أنهم إذا تركوهم اليوم أفلتوا منهم غداً بدخولهم الحرم ، وأجمعوا على أن ينازلوهم ، فرمى واقد

ابن عبد الله التيمي أحد الصحابة عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وأسر عثمان ابن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب نوفل بن عبد الله .

واستولى عبد الله بن جحش على العير ، وقسم الغنيمة بين أصحابه بعد أن أخرج منها الخمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كَرَّ راجعاً إلى المدينة ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم جلية الأمر ، قال :

ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . وأبى أن يأخذ شيئاً من الغنيمة ، فسَقَطَ في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعَنَفَهُمْ إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

وقالت يهود — تتطير بذلك على الرسول عليه الصلاة والسلام — : قتل واقد عمر الحضرمي ، وقدت الحرب ، عمرت الحرب ، حضرت الحرب ، فكان ذلك عليهم لا لهم .

فلما أكثر الناس في ذلك ، أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ^(١) »

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف والقلق ، أقر رسول الله عليه الصلاة والسلام قضاء عبد الله بن جحش في الغنيمة ، وقبض على الأسيرين .

وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فأرجأ

رسول الله ذلك حتى يعود سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، خشية أن تكون قريش قد وضعت يدها عليهما ، فلما عادا قبل الرسول فداء الأسيرين ، فرجع عثمان بن عبد الله إلى مكة ومات كافراً ، وأما الحكم بن كيسان فإنه أسلم وأقام بالمدينة ومات شهيداً يوم بدر مؤتة .

وكانت هذه أول غنيمة غنمها المسلمون ، وكان عمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون .

استقبال الكعبة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل صخرة بيت المقدس في صلاته ، وكان يرغب إلى الله عز وجل كثيراً أن يجعل الكعبة قبلته ، وقد أتم الله تعالى عليه نعمته بتحقيق رغبته ، فصرف وجهه إلى الكعبة بعد ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة . وفي هذا يقول القرآن الكريم :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ^(١) » .

غزوة بدر الكبرى

النصر الأول للإسلام

وفي شهر رمضان من السنة نفسها ، علم النبي عليه الصلاة والسلام أن عير قريش الحافلة التي خرج من أجليها في شهر جمادى الأولى وفاتته — كما قدمنا في غزوة العشيرة — قافلة من الشام هذه الآونة وعلى رأسها أبو سفيان ومعه من صحبه من الرجال ، فذاب الرسول أصحابه لها قائلاً : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها » .

ولم يحتفل الرسول بحشد الناس بل قال : من كان ظهره ^(١) حاضراً ، فليركب معنا ، ولم ينتظر من كان ظهره غائباً ، فاستجاب بعض الناس وتناقل بعضهم : وذلك أنهم لم يظنوا أن الرسول سيلقى حرباً .

وكان أن خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من المدينة لليال مضت من رمضان ، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم للصلاة بالناس بالمدينة ، وأباً لبابة والياً عليها ، وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية لشيء بلغه عن المنافقين . وكان عدد أصحاب الرسول ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، منهم مائتان ونيّف وأربعون من الأنصار والباقيون من المهاجرين . وهذه هي أول غزوة يشترك فيها الأنصار مع النبي عليه الصلاة والسلام .

ركائب الجيش

وكانت ركائب الجيش محصورة في فرسين وسبعين بعيراً ، كان يتعاقب على البعير الواحد ثلاثة أو أربعة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب ومرثد بن مرثد يتعاقبون بعيراً واحداً ، فإذا جاء دور النبي في التزجل قال له : اركب أنت يا رسول الله ونحن نمشي ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « ما أنتم بأقوى على المشي مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكم » .

حامل اللواء

ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء الجيش إلى مُصْعَب بن عمير العيذري ، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ رئيس الأوس .

أنباء العدو

وسار الرسول بجيشه يقصد غير قريش ، وأرسل اثنين من أصحابه يَتَحَسَّسَان من أخبارها ، ثم مضى في سبيله سالكا طرقاً وودياناً مختلفة حتى أتى ذِفْران فزل فيه .

(١) الظهر : ما يركب من فرس أو غيرها .

أبو سفيان ينذر قريشاً

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان عن أخبار النبي ، حتى علم أن الرسول قد استنفر أصحابه له ولعيده ، فحذر من ذلك ، واستأجر رجلاً من غفار لينذر قريشاً .

وجاء النذير مكة ، فبلغ قريشاً رسالة أبي سفيان ، فنفروا سراغاً ، وهبمت قريش كلها فلم يتخلف من أشrafها أحد إلا أبو لهب فإنه أرسل مكانه العاصي بن هشام ، وكان قد استعبده في الجاهلية ، على ما ذكرناه مفصلاً في صدر هذا الكتاب . وتخلف بنو عدي بن كعب — رهط عمر بن الخطاب — فلم يخرج منهم مع قريش أحد .

الرسول يستشير أصحابه

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم خبر قريش وهو بمنزله في ذفران ، فأخبر أصحابه بذلك واستشارهم ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال :

يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبليه .

فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام خيراً ، ودعا له به ، ثم قال : أشيروا علي أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين يايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان

(١) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن
دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس له عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم .

رئيس الأنصار يتكلم

فلما قال ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام ، قال له سعد بن معاذ :

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال الرسول : أجل !

فقال سعد بن معاذ :

لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك
عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ،
فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف
منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ،
صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فَسَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال :

« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني
الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

نحن من ماء !

ثم ارتحل الرسول عليه الصلاة والسلام حتى نزل قريباً من بدر^(١) ، فركب هو
وأبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه
عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما عن شيء حتى تخبراني من أتما ، فقال الرسول عليه
الصلاة والسلام : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم !

قال الشيخ : فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن

كان صدق الذي أخبرني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش . فلما فرغ من خبره ، قال : من أتما !

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نحن من ماء^(١) ، ثم انصرفا عنه .

فجعل الشيخ يقول : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

يريدون العير لا الحرب

ثم رجع رسول الله إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا غلامين من غلمان قريش ينزحان لهم ماء فأخذوهما ، وأخذوا يسألونهما عن قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، إذ كانوا يؤثرون الاستيلاء على العير ، ويرون ذلك خيراً من الحرب ، وراحوا يضربون الغلامين ، فلما أوجعهما الضرب ، قالا : نحن لأبي سفيان !

ولما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته ، قال لأصحابه :

إذا صدقاًكم ضربتوها ، وإذا كذباًكم تركتوها ! صدقا والله إنهما لقريش ، أخبراني عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكتيب الذي تراء بالعدوة^(٢) القصوى ، فقال لهما الرسول عليه الصلاة والسلام : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم بين التسعمائة والألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختری

(١) في إجابة النبي عليه الصلاة والسلام تورية صادقة فإن كل مخلوق من ماء .

(٢) العدوة : شاطئ الوادي .

ابن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة ابن عدى ، والنضر بن الحارث ، وربيعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية ابن خلف ، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ .
فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقال : هذه مكة قد ألتقت إليكم أفلاذ كبدها^(١) .

إفلات العير

وكان أبو سفيان قد تقدم العير ليقف على أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما علم أنه ينزل قريباً من بدر ، كَرَّ مسرعاً إلى العير فصرفها عن طريقها والتزم الساحل ، وسار بها سيراً حثيثاً حتى نجا بها ، ثم أرسل إلى قريش ، وقد كانوا نزّلوا بالجحفة ، يخبرهم أنه أفلت العير من محمد وأصحابه ، ويشير عليهم بالرجوع إلى مكة ، فقال أبو جهل بن هشام :

والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا — وكان بدر موسماً من مواسم العرب يقام به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونُطْعِمَ الطعام ونُسْقِي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها ! .

رجوع بني زهرة

ونادى مناد في بني زهرة، يحثها على الرجوع إلى مكة بعد أن نجت أمواها ، فأطاعوه ورجعوا ؛ وبذلك لم يشهد بدر منهم زهري واحد .
وبنو زهرة أحوال الرسول عليه الصلاة والسلام .
ورجع طالب ابن أبي طالب كذلك إلى مكة .

(١) أفلاذ : أى قطع .

وكان مع قريش من آل عبد المطلب : العباس بن عبد المطلب ، وعقيل ابن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب . وقد خرجوا مكرهين ، ولما جاء رسول أبي سفيان بنجاة العير ورجعت بنو زهرة ، أراد بنو عبد المطلب الرجوع ، فحال بينهم وبين ذلك أبو جهل بن هشام ، وأبى إلا أن يظلوا مع النفير .

موقع قريش

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي ، وخلفها كثيب وأمامها البئر ، وهو إلى العدو الدنيا مما يلي المدينة . وبعث الله الساء فأصاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه من الماء ما شربوا منه وتطهروا ، ولبد المطر لهم الأرض فيفسر عليهم السير ، في حين أنه غَزُرَ في المكان الذي نزلت به قريش حتى منعها من السير وأثقلها بالوحل والطين .

موقف المسلمين

ونادى الرسول في أصحابه بالسير ، فساروا حتى إذا جاءوا أدنى ماء من بدر نزلوا به ، فجاءه الحُبَاب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَ اللهُ ، ليسى لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم نَغُورْ ^(١) ما وراءه من القُلُب ^(٢) ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لقد أشرت بالرأى ، فانهض الرسول ومن معه من الناس وأمضى هذا الرأي بخذافيره .

(١) نغور : أى نردم

(٢) القلب : أى الآبار

قريش وخيلاؤها

وجاءت قريش فلما رآها الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال :
« اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تُحَادِّثُ وتكذب رسولك ،
اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة » .

استطلاع وذعر

وبعثت قريش عمير بن وهب ، وكان شيطاناً من شياطين العرب ، لِيَحْزُرَ عدد المسلمين ، فجال بفرسه جولة ، وقال : القوم ثلثمائة رجل يزيدون أو ينقصون عن ذلك قليلا . ولكنه قال : إن القوم ليس معهم مَنَعَةٌ ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ ففروا رأيكم .

وأحدث هذا القول ذعراً في صفوف المشركين ، ومشى بعض كبارهم إلى بعض يثبطون عن الحرب ، ويحبذون الرجوع إلى مكة . وتولى أمر هذه الدعوة عتبة ابن ربيعة ، وكان مما قاله : اعصبوها بى وارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون ^(١) .
و بلغ أبا جهل قول عتبة فثار وأتهمه بالجن ، ففشلت الدعوة وأصبح مامن الحرب بد .

غيظ قريش من سوء موقعها

و غاظ قريشا استيلاء المسلمين على الماء وحرمانها منه ، فخرج الأسود ابن عبد الأسد المخزومي — وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق — وآلى على نفسه أن يرد الماء فيشرب منه ، على الرغم من المسلمين ، أو يقتل دونه ، فتصدى له حمزة ابن عبد المطلب وضربه بالسيف ضربة أطار بها قدمه ، ثم أتبعها بضربة أخرى كانت القاضية عليه ، فكان أول قتيل في المعركة .

(١) أى وليس بينكم وبينه دماء وثارات .

بناء عريش للنبي

وجاء سعد بن معاذ — رئيس الأوس — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد لك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ؛
فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى
جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يأنى الله ما نحن أشد
لك حباً منهم ، ولا أطوع لك رغبة منهم في الجهادونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً
ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك .

فقال عليه الصلاة والسلام :

أو يقضى الله خيراً من ذلك .

ومع ما توحى إليه عبارة النبي عليه الصلاة والسلام من توقعه النصر ، استحسّن
ما اقترحه سعد بن معاذ ، فأنشئ عريش على تل مرتفع ، يشرف على ميدان المعركة
ليجلس فيه الرسول أثناء الحرب .

شاهت الوجوه

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام يعدل صفوف أصحابه ويسويها حتى أصبحت
كالبنيان المرصوص .

ولما تراءى الجمعان وتدانى الصفان ، أخذ النبي عليه الصلاة والسلام حفنة من
تراب فرماها نحو المشركين ، وهو يقول : شاهت الوجوه .

أ كفاء كرام ولكن ؟

وبرز من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة وأخوه شيبة
ابن ربيعة ، فلما توسطوا ما بين الصفين دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم نفر من الأنصار ،

فسألوه من أتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد قومنا. ثم نادوا: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي — وهم عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب: وجميعهم من آل النبي عليه الصلاة والسلام.

فلما برزوا من صفوف المسلمين ودنوا من أعدائهم، سألوه من أتم؟ فلما انتسبوا إليهم، قالوا: نعم، أكفاء كرام.

وبارز عبيدة بن الحارث — وكان أسن القوم — عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبه بن ربيعة، وبارز عليُّ الوليد بن عتبة بن ربيعة.

فأما حمزة وعلي فإيهما لم يُمَهَّلَا عدوئيهما حتى قتلاههما، وأما عبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة فإيهما تبادلا ضربتين كلاهما أثبت^(١) صاحبه، وكرَّ حمزة وعليُّ على عتبة بن ربيعة فأجهزا عليه، واحتملا عبيدة إلى المعسكر؛ وقد استشهد بعد ذلك متأثرا بجراحه.

أَقْدَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ

وبعد أن كتب الله النصر للمسلمين في هذه المبارزة التي كانت بشرى لهم وخذلانا للكافرين، وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يسويها بقضيب كان في يده، فمر بسواد بن غزية، حليف بني النجار، وهو غير مستوٍ في الصف، فغمزه بالقضيب الذي كان بيده، وقال: استقم يا سواد!

فقال سواد: لقد أوجعتني يا رسول الله، وقد بُعِثت بالحق والعدل، فَأَقْدَنِي من نفسك.

(١) أثبت صاحبه: أي ضربه ضربة فائتة:

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اسْتَقِدْ ياسواد .
فاعتنقه سواد وقَبَّل بطنه ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما حملك على ذلك ؟
فقال : يا رسول الله ، قد حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس
جلدى جلديك .
فدعا له النبي بخير .

انتظار الأوامر

وأوصى النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين ، أن لا يجهلوا على المشركين حتى
يأمرهم ، وإن اكتنفهم القوم فليضحوهم بالنبال ، ولا يَسْلُوا السيوف حتى يغشوهم ،
ثم حضهم على الصبر والثبات .

النبي يستنجز الله وعده

ورجع رسول الله إلى العريش ومعه أبو بكر ، ووقف سعد بن معاذ على بابه
يحرصه ، واتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه يدعو أن ينصر للمسلمين ،
وكان من دعائه :

اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد .

ورأى أبو بكر رضى الله عنه ما عليه الرسول عليه الصلاة والسلام من حال
فأشفق عليه ، وقال له : يا رسول الله ، حسبك ، فإن الله سينجز لك وعده .

أخصر طريق إلى الجنة

فخرج النبي عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول : « سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ
وَيُؤَلَّوْنَ الدُّبُرَ » .

ثم قال يخاطب أصحابه :

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً
غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلاً فله سلبه » .

فقال عمير بن الحمام — ويده تمرات يأكلها — : بخ بخ ! ما بيني وبين أن
أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه وحمل
على القوم وقتلهم حتى قتل .

هزيمة المشركين

ثم التحم الجيشان وحى الوطيس وأمد الله المؤمنين بالنصر ، فلم تكن إلا ساعة
حتى هُزمت قريش وتشتت شملها ، واستحضرَّ القتل فيها حتى بلغ عدد قتلاها
سبعين قتيلاً .

وكان من بين القتلى طائفة من أشرف قريش وزعمائها وأعظمها كيداً للإسلام
وحرباً على المسلمين منهم : أبو جهل بن هشام الذي وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام
بأنه : فرعون هذه الأمة ، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء ، ضربه كل
منهما ضربة مشخنة . ثم أجهز عليه عبد الله بن مسعود . وكان مما قاله هذا الطاغية حين
رأى ابن مسعود جاثماً على صدره يهيم بذبحه : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يارؤي الغنم .
وقُتل أمية بن خلف وابنه ، وكان من أشد قريش إيذاءً للمسلمين ، وقد مر طرف
من تعذيبه بلال بن أبي رباح بمكة ، وكان أمية قد استأسر لعبد الرحمن بن عوف
لصدقة كانت بينهما ، فراه بلال ، فصاح :

رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ! فقال عبد الرحمن بن عوف :
أعلى أسيرى يا بلال ؟ ولكن بلالاً نسي كل شيء إلا تاريخ هذا الطاغية معه وتجره
عليه ، فهتف : يا أنصار الله ، هذا أمية بن خلف رأس الكفر . فهجموا عليه وقتلوه .
ومن القتلى كذلك نوفل بن خويلد ، والجراح والد أبي عبيدة بن الجراح ،
قتله ابنه أبو عبيدة ، وقتل عمر بن الخطاب خاله : العاص بن هشام ، وقتل العاص ابن
سعيد بن العاص ، ومنبه ونيبه ابنا الحجاج بن عامر ، والأسود بن عبد الأسد بن هلال ،
وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعقبة بن معيط ، والنضر بن الحارث ، وقد قتلا

صبرا^(١) . ولم تنج قبيلة من قبائل قريش من قتل واحد أو أكثر من زعمائها .
وأسر من المشركين سبعون أسيراً .
واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً ، منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .
وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بجمع قتلى قريش وإلقاء جثثهم في بئر ،
ثم جعل ينادى كبراءهم ، قائلاً :
أيسرکم أنکم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ،
فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟
فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟
فقال عليه الصلاة والسلام :
والذي نفس محمد بيده ، ما أتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون
أن يحيبوني .

طريقة

ونذكر هنا طريقة من الطرائف التي قلَّ أن يحدث مثلها في ميدان حرب
ومجال كفاح ونضال ؛ فقد حدث حين انهزمت قريش وأخذ المسلمون يضعون
أيديهم على الأسرى ، أن مر مصعب بن عمير ، حامل لواء المسلمين ببدر ، برجل من
الأنصار وفي أسره أبو عزيز بن عمير أخو مصعب لأبيه وأمه وحامل لواء المشركين
في المعركة .

فقال مصعب للأنصاري :
شدَّ يديك به ، فإن أمه ذات مال ، لعلها أن تفتديه منك !
فقال أبو عزيز : يا أخى هذه وصاتك بي !

(١) يقال : قتل صبرا ، إذا أخذ أسيراً ثم فضربت عنقه .

فقال مصعب ، مشيراً إلى الأنصارى : إنه أخى دونك !
وسألت أم أبى عزيز عن أغلى ما فدى به قرشاً ، فقيل لها : أربعة آلاف
درهم ، فبعثت بها إلى المدينة فداء لابنها .
وقد أسلم أبو عزيز بعد ، وحسن إسلامه .

أين مالى يا خبيث ؟

ومن النوادر الطريفة التى حدثت يوم بدر كذلك ، أن أبا بكر رضى الله عنه
رأى من بعد ابنه عبد الرحمن فى صفوف المشركين فقال له : أين مالى يا خبيث ؟
فأجابه : لم يبق إلا شكة ^(١) ويعبوب ^(٢) .
وقد أسلم عبد الرحمن بن أبى بكر فيما بعد ، وقال لأبيه ، يا أبت لقد أهدفت لى
يوم بدر مراراً فصدمت عنك .
فقال له أبو بكر :
لو كنت أهدفت لى أنت ماصدمت عنك .

بنو هاشم وأبو البختري بن هشام

وقال النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه :
إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ؛
فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البختري بن هشام الأسدى فلا
يقتله ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .
وقد أسر المسلمون العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام .
أما أبو البختري بن هشام فقد كان من حديثه أنه لم يكن يؤذى النبى عليه الصلاة
والسلام بمكة ، وقد كان من أعظم قريش بلاء فى نقض الصحيفة التى كتبها قريش
لمحاصرة بنى هاشم .

(١) الشكة : السلاح .

(٢) يعبوب من الحيل الشديد الجرى .

وقد لقيه أثناء هزيمة قريش في بدر أحد الصحابة ، وبلغه أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال وصاحبى الذى معى ؟ فقيل له : إن الأمر مقصور عليك ، فأبى وقاتل حتى قُتل !

اللين والشدة فى الحرب

حكاية الأسرى

كان عدد الأسرى من قريش ، فى قول معظم المؤرخين ، سبعين أسيراً ، وقد ذهب كبار الصحابة فيما ينبغى أن يُصنع بهم مذاهب شتى من القتل أو الفداء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منطوياً على الرحمة ، مفطوراً على الحسنى ؛ ولذلك كان يميل إلى المن عليهم بالفداء ، ولكنه كان لا يحب أن يستأثر بالرأى فيما يكون من أمر الناس إذا لم يُنَزَّل فيه قرآن ؛ ومن أجل ذلك استشار أصحابه ، فرأى عمر ابن الخطاب رأى الحرب ، وهو القتل ، وقال :

يا رسول الله ، كذبوك وقتلوك وأخرجوك ، فأرى أن تمكّننى من فلان — أحد أقربائه — فأضرب عنقه .

وأقره على رأيه سعد بن معاذ ، وعبد الله بن رَوَاحَة .

ورأى أبو بكر رأى السلم والبُقيّا ، مُصْدرّاً فى ذلك عن طبعه الرحيم وخلقته الكريم ، فقال :

يا رسول الله ، هؤلاء أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك ، فيكونوا لك عضداً .
فقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الله ليكنى قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : « كَفَنُ تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وإن مثلك يا عمر مثل نوح ، قال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام برأى أبي بكر .
وقد عاتبه الله عز وجل على ذلك ، ثم رضى عما فعل . يقول الله سبحانه وتعالى :
« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ ،
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابُ
مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا
طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) » .

وقد شق على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عتاب الله لهم ، وأشفقوا من
غضبه ، فلما أجاز لهم ما فعلوا وسوغ لهم ما غنموا ، سُرُّوا لذلك واطمأنت قلوبهم .
وجعلت فدية الأسير من أغنياء قریش أربعة آلاف درهم ، وأقلها ألف درهم ،
ومنَّ الرسول على بعض من يتوسم فيهم الهداية للإسلام بالحرية من غير ثمن ،
وكلف بعض الفقراء منهم ، ممن يقرأ ويكتب ، تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة
والكتابة ثمنًا لإطلاق سراحه .

المن على شاعر

وكان من بين الأسرى أبو عزة الجمحي وكان شاعراً ، فسأل النبي عليه الصلاة
والسلام أن يمن عليه بالفكاك من الأسر تكريماً لأنه فقير لا مال له ، فاستجاب
الرسول لسؤاله وأطلق سراحه ، وشرط عليه أن لا يظهر عليه أحداً . ولقصة هذا الشاعر
بقية ستذكر في موضعها .

الغنائم

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع ما غنمه المسلمون من قریش مُجْمِع ،
وتضاربت الآراء في شأنه ؛ فقال من جمعه : هو لنا ، وقال المقاتلون : والله لولا نحن
ما أصبتموه ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله عليه الصلاة والسلام : والله ما أتم
أحق به منا ، ولقد كان في مُكْنَتِنَا أَنْ نَقْتُلَ الْعَدُوَّ إِذْ مَنَحَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَكْتَفَاهُ ،

ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرّة العدو ، فقمنا دونه فما أتم أحق به منا .

وتدارك الله سبحانه وتعالى المسلمين ، فأنزل على رسوله الكريم القول الفصل فيه موضعاً في سورة الأنفال :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .
ثم وضحت الآيات بعد ذلك نظام توزيع الغنائم .

فسمع المسلمون وأطاعوا الله ورسوله ، وقسم الرسول الغنائم بينهم على حسب ما شرعه الله ، وفرض لمن تخلف عن الموقعة بعذر ، أو كان قائماً بمهمة كلفه إياها ، أو عاقه عن متابعة السير مع الركب عائق .

وفرض الرسول كذلك لجميع الشهداء ؛ وهم أربعة عشر نصيباً مثل نصيب الأحياء ، أخذه ورتبهم .

رسولا البشرى

ولما فتح الله على المسلمين أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ، وزيد بن حارثة بشيرين إلى أهل المدينة بما فتح الله على المسلمين من نصر مبين .

عودة المنتصر

وعاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ومعه الأسرى ، فخرج إليه من فيها يهتئون بما فتح الله عليه ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الإسلام .

فداء الأسرى

وقالت قريش : لا تتعجلوا في فداء الأسرى ، بل تريثوا حتى لا يشتط عليكم محمد في الفداء ، ولكن المطلب بن أبي وداعة السهمي انسل إلى المدينة ، وفدى أباه لقاء أربعة آلاف درهم ، ورجع به فأفسد على قريش تديرها ، وراح كل من كان له أسير يرسل إليه بالفداء .

قصة أسير

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج السيدة الشريفة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخ السيدة خديجة ، وكان من رجال مكة المعدودين : مالا ، وأمانة ، وتجارة ، فلما جهر النبي عليه الصلاة والسلام برسالته ، واستفحل الأمر بينه وبين قريش ، كان من بين ما كادوا له أن سعوا عند أزواج بناته ليطلقوهن حتى يشغلوا النبي عليه الصلاة والسلام بهن ، وقد كانت إحدى بناته مزوجة لعتبة بن أبي لهب ولم يكن قد دخل بها ، فقال : إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص طلقت بنت محمد ، فأجابوه لذلك فطلقوها وزوجوه ممن طلب . وقد أكرم الله بنت الرسول هذه فتزوجها عثمان بن عفان .

أما أبو العاص بن الربيع فقد أبى أن يطلق زوجته — على الرغم من أنها حين أسلمت لم يقربها — وقال : لا والله إنى لا أفارق صاحبتي ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

فلما أسير أبو العاص بن الربيع بعثت السيدة زينب فداءه ، وكان من بينه قلادة لها كانت أمها السيدة خديجة قد أهدتها إليها عند زفافها لزوجها ، فلما رآها الرسول عليه الصلاة والسلام ، رَقَّ لها رقة شديدة ، وقال :
« إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا » .

فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقوه وردوا عليها الذى لها ، وأوصاه النبي عليه الصلاة والسلام أن يبعث بالسيدة زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة .

زينب بنت الرسول

هجرتها إلى المدينة

قلنا إنه كان فيما أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب عندما أطلق سراحه من الأسر ، أن يخلى سبيل زوجته ويرسلها إليه

بالمدينة ، وبعد شهر من غزوة بدر بعث النبي عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار معه إلى مكان خارج مكة عينه ، وقال لهما انتظرا زينب هناك حتى تأتي فاقدا منها ، فرحلا إلى حيث أمرا .

وفي الوقت المحدد خرج بها كنانة بن الربيع أخو زوجها نهرا ، فغضبت قريش من ذلك وظنت فيه تحدياً لها ، فخرج نفر منهم واعترض طريقها ، وكان أوقهم هبار بن الأسود ، فقد روع السيدة زينب برمحها حتى جهضت ، فجاء كنانة بن الربيع وبرك أمام جملها ونثر كنانته ، وأقسم لا يدنو أحد منها إلا رماه بسهم .

وجاء أبو سفيان بن حرب وسأل كنانة أن يمهله حتى يكلمه ، فلما استجاب له ، قال : إنه ليس لهم في حبس بنت محمد عن أبيها من حاجة ، ولكنك خرجت بها نهرا ولا تزال جراح قريش مما أصابها يوم بدر تنزف دماً ، فحسبوا أن في خروجها على أعينهم ذلاً لهم ، فارجع بها حتى تهدأ النفوس ثم اخرج بها ليلاً .

فرجع كنانة بالسيدة زينب ، ومكث أياماً ، ثم خرج بها ليلاً حتى أسامها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدمها بها على الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

قريش تبكي قتلاها

وقع خبر الهزيمة على قريش موقع الصواعق الماحقة ، فقد أودت سادتها ، وقتل كبرائها ، ولم يكن هناك بطن من بطونها لم يفجع بأعزاء عليه ، وقد هدّت المصيبة كيانهم ، فراحوا يبكون وينوحون ، ومضوا في ذلك شهراً ، ثم تنبهوا لما يجره هذا الضعف عليهم من شماتة النبي وأصحابه فحرموا البكاء على القتلى ، وكان الأسود ابن المطلب قد أصيب في ثلاثة من ولده ، وكان يجب أن يبكيهم ولكنه لا يفعل مجارة لقريش ، وقد حدث أن سمع نائحة تنوح بالليل ، فبعث غلاماً له لينظر هل أحلت قريش النوح لينوح على ولده ؟ فذهب الغلام وعاد إليه يقول :

إنما هي جارية تنوح على بغير أضلته !

وقاية الله

هَمَّت قريش بقتل النبي عليه الصلاة والسلام غيلة بعد أن نصره الله عليهم ببدر وفُجِعوا فيمن فُجِعوا فيه من زعمائهم ، وقد كادوا له كيداً ولكن الله عصمه منهم ، فذهب حامل المكيدة إلى المدينة والغدر ملء ثيابه والختل يخالط دماءه ، وعاد مسلماً متحدياً من أرسله بالكيد لرسول الله ، مجابهاً أعداء الله ورسوله بما يكرهون .

وبطل هذه القصة هو عمير بن وهب الجمحي ، وهو أحد شياطين قريش ، ومن كان يؤذى النبي عليه الصلاة والسلام قبل هجرته أبلغ الأذى وأشدّه ، وكان ابنه وهب فيمن أسره المسلمون بواقعة بدر .

وحدث أن كان عمير بن وهب يجلس في الحجر بجوار الكعبة مع صفوان ابن أمية إثر هزيمة قريش ببدر ، فتذاكرا مصابهم ، وعددا قتلاهم ، فقال صفوان ابن أمية وهو أحد من سلم من رؤساء المشركين : ما في العيش خير بعدهم !

فقال عمير : أما والله لولا ديني على ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي قبلهم علة : ابني أسير في أيديهم . فاغتنم صفوان بن أمية هذه الفرصة النادرة ، وقال :

على دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أو أسيرهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكم شأني وشأنك . قال : أفعل !

وراح عمير إلى سيفه فشحذه وسقاه السم ، وانطلق حتى قدم المدينة ، وذهب إلى المسجد حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجلس هو وأصحابه ، فلما وقعت عين عمر بن الخطاب عليه ، قال للنبي عليه الصلاة والسلام : هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : أدخله علىّ ، فذهب إليه عمر بعد أن أمر جماعة من الصحابة أن يلتفوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

ثم أخذ حمالة سيف عمير فطوقه بها ، وجاء به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال الرسول لعمر : أرسله يا عمر ، ثم قال : أدن يا عمير ، فدنا ، ثم قال : عموا صباحاً ، وهى تحية الجاهلية ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام : تحية أهل الجنة .
فقال عمير :

أما والله يا محمد ، إن كنتُ بها لحديث عهد ، قال الرسول : فما جاء بك يا عمير !

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه .

قال الرسول : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ؛ وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال الرسول : أصدقنى ، ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال الرسول : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب

القلب^(١) من قريش ، ثم قلت : لولا دين على ، وعيال عندى ، لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت

تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

فتمهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره . ففعلوا .

(١) القلب : هو البئر الذى ألقيت فيه قتلى قريش ببدر .

ثم قال عمير : يا رسول الله ، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم .

فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول :

أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل الركبان عن أخبار عمير حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً .

ولما قدم عمير مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذي من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .

أدب وعتاب

وقد أدب الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أحسن تأديب ، وعاتبه أجمل عتاب فيما أنزل عليه في سورة الأنفال ، فقد نزلت كلها في موضوع غزوة بدر ، وعرض فيها القرآن الكريم لطائفة كبيرة من شئون الحرب ووصف الحالات النفسية التي تعترى الحاربين ، وكيف أمد الله المؤمنين بجند من الملائكة ، ثم عرض القرآن الكريم لمسائل الأسرى والفداء وما أفاده المسامون في هذه الموقعة من نصر وعز . وليس يكمل علم القارئ بهذه الغزوة إلا بطلاوة هذه السورة ، وتقهم معانيها وتبين مراميها ؛ فيرجع إليها القارئ فيها شفاء للنفوس ، وطمأنينة للقلوب .

معالم واضحة في غزوة بدر

لا تستطيع أقلام أهل الأرض جميعاً أن تصف ما كان لغزوة بدر من الآثار ، وما ترتب عليها من النتائج ، وصفاً يداني ما وصفها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قال يناجى ربه وهو فى عريشه يشرف على سير المعركة ويستنجزه ما وعده من نصر :

اللهم ، إن شئت لم تعبد !

ومغزى هذه العبارة واضح جداً ، فهو عليه الصلاة والسلام يقول فى طيّ عبارته :
إن هزيمة المسلمين فى هذه المعركة ، قضاء على الإسلام ، ومحو لكلمة الله ، وأمداد لرجس الشيطان ، وإملاء لعبدة الأوثان .

وقد استجاب الله لرسوله فنصر المسلمين وخذل المشركين ، وأعز الإسلام وكبت عدوه الألد الممثل فى قريش ، وبهر جمع العرب فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بهذا النصر المبين ، وصارت قوة الإسلام أكبر قوة فى الجزيرة ، يُخشى بأسها ، ويُرهَب جانبها .

حقائق بارزة

وقد تميزت هذه الموقعة بطائفة من الحقائق البارزة ، يحمل بنا أن نشير إليها
إشارات موجزة :

١ — كانت غزوة بدر الكبرى أول غزوة اشترك فيها الأنصار مع النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه من المهاجرين .

٢ — كان النبى عليه الصلاة والسلام يُجَنَّب الأنصار كل عمل من الأعمال التى تتصل بالحرب خارج المدينة ، مثل السرايا ، ومراقبة الأعداء ، وتعرّف أخبارهم .

٣ — لم يكن من بين الشروط التى تمت عليها بيعة العقبة الثانية ، أن يحارب الأنصار مع النبى عليه الصلاة والسلام خارج المدينة ، بل كانت الشروط مقصورة على أن يمنعوا ما يمنعون نساءهم وأولادهم ممن يهاجمه فيها ؛ ومعنى هذا أن هذه المخالفة كانت دفاعية لا هجومية .

٤ — لم يكن الباعث الأول على خروج النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، قتال قريش ، وإنما كان غرضهم متجهاً إلى الاستيلاء على تجارتها .

- ٥ — حرص النبي صلوات الله وسلامه عليه ، على الوفاء بعهدہ للأَنْصار ، فلما علم أن هناك احتمال حرب لم يبرم أمراً إلا بعد مشاورة الأنصار وموافقتهم .
- ٦ — كان إقدام النبي وأصحابه على حرب قريش ، بعد ما تبينوا ما هناك من تفاوت شديد بن القوتين عدداً وعدة ، مثلاً أعلى في الشجاعة والإيمان .
- ٧ — برهن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الموقعة على أنه قائد حربى من الطراز الأول ، وكانت أعظم خصائصه في ذلك رفع الروح المعنوية بين المسلمين حتى إنهم لو أمروا بخوض البحار لخاضوها .
- ٨ — كذلك برهن عليه الصلاة والسلام على أنه خير الناس تعاوناً مع أصحابه ، لا يستبد برأى ولا يأبى نصيحة ؛ ومصدق ذلك ما كان من تغييره موقف جيش المسلمين حين أشير عليه بذلك وتبين صواب المشورة .
- ٩ — أقام المسلمون من المهاجرين أعظم الأدلة في تاريخ البشر على شدة تغلغل العقيدة في نفوسهم ، وبلوغها منهم منزلة تسمو على صلات الرحم والقربة ؛ فكان الرجل منهم يقتل أباه أو أخاه ، أو عمه أو قريبه من المشركين ، لا تأخذه فيه شفقة أو رحمة .
- ١٠ — كانت واقعة بدر بداية عهد جديد بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، ظل قائماً حتى انتهى بفتح مكة وإسلام قريش .

إجلاء يهود بنى قينقاع

كان يهود بنى قينقاع أغنى يهود المدينة جميعاً ، لأنهم كانوا صاغة ، وقد أبطروهم الغنى ، وجرفهم الحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والتفاف الأنصار حوله عن سواء السبيل ، فبغوا وطغوا وجأهروا الرسول بالعداء ، واستهانوا بحرمات الأنصار .

وقد حدث أن امرأة من الأنصار ذهبت إلى سوق لبنى قينقاع تباع بضاعة لها ، ثم جلست إلى صائغ فأرادها على أن تكشف وجهها فأبقت ، فعمد هذا الخبيث إلى طرف ثوبها فعمده على ظهرها ، فلما قامت تعرى جسمها ، وضحك اليهود منها ،

فصاحت مستنجدة ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ قتلته ، وتكاثر اليهود على المسلم قتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فاستجابوا للنداء ، وكان هذا الحادث بدء الشر بين الفريقين .

وقد أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخمد هذه الفتنة ، ويعيد حسن الجوار إلى ما كان من طريق الحسنی ، فجمع اليهود في سوق بني قينقاع ، وقال لهم : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً .

فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قابلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا !

وأهم أمر هؤلاء اليهود رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأنزل الله عز وجل عليه قوله : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ^(١) » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام إثر نزول جبريل عليه بهذه الآية : إني أخاف من بني قينقاع . واعتزم حربهم مستنداً إلى ما رخص له الله فيه من ذلك .

وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، فلما علم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج ما كان من الإذن في حربهم تبرأ من حلفهم ، ولكن عبد الله بن أبي راس المنافقين استمسك به وقال : أخشى الدوائر ، وهو إنما يبغى من مناصرتهم الكيد لله ولرسوله ، وقد أنزل الله تعالى فيه قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ » .

وسار إليهم الرسول في جيش كبير يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري ، وذلك في منتصف شوال من هذا العام ، ولما علم اليهود بمسير الجيش الإسلامي إليهم تبخرت الشجاعة التي كانوا يتبجحون بها وهرعوا ،

إلى حصونهم ققبعوا وراءها ، وقد حاصرهم المسلمون حصاراً شديداً لم يستطيعوا الصمد له أكثر من أسبوعين ، فنزلوا على حكم رسول الله ، وقبل فيهم شفاعة حليفهم رأس المناققين ، فأخرجهم من ديارهم هم وأولادهم ونساؤهم على أن يتركوا جميع أموالهم غنماً حلالاً للمسلمين .

وقد ذهب بنو قينقاع إثر إجلالهم إلى أذرعات بالشام . ويقول المؤرخون : إنه لم يحل عليهم الحول حتى بادوا جميعاً .

غزوة السويق

وأقام النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة بقية شوال وذى القعدة من السنة الثانية للهجرة ، ثم خرج في ذى الحجة غازياً قريشاً غزوة السويق .

وكان من حديث هذه الغزوة أن أبا سفيان بن حرب الذى تزعم كفار قريش بعد هلاك رؤسائها فى بدر ، حلف أن لا يمس النساء ولا يغسل بدنه حتى يغزو محمداً لينتقم لقتلى بدر ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرئ يمينه ، ونزل بجيشه على مسافة يسيرة من المدينة ، وتسلسل فى الليل حتى أتى سلام بن مشكم ، سيد يهود بنى النضير فاستأذن عليه فأذن له واحتفل به وأمدّه بخبر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم عاد أبو سفيان إلى جماعته فأرسل نفرًا منهم إلى ناحية من نواحي المدينة فحرقوا نخلها ، ووجدوا هناك رجلاً من الأنصار وحليفاً له فقتلوهما وفروا هاربين .

وخرج الرسول عليه السلام على رأس فريق من أصحابه فى طلب أبى سفيان ، فسارع فى الهرب وأغذ السير حتى إنه كان يرمى زاده وفيه السويق تخففاً فيستولى عليه المسلمون ، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق .

ولم يلحق النبي عليه الصلاة والسلام أبا سفيان فرجع إلى المدينة .

صلاة العيد

فى هذا العام سُنّت صلاة العيدين . والحكمة فيها بينة ظاهرة إذ فيها تواتى المسلمين فرصة الاجتماع بعضهم ببعض ، فيتبادلون التهنأتى ويذكرون الله كثيراً ، ويتدارسون أمر دينهم ، ويستمعون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وهى كلها آيات بينات ، وعظات بالغات ، ومن بعده خطب خلفائه وصالحى المؤمنين .

زواج على وفاطمة

وفى هذا العام تزوج على بن أبى طالب من السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر وعمر قد خطباها ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أنظر بها أمر القضاء ، وكأنهما قد فطنا إلى ما يريد ، فذهبا إلى على وحسنا إليه أن يخطبها ، وكان إنما يمنعه من ذلك فقره ، ولكنه بعدمشورة الشيخين ذهب إلى الرسول وخطبها فاستجاب له ، وقال للسيدة فاطمة : إن علياً قد خطبك ، فقالت : كأنك يأبأت إنما ادخرتنى لفقر قريش ! فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

والذى بعثنى بالحق ماتكم فى هذا حتى أذن لى الله فيه من الساء .

فقلت فاطمة : رضيت بما رضى الله ورسوله .

وكانت سن على عند زواجه واحداً وعشرين سنة ، وسن فاطمة خمس عشرة سنة رضى الله عنهما .

تشريعات مهمة

الزكاة ، صيام رمضان

شُرعت فى هذه السنة طائفة من الشرائع الاجتماعية ذات الصلة الوثيقة بتعاون الجماعة ورفع مستوى الحياة ؛ ففيها فرضت زكاة المال من نقد ومقتنيات الماشية . وقد وضعت على أسس وحدود معينة اشتملت عليها كتب الفقه . ومبلغ ما نستطيع

أن نتحدث عنها في هذا المقام هو أنها جاءت وفقاً لصالح الطرفين من صاحب مال ومنفق عليه ، فلا إعانات لذوى المال ولا حرمان للفقير والمحروم .
وفي هذه السنة كذلك فرضت صدقة الفطر أثناء شهر الصوم وقبيل حلول العيد الأصغر ، ليكون فيها توسعة للفقراء وبراً بهم في هذا الوقت المبارك من السنة .

فريضة الصوم

وفرض على المسلمين في هذا العام صوم رمضان ، والصوم أساس أصيل من أسس التشريع في جميع الأديان المنزلة من عند الله ، وقد اختلفت صورته ولكن جوهره — وهو رياضة النفس من طريق حرمانها بعض ما تشتهي — ظل قائماً باستمرار في الأديان السماوية .

السنة الثالثة الهجرية

غزوة غطفان

كانت الجزيرة العربية لا تزال تهيم في الضلالة وتخوض في الجحالة ، دأبها الحرب والضرب والنهب والسلب ، وقد لفتت موقعة بدر أنظارها نحو المدينة ، فهتت قبائل كثيرة بغزوها طلباً للمغنم من جهة وأنفة لهزيمة قريش من جهة أخرى .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رهطاً من فروع غطفان قد تجمع تحت رئاسة أحدهم واسمه « دُعْثُور » وهم ينوون غزو المدينة ، فخرج إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام في أربعمائة وخمسين رجلاً ؛ وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

ولما سمعت غطفان بمسير رسول الله إليهم ، تفرقت شذر مذر ، وهربت في رهوس الجبال خوفاً من الجيش الإسلامي الباسل .

وسار النبي عليه الصلاة والسلام قاصداً إلى موطن أعدائه حتى نزل بماء يسمى ذا أَمَر ، فعسكر به وعلم بتفرق أعدائه .

وحدث أن انتحى النبي عليه الصلاة والسلام ناحية ونزع سلاحه ليستريح قليلا، وأصحابه بعيدون ، وكان رئيس غطفان المسمى بدعثور يترقب حركاته من بعد ، فلما رأى انفراده عليه الصلاة والسلام تسلل حتى وقف على رأسه شاكى السلاح ، وقال :
من يمنعك منى يا محمد ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوة نفس وثبات جنان : الله .
وهنا سقط السيف من يد الرجل ، فتناوله النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال لدعثور :

من يمنعك منى ؟
قال : لأحد .

فعفا عنه النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وقد أسلم الرجل ودعا قومه إلى الإسلام .

غزو بنى سليم

و بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن جمعا من بنى سليم بهم بغزو المدينة ، فسار إليهم فى ثلثمائة من أصحابه فى أوائل جمادى الأولى ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .
ولما وصل إلى بحران وجد القوم قد تفرقوا خوفاً وفرعاً ، فرجع إلى المدينة من غير أن يلقي حرباً .

سرية زيد بن حارثة

واغتنام بضائع قریش

لا حياة لقریش إلا بالتجارة ، فعليها معولهم وفيها أرزاقهم ، وقد أضرت بهم مهاجمة المسلمين المستمرة قوافلهم التجارية ، ولذلك عمدوا إلى العدول عن طريق الشام مما يلى المدينة ، وأرسلوا تجارتهم إلى الشام من طريق العراق .

وقد علم النبي عليه الصلاة والسلام أن غيراً لقریش على رأسها أبو سفيان ابن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ، ستمر بنجد ، فجرد سرية

برياسة زيد بن حارثة ، وسارت حتى باغتت القافلة على ماء يسمى « القردة » ، ففر أبو سفيان ومن معه ، وترك البضاعة فاستولى عليها المسلمون ، وكان بها فضة كثيرة ، وعادت السرية إلى المدينة ومعها غنيمةها .

وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة من هذا العام .

الساعي إلى حنقه

مقتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف رجلاً من طيء ، وكانت أمه من يهود بني النضير ، فنشأ بين أخواله ونبه فيهم حتى أصبح رأساً من رؤوسهم ، وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً ، وفقى معجباً بنفسه . ولم يكن يسره ما يراه من رسوخ قدم الإسلام بالمدينة وانتشار أمره بها : شأنه في ذلك شأن اليهود جميعاً . غير أنه قد زاد على بني جنسه في البرم بالنبي وأصحابه ، فحدث إثر انتصار المسلمين على قريش في واقعة بدر ، وما كان من قتل من قُتل من زعماء المشركين وأسر من أسر منهم ومجيئهم إلى المدينة مقرنين في الأصفاد ، أن كبر ذلك جداً على كعب ، فذهب إلى مكة يرثى قتلاها ، طغاتها على الأخذ بالثأر .

ولما عاد إلى وطنه أخذ ينشئ شعراً يتغزل فيه بنساء المسلمين ، حتى آذاهم وثقل عليهم أمره من جميع الوجوه ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : من لى بابن الأشرف ؟

فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله .

ثم استأذن الرسول في الترخص ببعض القول فأذن له ، فاتفق مع جماعة من أصحابه على تنفيذ خطة محكمة لقتل عدو الله والمسلمين ، وهم :

سليمان بن سلامة ويكنى بأبي نائلة وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعبيد بن بشر ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عيس بن جبر ، وجميعهم من الأنصار .

وأرسلوا إليه أبا نائلة أخاه في الرضاع ليكون آنس له ، فتحدث إليه فيما أصاب الأنصار من جهد وضنك بسبب إقامة الرسول فيهم ، وطلب إليه أن يبيعه هو وجماعة من إخوانه المعوزين مثله طعاماً برهن .

فقال عدو الله متبجحاً : أترهنوني نساء ؟

فقال أبو نائلة : كيف نرهنك نساءنا وأنت أعطر العرب ؟

قال : فأبناؤكم ؟

قال : كيف نرهنك أبناءنا فتلحقهم السبّة طوال حياتهم أنهم رهنوا في صاع من شعير ! ولكننا نرهنك السلاح . وقد أراد أبو نائلة من اختيار السلاح أن لا يكون في حملهم إياه عند القدوم إليه ما ينكره .

فقبل كعب ذلك .

وجاءه أبو نائلة ليلاً وهو في حصنه فهتف به ، ققام مليياً ، فقالت له امرأته وكانت عروساً : كيف تنزل في هذه الساعة من الليل وأنت محارب ؟

فهون عليها الأمر ، وقال لها : إنه أبو نائلة ولو وجدني نائماً ما أيقظني !

ونزل كعب فوجد أبا نائلة في أصحابه ومعهم السلاح الذين ينوون رهنه ، فتحدث إليهم ساعة ، ثم أدنى أبو نائلة يده من رأس كعب وتحسس عطر شعره ، ثم شم يده وقال : مارأيت كالليلة طيباً أعطر قط ! ثم فعل ذلك مرة ثانية ، وفي الثالثة أخذ رأسه بين يديه ، وقال :

أضر بوا عدو الله فتعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه .

وأصابته ضربة من سيوفهم الحارث بن أوس بن معاذ في رأسه فسال دمه غزيراً ، وكان ذلك مما عاقه عن اللحاق بأصحابه ، فانتظروه حتى جاء في إثرهم وحملوه ورجعوا إلى المدينة ، وقد كفوا الإسلام والمسلمين هذا العدو البغيض .

غزوة أحد

قريش تعد العدة للأخذ بالثأر

كانت لقريش منزلة مفضلة بين العرب في الجاهلية ؛ إذ كانت قائمة على البيت الحرام ، وكان العرب يحجون إليه كل عام ، ويتعرفون بكبراء قريش بحكم الوفاة ووظائف الحج التي كانت موزعة على قبائل قريش ، وقد هيأت هذه الظروف مجتمعة لقريش مركزاً مفضلاً عند العرب ، يشبه أن يكون رئاسة من الناحية الروحية على الأقل ، ولذلك قلت حروب قريش في الجاهلية ، وأمنت كثيراً من المكارِه التي كانت جميع القبائل العربية عرضة لها من الغزو الدائم والحروب المتتابة ، وقد امتن الله عز وجل عليهم بذلك فقال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ^(١) » .

فلما جاء الإسلام وجدَّ الأمر بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، وكانت موقعة بدر ونصرة المسلمين وهزيمة قريش ، غضب كثير من العرب لقريش محفوزين إلى ذلك بحكم الحماية الجاهلية ، متأثرين بما لا يزالون مرتبطين به مع قريش من روابط دينية واجتماعية وتجارية ، ويضاف إلى ذلك أن دعوة الإسلام كانت تلقى من معارضة العرب خارج مكة ما لقيته داخلها ؛ إذ شأن الجميع واحد وهو الإصرار على ما كان يعبد آباؤهم من أصنام وأوثان .

من أجل هذا كله وجد نداء قريش بالأخذ بالثأر من محمد وأصحابه ، صدى في نفوس أحلافها ، وظاهر عليه صعاليك العرب الذين يقتفون أثر الحار بين ليشتركوا في السلب والنهب ولا يهمهم من الغالب أو المغلوب ؛ إنما هم أشبه شيء بالطيور الكاسرة تقع على صرعى الحروب حيث تجدها .

زعامة قريش

وكانت الزعامة في قريش قد آلت إلى أبي سفيان بن حرب إثر الفراغ الذي خلفه قتلى بدر من زعماء قريش وكبرائها ، فعمد أبو سفيان إلى حمل قريش على

النزول عن أرباح التجارة التي كانت سبباً في موقعة بدر — وهي العير التي خرج المسلمون في طلبها ونفرت قريش لحمايتها — لتتنفق هذه الأرباح على الاستعداد للأخذ بالثأر ، وقد قبل أصحاب رءوس الأموال هذا الاقتراح . وكانت أرباح هذه التجارة مقدرة بخمسين ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به في ذلك الزمن .

الأحلاف

ومضت قريش تعد العدة وتقتني السلاح وتجنّد الرجال ، حتى اجتمع لها ثلاثة آلاف مقاتل يتألفون من قريش ومن أحلافها « الأحابيش » وهم بنو المصطلق وبنو الهون من خزيمية ، وجماعات من أعراب كنانة وتهامة .

طريد الأوس

وكان مع هذا الجمع الحاشد أبو عامر الراهب الأوسى ، الذى فارق المدينة ولحق مكة كراهية للإسلام ومظاهرة لأعدائه عليه ، ومعه نحو خمسين من الأوس ، ذهبوا مذهبه وكفروا كفره .

حشد الشعر والغناء

ولم تغفل قريش أى سلاح من أسلحة الحرب بل استوعبتها جميعاً ، واختصت بعنايتها النواحي الأدبية ، فجاء أبو سفيان إلى أبى عَزّه عمر بن عبد الله الجمحي الشاعر ، وأغراه أن يهجو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فأبى ، وقال : إنه قد منَّ على بالفكاك من الأسر يوم بدر من غير مقابل فلا أريد أن أظاهر عليه . ولكن أنا سفيان ما زال به حتى أخرجه معه وأنطق لسانه بما أراد .

وأقدم أبو سفيان وطائفة من الزعماء على خطة عنيفة تكره المقاتل على الصبر حتى القتل ، أو يلزمه عار الدهر وسبة الأبد عند الفرار ، وهي أخذ نسائهم معهم في الحرب ليجعلوا التفكير في الفرار أمراً مستحيلاً .

وكان عدد النسوة اللاتي خرجن مع قريش من زوجات الرؤساء خمس عشرة امرأة ، على رأسهن هند بنت ربيعة زوج أبي سفيان بن حرب .
ولم ينس القوم أن يخرجوا معهم « جوقه » من الإماء الضاربات على الدفوف ،
المنشدات أناشيد الحرب والحماسة ، ليشددن من عزائم المحاربين ، ويثرن فيهم
النخوة والحمية .

آلة الحرب

أما آلة الحرب البحت فقد أعدت قريش لهذه الموقعة سبعائة دارع يقابلهم مائة
من المسلمين ، وسبعائة فرس يقابلها اثنان عند المسلمين .

آلة جهنمية

وكان من آلة الحرب التي أعدتها قريش ، إعداد وحش آدمي من نوع خاص
لقتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وفارس المسلمين انتقاماً منه لما أسلفهم في بدر من
قتل ونكابة ، فقد كان من بين عبيدهم عبد حبشي اسمه « وحشى » مملوك لجبير
ابن مطعم ، وكان ماهراً في رمي الحراب على الطريقة الحبشية ، يرمى الحربة من بعد
فلا تخطيء الهدف ، فقال له سيده جبير : إن رميت حمزة فقتلته فأنت حر ، فأخذ
العبد يعد نفسه لذلك بزيادة المران ، وكانت هند بنت عتبة التي قتل حمزة أباهما تتعهد
هذا الوحش بين الفينة والفينة ، وتقول له :

ويها أبا دسمة ، اشف واشتشف !

وسارت جموع قريش وأحلافها من مكة قاصدة إلى المدينة حتى نزلت بذي
الحليفة مقابل المدينة .

كتاب إلى الرسول

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم بخروج قريش من كتاب أرسله
إليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد أسلم وكنتم إسلامه وآثر البقاء بمكة ،
ولم يخرج مع المشركين في أحد ، معتذراً بما أصابه يوم بدر .

الرسول يستشير أصحابه

فجمع النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه من المهاجرين والأنصار، وأرسل فاستدعى عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ليحضر المشورة كي لا يحتاج بإهماله في مثل هذا المقام الخطير فيطلق لنفاقه العنان ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي استدعاه الرسول فيها .

ولما التأم الجمع وعُرض موضوع الحديث ، رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يبقی المسلمون في المدينة ، وكان يعجبه أن يدخل عليه الأعداء فيقاتلوا في الأزقة فتكشف مقاتلهم للمسلمين ، وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام :

« فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وكان هذا هو الرأي ، ولو أن المسلمين أخذوا به لتغيرت نتيجة الموقعة ، ولأصاب المشركين من الفشل والهزيمة ما أصابهم من ذلك فيما بعد في غزوة الأحزاب .

ولكن نفرًا من المسلمين ممن كتب الله لهم الشهادة ، وجلهم من الشبان التواقين إلى البلاء في سبيل الله والانتصار لدينه ، وآخرين ممن فاتهم الجهاد يوم بدر حيث تخلفوا عن الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام لظنهم أنه لن يلقى حربًا — آثروا الخروج للقاء المشركين على البقاء بالمدينة كما أشار به الرسول ، وقد قال قائلهم :

يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جُبْنَا عنهم وضعفنا !
وأشار عبد الله بن أبي بن سلول بما أشار به الرسول عليه الصلاة والسلام وكان مما قاله :

يارسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

الشباب يتغلب

وانتهت جلسة المشورة هذه بغلبة رأى القائل بالخروج لكثرة أنصاره ، وشدة حماسة قائله ؛ وكان معظمهم من الشبان التواقين للجهاد ، المرحين بالاستشهاد .

النبي يلبس لباس الحرب

وكان اليوم الذى حدث فيه هذا الاجتماع يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ولما انتهى رأى إلى الخروج دخل النبي عليه الصلاة والسلام داره فلبس لباس الحرب وضاعف بين درعين ووضع لأمته وخرج .

وكان بعض ذوى الأسنان من المسلمين قد أدركوا وجاهة رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأحسوا الحرج الذى انساقوا إليه بحمل الرسول على أن يعمل بغير ما رأى ، فحين خرج عليه الصلاة والسلام بلباس الحرب ندموا ، وقالوا : بئس ما صنعنا ، نشير على رسول الله والوحى يأتية ، ثم قاموا فاعتذروا إليه ، وقالوا : اصنع ما رأيت .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، وكان أن خرج من المدينة فى ألف رجل وقد وعدهم بالنصر إن صبروا .

عرض الجيش

ولما بلغ الرسول مكان الشيخين^(١) ، عرض الجيش فرد الأحداث ، وكان ممن ردهم رافع بن خديج لصغر سنه ، فقام على خفين له فيهما رقا ، وتناول على أطراف أصابعه ليظهر فى مستوى الرجال ، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما فعل ذلك تقدم سمره بن جندب ، وهو ممن كان النبي أخرجه لصغر سنه ، يطلب إجازته هو كذلك لأنه أقوى من رافع بن خديج وفى إمكانه أن يصرعه ، فطلب إليهما

(١) مكان بضاحية المدينة عنده حصنان لشيخين من اليهود .

أن يتصارعا ، فصرع سمرة خديجا ، فقبل النبي الاثنين معا ؛ وكانت سنهما خمس عشرة سنة .

ونظم الرسول عليه الصلاة والسلام الجيش ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب ابن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير .

المنافقون ينسحبون

وظل الجيش الإسلامي بمكانه ، ثم سار سحراً حتى إذا بلغ الشوط ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، رجع عبد الله بن أبي إلى المدينة ومعه ثلثائة من المنافقين ، وقال يبرر حياته :

عصاني وأطاع الولدان فعلام تقتل أنفسنا ؟ !

وقد استنكر المسلمون هذه الخيانة ، وانبرى لابن أبي ، عبد الله بن عمرو ، قائلاً له ولأوشابه :

يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونيبكم .

قالوا : لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال ! فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى عنكم نبيه . وقد كادت الفعلة الشنعاء التي فعلها رأس المنافقين تفن طائفتين من الأنصار ، هما : بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سلمة من الأوس ، إذ هما بالرجوع ولكن الله عصمهما فثبتتا مع المسلمين .

سبعائة مسلم

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام بالجيش وقد صار عدده بعد انسحاب المنافقين سبعائة رجل ، حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ووجهه إلى المدينة .

مكان الرماة

ووضع الرماة في أصل الجبل في وجوه خيل المشركين وكان عددهم خمسين رامياً ،
وقال لهم :

لا تبرحوا مكانكم إن رأيتم قد هزمناهم ، فإننا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ،
وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وبعث ناساً فكانوا وراء الجيش ، وقال لهم : كونوا
هاهنا فردوا وجه من فرّا منا ، وكونوا حرساً لنا من قبل ظهورنا .
وأمر صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام أن يكون في مواجهة ميمنة المشركين ،
وأرسل رجالاً آخرين من ذوى البأس فكانوا مواجهين لميسرتها .

هدى الروح الأمين

وبعد أن أكمل النبي عليه الصلاة والسلام تعبئة الجيش ، قال :
لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال . ثم خطب المسلمين يحثهم على الصبر
والثبات ويرغبهم في لقاء الله ، وكان مما قاله :
ألقى في قلبي الروح الأمين ، أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ،
لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا ربكم وأجلوا في طلب الرزق ، لا يحملنكم
استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى
تداعى له سائر جسده .

تعبئة قريش

وعبأت قريش جيشها ، فجعلت على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها
عكرمة بن أبي جهل . وأقبل أبو سفيان يحمل تمثالا لصنمى اللات والعزى ، ووقفت
خلفه زوجته هند وحولها النسوة والإماء يضربن على الدفوف ، وينشدن صائحات :

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانق
ونبسط النمارق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

أبو سفيان يساوم الأنصار

وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : مالنا في قتالكم حاجة ، فخلّوا بيننا وبين ابن عمنا ، فردوا عليه ردًّا شنيعًا أخزاه .

الراهب الفاسق

ونادى أبو عامر الراهب الأوسى وهو في صفوف قريش الأنصار — وكان قد منى قريشًا بانضمام قومه إليه متى التقت الوجوه — فقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . قالوا : فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق !

فلما سمع ردهم قال : لقد أصاب قومي بعدى شر ! وكان هذا الفاسق من أشد الحار بين ضراوة وأشنعهم عداوة للمسلمين .

بدء القتال

وقد ابتدأ القتال بأن برز طلحة بن عثمان ، صاحب لواء المشركين ، وقال : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيفونا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة ، أو يعجلني بسيفه إلى النار ؟

فقام إليه على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال : والذي نفسي بيده ، لا أفارقك حتى أعجلك بسيفي إلى النار أو تعجلني بسيفك إلى الجنة ، ثم ضربه فقطع رجله ، فسقط فأنكشفت عورته ، فقال : أنشدك الله والرحم يا ابن عم ! فتركه ، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أمر بالهجوم

وأمر الرسول الكريم المسلمين بالهجوم ، فهجموا عليهم هجمة صادقة ، زلزلت صفوفهم وهدت كياناتهم ، وكان المسلمون رجال صدق في اللقاء ، وأسود غاب في النزال ، وكان منهم أبطال معلمون وفرسان مبرزون ، فانصبوا على المشركين

انصباب الصواعق ، وطرقهم طرق المطارق ، منهم أسد الله : حمزة بن عبدالمطلب فقد صال وجال وبطش واستطال وزلزل الصفوف وأرغم الأنوف ، ومُنَى المشركون منه بدهية دهياء وقارعة نكراء ، وبينما هو ماض قدماً يطيح الرؤوس ويحصد النفوس إذ بالعبد وحشى يترصده ويتحين انهماكه في قتل سباع بن عبد العزى ، حامل لواء قریش ، فيرسل حربته فتصيب أسفل بطنه وتخرج من بين رجليه . ويبصر أسد الله راميه ، فيهجم عليه يريد الفتك به ولكن قدميه تخونانه فيخر صريعاً كما تخر الجبال أو تهوى الكواكب .

أصحاب البلاء

ومن أبلوا بلاء حسناً في هذه المعركة : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وأبو دجاجة : سِمَاك بن خَرَشَة ، وعاصم بن ثابت ، وحنظلة ابن أبى عامر ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وقتادة بن النعمان ، وغيرهم كثيرون .

انهيار صفوف قریش

ولم تتحمل جنود المشركين قوة الحملة الصادقة التى رجعهم بها أبطال الإسلام ، وامتنحنهم بها جنود الله فانهاروا انهياراً تاماً ، وكثر فيهم القتل حتى قتل على بن أبى طالب خمسة من حملة لوائهم الواحد إثر الآخر ، وانكشفوا عن المعسكر وأخذت النساء فى الهرب ، وكادت الهزيمة تكون ، لولا ما سبق فى علم الله من امتحان المسلمين وإكرام بعضهم بالشهادة العظمى .

الرماة المسلمون يخذلون جيشهم

فقد حدث حين رأى رماة المسلمين هزيمة المشركين ، أن تركوا أماكنهم ليشاركوا غيرهم فى جمع الأسلاب وحيازة المغانم ، مخالفين بذلك الأمر الكريم الذى أمرهم به الرسول ؛ وهو عدم مبارحتهم أمكنتهم مهما تكن النتيجة : إن نصراً

وإن هزيمة ، ناسين ما ألقاه الرسول عليه الصلاة والسلام على أكتافهم من تبعات
جسام عند التعبئة حيث قال لهم : لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم .

وقد حاول عبد الله بن جبير ، رئيس الرماة ، أن يمنعهم من مخالفة أمر الرسول
فلم يسمعوا له ، ومضى أكثرهم يشارك في جمع المغانم ، فثبت هو ونفر قليل معه .

خيالة المشركين تنهز الفرصة

ورأى خالد بن الوليد قائد خيالة المشركين أن ظهر الجيش الإسلامي قد كشف
بما فعله الرماة ، فهجم على البقية الباقية منهم وأزالها عن مكانها ، وقتل رئيس الرماة ،
وجاء المسلمين من خلفهم فحمل عليهم هو وخيالته فزلزل صفوفهم ، وأشاع الفوضى
فيها حتى كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً ؛ لتعذر التفرقة في هذه الحال بين العدو
والصديق ، وهكذا تبدل الموقف بالنسبة للمسلمين من نصر لا شك فيه إلى فوضى
سائدة ، فهزيمة منكورة .

وكان لواء المشركين قد ألقى على الأرض أثناء هجمة المسلمين الصادقة على
المشركين بعد أن قتل المسامون حملته ، وشغل المشركون عنه بما كانوا مستغرقين فيه
من فشل وهزيمة ، فلما رأت إحدى نساءهم ما كان من نكاية خالد بن الوليد
بالمسلمين ، دلفت إلى مكان اللواء ورفعته لتعلن قومها المنهزمين بما حدث من تبدل
في سير المعركة ؛ فجمعوا شتاتهم وتنادوا بالكربة ، ويمموا شطر اللواء فالتفوا حوله ،
ثم كروا على المسلمين فأزالوهم عن أماكنهم : وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وتمشلاً ،
حتى أصبحوا بين قتيل وجريح ، وهائم على وجهه في الصحراء .

انكشاف موقف الرسول

وكان من جراء ذلك أن انكشف موقف الرسول عليه الصلاة والسلام ،
وما أن وقعت عليه أبصار المشركين حتى غلت في عروقهم دماء الحقد عليه ، فاتخذوه
غرضاً لسهامهم ، ولم يكن فيما حدث من تغير في الموقف وتعرض للخطر الحق

ما من شأنه أن يؤثر في نفس الرسول الزكية ، أو يحمله على مبارحة مكانه قيد أنملة ؛ بل وقف صلوات الله وسلامه عليه ثابتاً كالطود ، راسخاً كالعلم ، لا تهوله الأحداث على تعاضلها ، ولا تنال منه الخطوب على تفاقها ، فما أعظم وما أكرم ، وما أجل وما أخم ، صلى الله عليه وسلم .

وثبت مع الرسول جماعة من المسلمين ، آثروه على أنفسهم وقدموا أرواحهم فداء له ، منهم علي بن أبي طالب ، وأبو طلحة الأنصاري ، وسعد بن أبي وقاص وأبو دجانة : سمالك بن خرشة ، وسهل بن حنيف . وكلهم أبل في الدفاع عن رسول الله أعظم البلاء ، وكانت أجسامهم لجسمه الشريف خير وقاء .

فأما أبو دجانة ، فإنه جعل من جسمه ترساً يقي جسم الرسول السهام التي كانت توجه صوبه ، فأعطى ظهره لرماة المشركين ، وانحنى فوق الرسول إمعاناً في وقايته ، وحرصاً على أن لا يظل أي جزء من جسمه الشريف غرضاً للإصابة حتى ملأت السهام ظهره وهو ثابت لا يتزعزع ، صامد لا يتزعزع .

وأما أبو طلحة الأنصاري فإنه كان رامياً مصيباً ، وداهية في الحرب أريباً ، فوقف بين يدي الرسول ووقاه بحجفته ، ثم نثر كنانته وراح يرمي المشركين ، ويقول : وجهي لوجهك فداء ، وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لكل من معه نبيل : انثرها لأبي طلحة ، وجعل أبو طلحة كلما رأى الرسول يتحول قليلاً عن الجدار الآدمي الذي نصبه المسلمون الملتفون حوله من أجسامهم ، ليطلع على حركات الأعداء وموقع السهام منهم ، يقول له :

بأبي أنت وأمي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام الأعداء ، نحري دون نحر . أما سعد بن أبي وقاص ، فإنه كان كذلك يرمي المشركين بالنبل دفاعاً عن رسول الله ، وكان الرسول يقول له : ارم سعد ، فذاك أبي وأمي !

وتقدم خمسة من شباب الأنصار باعوا أنفسهم لله ، فدافعوا هجمة المشركين على الرسول ، واستشهدوا جميعاً واحداً إثر واحد ، وكان آخرهم زيادة بن الحارث ، فلما

أثخنه الجراح وأشرف على الموت، وسدّ الرسول قدمه حتى فاضت روحه مكانه هذا .
وخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حجر رماد به عتبة بن أبي وقاص ،
أصاب فيه فكسر رباعيته ، فانقض حاطب بن أبي بلتعة على هذا الجاني الأثيم فقتله .
وتقدم عبد الله بن شهاب الزهري فشج الرسول في جبهته ، ثم جاء ابن كَمَنة
فجرحه في وجنته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فيها ، فانزعجها أبو عبيدة
ابن الجراح فسقطت ثنيتاه صلى الله عليه وسلم .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليسقط فيها المسمومون ، فسقط
الرسول في واحدة منها ، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ، ورفع أبو طاحنة حتى استوى
قائماً ، ومصّ مالك بن سنان الدم من وجه الرسول وابتلعه ، فقال عليه الصلاة
والسلام : من مسّ دمي دمه لم تصبه النار .

وبينا كان دم الرسول يسيل على وجهه قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم
وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ^(١) » .

وفي هذا الوقت العصيب ، وعلى حين أجهد النفر القلائل الذين ثبتوا مع الرسول
وتلاشت قواهم أقبل أُبَيّ بن خلف أحد طغاة قريش ، يريد قتل الرسول ، وهو يقول :
أين محمد ؟ لا نجوت إن نجنا ، فأراد بعض الصحابة أن يتصدى له ، فقال عليه الصلاة
والسلام : خلوه ، ثم أخذ الحربة من الحارث بن الصمة أحد أصحابه الثابتين معه ،
وانتفض بها انتفاضة تطاير معها أصحابه من حوله تطاير الذباب عن ظهر البعير إذا انتفض
به ، ثم استقبل عدوه فطعنه بالحربة طعنة في عنقه ألقت به من على ظهر فرسه إلى الأرض
يتدحرج مراراً ، ورجع إلى قومه خائفاً مذعوراً يشكو الموت وهم يقولون : ما بك
من بأس ، فيجيبهم : والله لو بصق عليّ محمد لقتلني ! ^(٢) .

(١) آل عمران : ١٢٨ .

(٢) وبيان ذلك أن أياً كان يلقى النبي عليه السلام بمكة قبل الهجرة فيقول له : يا محمد عندي
فرس أعلفه جيداً لأقتلك عليه ، فكان الرسول يجيبه : بل أنا الذي أقتلك إن شاء الله .

وقد صدق ، فقد مات عدو الله في قفول المشركين إلى مكة قبل أن يصل إليها ، ولم يقتل رسول الله بيده غيره طوال حياته الشريفة .

وكان مما فت في عضد المسلمين وزادهم غمًا على غم وكرهًا على كرب ، فقدانهم الاتصال بالرسول وهتاف المشركين بأنهم قتلوه ، وكان الذي أطلق هذه الإشاعة عدو الله ابن قمئة ، فقد قتل مصعب بن عمير حامل راية المسلمين وهو يدافع عن رسول الله وتوهم أنه قتل الرسول نفسه ، فراح يهذى بوجهه ويملاً ما ضغيه خراً بما ظن أنه قد فعل ، فلما أطبقت هذه الإشاعة على جو المعركة ولم يكن هناك لدى المسلمين المتفرقين أيدي سبا ما ينقضها ، انهدت نفوسهم ، وخارت قواهم ، وزلزلوا زللاً شديداً ووقف جماعة من المسلمين بعيداً عن الميدان فيهم عمر بن الخطاب ، فأنهى إليهم أنس بن النضر أحد أبطال الأنصار ، وقال لهم : ما يجلسكم ها هنا ؟

قالوا : قتل رسول الله !

فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم هجم على المشركين فقاتل حتى قتل . رحمه الله من مسلم غيور ، وبطل جسور .

البشرى السعيدة بنجاة الرسول

وكان أول من اكتشف أن رسول الله في عصمة من كيد المشركين وأنه لا يزال بنعمة الله حياً ، كعب بن مالك الأنصاري ، ويقول كعب يصف ذلك :
عرفت عينيه تزهراً^(١) تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي :
يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إلى الرسول : أن انصت .
والحكمة في إشارة الرسول هذه أن لا ينتشر خبر نجاته فيبلغ المشركين فيجددوا محاولة الكيد له وما يزال الصحابة متفرقين .

ولما استيقن المسلمون من نجاة الرسول هرعوا إليه والتفوا حوله ، ونهض ونهضوا

(١) تزهراً : أي تضيئان .

معه، يقصد إلى أحد الشعاب ليتحصن بها ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين .

ولمح عثمان بن عبد الله بن المغيرة الرسول أثناء تحركه ، فشد عليه يريد قتله وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد . فشاء الله العزيز القدير أن يتردى به فرسه في حفرة فيخف إليه الحارث بن الصمة ، فيقتله ويرسله إلى جهنم وبئس المصير .

ولما استقر الرسول عليه الصلاة والسلام بالشعب جاءت ابنته فاطمة ، فغسلت وجهه بالماء ، وأزالته عنه الدم . وكان عليّ يصب الماء على وجهه الكريم ، ثم أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقتها وجعلت ترابها على الجروح فتوقف الدم عن السيلان .

ورأى النبي عليه الصلاة والسلام جماعة من المشركين يقفون على ظهر الجبل أعلى الشعب الذي كان فيه ، فقال : لا ينبغي لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك . فنهدهم إليهم عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين فأجلوهم عن مواقعهم .

وأشرف أبو سفيان على القوم وهو لا يثبتهم^(١) روية ، فقال :
أفي القوم محمد ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فالتفت أبو سفيان إلى أصحابه ، وقال : أمّا هؤلاء فقد قتلوا ، لو كانوا في الأحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال :

كذبت يا عدو الله ، قد أبقي الله لك ما يخزيك .

(١) لا يثبتهم : أى لا يتحقق رؤيتهم .

فقال : أَعْلُ هُبَيْل .

فقال الرسول : أجيئوه . قالوا بماذا نجيب ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

فقال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عزى لكم .

فقال الرسول : أجيئوه . قالوا ماذا نقول له ؟ قال : قولوا له :

الله مولانا ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، وموعدكم بدر العام المقبل .

ثم نادى أبو سفيان عمر بن الخطاب قائلاً : هَلُمَّ يا عمر .

فأذن له الرسول أن يأتيه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

فقال عمر :

اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

فقال : أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبرئ .

وكانت قریش قد بلغ بها التسفل حداً شنيعاً ، فقد مثلت بالقتلى ، فصلمت

الأذان ، وجذعت الأنوف ، وبقرت البطون ، وعمدت هند بنت عتبة زوج

أبي سفيان إلى بطن حمزة بن عبد المطلب ، فبقرت به وأخرجت كبده ولاكت قطعة

منها . وقبل أن ينصرف أبو سفيان من موقفه الأخير قال : إنكم ستجدون في قتلاكم

مُثَلَّةً ، لم أمر بها ولم تسوّني !

ثم انصرف المشركون عائدين إلى مكة .

الشهداء

وقد استشهد في هذه الموقعة بضعة وسبعون رجلاً من المسلمين منهم ، من المهاجرين :

حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير . ومن الأنصار : حنظلة بن أبي عامر ،

وعمر بن الجوح ، وابنه خلاد بن عمر ، وسعد بن الربيع .

وكان بعض أهل القتلى قد هموا بحمل موتاهم ليدفنهم بالمدينة ، فنهى النبي عليه

الصلاة والسلام عن ذلك ، وأمر بدفنهم موضع استشهادهم .

وقد حزن الرسول الكريم حزناً شديداً على وفاة عمه حمزة بن عبد المطلب ، ثم عاد إلى المدينة إثر الفراغ من دفن الشهداء .

المهالكون

وقتل من قریش في معركة أحد ، اثنان وعشرون قتيلاً ، بينهم جماعة من طغاة قریش مثل : طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين ، وعثمان بن أبي طلحة ، وهشام ابن أبي المغيرة ، والوليد بن العاص .

غلطة حربية تمنجى المسلمين

كان انصراف قریش من أحد مكتفين بما أصابوا من الثأر موضع العجب . ولم يكن مما يتفق وأصول الحرب أن يرجع الجيش الغالب من غير أن يتعقب الجيش المغلوب فيجهز عليه ، ولكن إرادة الله عز وجل قد سبقت بعصمة رسوله ونصرة دينه ، فصرفت قریشا عن تدبير الحرب الصحيح ، وجعلتهم يقنعون بما حصلوا عليه من النصر ويقتلون راجعين .

ولم يفك المعنى الذي ذكرناه من انصراف قریش في إثر انتهاء المعركة ، النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يخشى أن تعيد الكرة على المسلمين ؛ ومن أجل ذلك أدنى على بن أبي طالب وهو في مكانه الذي لجأ إليه بعد انتهاء المعركة ، وأسر إليه أن ينظر هل يركب المشركون عند انصرافهم الخيل أو الإبل ؟ فإنهم إذا ركبوا الخيل كان معنى ذلك أنهم سيقصدون إلى المدينة للاستيلاء عليها ، أما إذا ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فإنهم سيعودون إلى مكة .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي : أي ذلك كان ، فاحفه حتى تأتيني . قال على رضي الله عنه : فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة ، أقبلت أصيح ، ما أستطيع أن أكنم الذي أمرني به الرسول عليه الصلاة والسلام لما بي من الفرح .

غزوة حمراء الأسد

وعلى الرغم من عودة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فإنه لم يمكث بها إلا ليلة واحدة ، ونادى مناديه في اليوم التالي لمقدمه في الناس بالنفرة في طلب العدو ، على أن لا يخرج من الصحابة إلا من شهد أحداً منهم ، وسار بالجيش حتى بلغ حمراء الأسد فعسكر بها وهي على بعد ثمانية أميال من المدينة .

والحكمة في هذا التدبير الحربي ظاهرة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتوقع دائماً أن يعيد المشركون الكرة على المسلمين ، طبقاً لما هو واضح من سياسة الحرب ، ذلك إلى أنه قد يكون من مقاصده الشريفة في اتخاذ هذا التدبير صرف من أصابتهم مصائب أو جراحات في موقعة أحد عن التفرغ للحزن على مصابهم ، أو أن يفهم قريشاً والعرب من ورائها بأن القوة الإسلامية لا تزال قوية قادرة على دحر العدو الذي توسوس إليه نفسه بخلاف ذلك تأثراً بما مُنيت به من خسائر في موقعة أحد .

وقد أتى هذا التدبير الحكيم ثمره من جميع الوجوه ؛ فقد حدث ما كان يتوقعه الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أسف قريش على ما فاتها من الإجهاز على المسلمين ودخول المدينة ، وأدركت أنها أخطأت خطأً حريئاً فاحشاً ، فاعتزمت تدارك ما فاتها ، وقررت العودة إلى المدينة عندما بلغت الروحاء ، وعلى ذلك عسكرت فيها تأهباً لإعادة الكرة .

نصير من غير الدين

وبينما النبي عليه الصلاة والسلام في معسكره بجمراء الأسد ، مرّ به ركب من خزاعة على رأسه معبد الخزاعي وهو مشرك ، وكانت خزاعة كلها : مساهماً ومشركها تميل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، تناحبه وتوافيه بالأخبار ، وتحب له النصر على قريش ، وقال معبد للنبي :

أما والله يا محمد ، لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله كان أعفأك منهم .

ثم خرج معبد من عند الرسول وسار حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا جدَّ أصحابة وقادتهم وأشرفهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، لنكُرنَّ على بقيتهم فلنفِرْغَنَّ منهم .

فلما رأى أبو سفيان معبدا ، قال ما وراءك يا معبد ؟

قال معبد : ورأى أن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، وهم مملوءون حقاً عليكم ، ورغبة في التشفى منكم . قال أبو سفيان : ويلك ما تقول !

قال معبد : والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل .

قال أبو سفيان : لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فإنى أنهارك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيه أبيتاً من الشعر .

ثم أنشده أبيتاً ارتجلها ، فيها تهويل لجيش الرسول ، وتفخيم لشأن المسلمين ، وإنذار لقريش بالويل والثبور ؛ فثنى ذلك أبو سفيان عن عزمه وواصل السير إلى مكة .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام في وجهه إلى حمراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي ، الشاعر الغادر الذي من عليه الرسول بالإطلاق من الأسر في واقعة بدر من غير فدية ، وشرط عليه أن لا يظهر عليه أحداً ولكنه خان وغدر — على ما مر ذكره

في واقعة أحد — فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بضرب عنقه ، فترضع إليه أن يعفو عنه مرة أخرى فأبى ، وقال : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين !

عودة الرسول إلى المدينة

وظل الرسول عليه الصلاة والسلام معسكراً بجمراء الأسد ثلاثة أيام حتى جاءه رسول من معبد الخزاعي يخبره بما كان منه مع قريش ، وكيف أمها قد أخذت بما هوّل لها من جيش محمد وعظم استعداداته فرجعت إلى مكة ، وحينئذ قفل الرسول عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة .

وقفه لا بد منها على معالم أحد

ابتلاء وعزاء

إن تكن الرسل قد أمدّت بالمعجزات في بعض المقتضيات ، فإن إرادة الله عز وجل ، مني النبيين ومرسل المرسلين ، قد شاءت أن تمضي عامة شئون رسله مجرى السنن الطبيعي ، فيتداولها الخير والشر وتتعاورها الهزيمة والنصر ليبرز مناط التكليف بعد أن يختار الله إلى جواره من شرفهم بتبليغ رسالته ، إذ مما هو واضح أن المعجزات خصوصيات لهم والخوارق إنما تحدث في حياتهم ، ثم يكون أن تستقر الأمور على الهدى العام الذي شرعه الرسل ، وحسب ما تقضى به قوانين الكون ، وتوحى به توجيهات العقل والمنطق ، وتكشف عنه التجربة ، وينتهي إليه الاجتهاد .

ولقد كانت غزوة أحد مثلاً معبرة أبلغ التعبير وأوضحه عن المعاني التي أسلفناها من اقتضاء إرادة الله سبحانه وتعالى أن تمضي سياسة المؤمنين وفقاً لقوانين الكون ، وجرياً على سنن الطبيعة ؛ حتى لا يفتنوا عن أنفسهم ، ولا يحدّثوا عن حقيقتهم ، ولكي لا يكلوا أمورهم دائماً إلى المعجزات والخوارق ، فيخرجوا على حكم الله في خلقه ، وينحرفوا عن سنة الله في عبادته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

كانت غزوة أحد — والشأن على ما قدمنا — درساً بليغاً للمسلمين أفادوا منه فوائد جمة ، وحصلوا منه على عبر كثيرة ، وكان أهم ما أفادوه وأبلغ ما وعظوا به أنهم — أولاً وآخرأ — بشر مثل سائر الناس ، وأن كون الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم لا يعفيهم من العمل والاجتهاد ، ولا يكفل لهم النصر إن هم سلكوا مسالك الهزيمة ؛ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نفسه إنما هو بشر مثلهم يجري عليه ما يجري عليهم وهو عرضة لمثل ما يصيبهم من أنواع الحزن ، وضروب الابتلاء :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » (١) .

لقد رسم الله ورسوله للمسلمين خطة النصر ، وكشف لهم عن وسيلة الفتح ، ثم وكلهم إلى أنفسهم في اتباع هذه الخطة أو الانحراف عنها على قدر ما يجري عليه منط التكليف ، ولقد سمعوا وأطاعوا أول الأمر فكان النصر حليفهم ، ولكنهم فتنوا حين أغراهم النصر الأول بالجنوح عن الطاعة ، فترك الرماة مواضعهم التي حددها لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم لا تتركوها نصرنا أو هزمنا ، وذلك لكي يشتركوا في جمع الأسلاب ، ويأخذوا بحظهم من المغنم ، فكانت الكرة على المسلمين بسبب هذه الفعلة الشنعاء .

ولقد أنزل الله في يوم أحد قرآناً كريماً اشتملت عليه سورة آل عمران ، وصف المولى عز وجل فيه خلجات النفوس وخفقات القلوب ، وعاتب المسلمين على ما فرط منهم ، وأدبهم أدباً إلهياً عظيماً ، وعزاهم عزاء كريماً ، فقال تعالى :

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ^(١) .

ثم وعدهم بالنصر إذا صدقوه الإيمان وأخلصوا في طاعة الرسول :
« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٢) » .
ثم أتم الله نعمته على المسلمين حين أكرمهم بالعفو عما كان منهم من زلل، فقال :
« وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(٣) » .

أخبار اجتماعية

ونجمل هنا أخباراً اجتماعية وقعت في السنة الثالثة من الهجرة ؛ ففيها زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته السيدة أم كلثوم من عثمان بن عفان ، بعد أن ماتت زوجها السابقة السيدة رقية بنت الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء غزوة بدر ، وقد كان عثمان يلقب بذي النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول عليه الصلاة والسلام .
وتزوج الرسول عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، بعد أن توفي زوجها خنيس بن حذافة السهمي متأثراً بجرح أصابه في بدر .

وتزوج الرسول كذلك زينب بنت خزيمة الهلالية ، بعد أن توفي زوجها عبد الله ابن جحش في موقعة أحد ، وكانت تدعى في الجاهلية : أم المساكين ، لكثرة برها الفقراء ، وإحسانها إلى المساكين .

وفيهما ولد الحسن بن علي بن أبي طالب — وأمه فاطمة بنت الرسول — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١) آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

(٣) آل عمران : ١٥٢ .

وفي هذه السنة حرّمت الخمر ، وكانت شائعة بين العرب يتباهون بشربها ، ويعدونها من أسباب الجحد والفتوة . وقد تدرج الشارع في تحريمها مراعاة لذلك ، فكان أول ما نزل بشأنها قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ^(١) » .

فشربها بعد ذلك بعض وتركها بعض ، فلما حدث أن سكر بعض المسلمين وصلى فخلط في قراءته القرآن ، نزل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ^(٢) » .

فامتنع المسلمون من الصلاة وهم سكارى .

وحدث بعد ذلك أن سكر أناس من المسلمين فتلاحوا فيما بينهم ، واعتدوا على بعضهم البعض ؛ فأنزل الله فيها تحريماً قاطعاً ، قال سبحانه وتعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ ^(٣) » .

السنة الرابعة الهجرية

غدر وخيانة

أسلفنا أن السواد الأعظم من العرب كان لا يزال مشركاً ، وكان إلى جانب شركه غير مسلم للإسلام ، بل كان حريصاً على الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

ملوءاً حقداً عليه ، يحاربه بجميع الوسائل لا يستثنى عذراً أو خيانة ، ولا يتحرج من كذب أو تقيصة .

وسنقص فيما يلي نبأ حادثين من أشنع حوادث الغدر الوضع الذي راح ضحيتهما رهط من خيرة الصحابة ، وباء بإثمهما من ارتكبوها من صعاليك الأعراب وأوغادها .

خيانة الرجيع

قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام في شهر صفر من هذه السنة رهط من عَضَل^(١) والقارة ، وقالوا يارسول الله إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفرأ من أصحابك ، يفقهوننا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة من خيرة الصحابة ، خرجوا بهم قاصدين إلى منازلهم ، فلما بلغوا الرجيع^(٢) غدروا بهم ، ودلوا عليهم قبيلة هذيل ، وهم يعلمون أن لهذيل ثأراً عند المسلمين !

وبينا كان الصحابة في رحالهم ، رأوا هذيلاً تحيطهم بسيوفها ، فعمدوا إلى سيوفهم فاستلوها ، وصعدوا جبلاً هناك ليتحصنوا به ، فقالت لهم هذيل : ما بنا إلى قتلكم من حاجة ، إنما نريد أن نصيب بكم شيئاً من قریش ، فانزلوا ولكم عهد الله وميثاقه أن لا تقتلكم .

وقد أبى جماعة من الصحابة أن يقبلوا عهداً من مشرك ، وآثروا الشهادة على ذلك ، فقاتلوا حتى قتلوا ، ووثق آخرون بعهد المشركين وأسلموا ذات أيديهم ، وكانوا ثلاثة ، فأخذوهم وغدروا بهم ، فلما رأى أحد المسلمين بوادر الغدر قاتل حتى قتل ، وبقي من الصحابة اثنان باعتهما هذيل لبعض الموتورين من قریش ليقتلوهما في وترهم .

(١) عضل والقارة : اسم نخذين من قبيلة الهون بن خزيمة بن مدركة .

(٢) الرجيع اسم ماء لهذيل بين عسفان ومكة .

وكان أحد هذين الصحابين ، خُبَيْب بن عدي ، فلما قُدِّمَ لِيُقْتَلَ طلب أن يمهله حتى يصلي ركعتين فمكثوه من ذلك ، ثم قال : والله لولا أنني أخشى أن أتهم بالخوف من الموت لأطلت الصلاة ، ثم أنشد أبياتاً منها قوله :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وقدَّم فَضْرِبْتُ عنقه .

أما ثاني الاثنين فهو زيد بن الدثنة ، ولما قدم ليقتل دنا منه أبو سفيان بن حرب وسأله :

أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأناك في أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي !

فقال أبو سفيان :

ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد ومحمد !

خيانة بئر معونة (١)

أما الخيانة الثانية ، فقد وقعت في شهر صفر نفسه ، ومن سوء الاتفاق أن خبرها وصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في اليوم نفسه الذي وصل إليه خبر الخيانة الأولى ، وكان هذين الخبرين السيئين ، أثر عميق في نفسه ، فحزن لهما حزناً بليغاً .

وكان من حديث هذه الخيانة ، أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر : ملاعب الأُسنة سيد بني عامر ، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام فلم يستجب ولم يستنكر ، ولكنه قال :

(١) بئر معونة تقع بين أرض بني عامر وبني سليم .

يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

إني أخشى عليهم أهل نجد .

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

ولما كان النبي الكريم حريصاً جداً على أن تبلغ دعوة الإسلام العرب ، وكان أبو براء معروفاً بالحفاظ على العهد ، فقد أرسل معه وفداً من خيار المسلمين وقهائمهم برياسة المنذر بن عمرو ، وكان عدد رجال هذه البعثة سبعين رجلاً ، وكانوا يسمون القراء لعظم تفقهم في الدين .

وسارت البعثة حتى نزلت بئر معونة ، فبعث رئيسها واحداً منها إلى عامر ابن الطفيل ليدعوه إلى الإسلام فقتله ، ثم استصرخ بني عامر على البعثة فأبّت أن تنفر معه حفاظاً على عهد أبي براء .

وكان عامر بن الطفيل فظاً غليظ القلب ، شرساً خائن العهد ، فمضى إلى قبائل بني سليم وأثارها على بعثة المسلمين ، فهجمت عليهم في عدد لا يحصى ، ولجأ المسلمون إلى سيوفهم وقاتلوا جموع الأوغاد حتى قتلوا جميعاً ما عدا كعب بن زيد ، فإنه عدّ بين القتلى في حساب الأوغاد لشدة جراحه ، فلما انصرفوا تحامل على نفسه ونجا . وكان عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار ، وهما من بين أفراد هذه البعثة ، قد خرجا يريعيان إبلها ، فلما عادا وأبصرا الطير تحوم على العسكر علما ما حل بالقوم ، فتشاورا في الأمر ، فأشار عمرو على الأنصاري أن يذهب فيخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بما كان ، فأبى وقال :

ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل المنذر بن عمرو فيه ، وما كنت لأخبر عن قتل الناس ، ثم حارب القوم حتى قتل .

أما عمرو فقد أسره الأوغاد ، ثم سألوه عن نسبه فأخبرهم أنه من مضر فأطلقوه ،

وعاد فخير الرسول خبر البعثة ، حزن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أصابها حزناً شديداً ، وقال :

هذا عمل أبي براء ، لقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً .
ولما بلغ أبا براء إخفار عامر بن الطفيل ذمته ساء ذلك .
وأنف أحد فرسان بني عامر من غدر عامر بن الطفيل بجيران عمه أبي براء ،
فصر به بالسيف يريد نفسه ، ولكنه جرح ولم يمت بل أخر لميته أشنع ، وأجل
أقطع ، كما سيرد ذلك في محله من هذا الكتاب إن شاء الله .

إجلاء بني النضير

كان يهود بني النضير حلفاء للخزرج ، وكانوا ما يزالون حتى الآن داخلين في
العهد الذي قطعه الرسول الكريم لهم إثر مقدمه المدينة ، ولكن اليهود عامة قد
ورمت أنوفهم من استتباب أمر النبي بالمدينة والتفاف الأنصار حوله ، وودّوا
لو استطاعوا الخلاص منه أو القضاء عليه .

وحدث إثر حادث بئر معونة ، أن عمرو بن أمية الضمري — أحد أفراد البعثة
الإسلامية التي أوفدها الرسول عليه الصلاة والسلام لنشر الإسلام في نجد والتي غدر
بها عامر بن الطفيل — صادف أثناء رجوعه إلى المدينة اثنين من بني عامر كانا على
عهد من الرسول وعمرو لا يعلم ، فقتلها انتقاماً لشهداء الصحابة في بئر معونة ، فلما
قدم المدينة أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأسف الرسول على ما حدث ، وقرر
أن يديهما^(١) وفاء بعهدهما .

وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى
إلى قباء وإلى بني النضير يطلب العون على دفع دية القتيلين ، فلما استقر في منازل
بني النضير وأفصح لهم عن مقصده ، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما
استعنت بنا عليه .

(١) أى يدفع ديتهما .

ثم خلا بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنداً إلى جدار من جذرهم ، فانفقوا على أن يعلو البيت أحدهم فيلقى عليه صخرة تقتله ، ويستريحوا منه في زعمهم ، وانتدب عمرو بن جماش نفسه للقيام بهذه المهمة .

وعارض سلام بن مشكم أحد رؤسائهم هذه المؤامرة ، وأنذر قومه بأن محمد سيوحى إليه بتديريهم وتكون الحرب ، فلم يسمعوا له ، وصعد عمرو بن جماش ليحقق المؤامرة ، فأوحى الله إلى نبيه الكريم بما دبره القوم ، فقام كأنه يريد حاجة وقصد إلى المدينة رأساً ، وظل اليهود ينتظرونه ويقولون : أبطأ أبو القاسم ، ما حبسه ؟ ولما استبطأ الصحابة عودة الرسول قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً قادماً من المدينة أخبرهم أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل المدينة ، فأتوه وأخبرهم بما هم به اليهود من قتله ، وكيف أن الله عز وجل عصمه منهم .

ثم دعا الرسول عليه الصلاة والسلام محمد بن مسleme أحد الأنصار ، وأرسله إلى بني النضير ليقول لهم على لسان الرسول :

« اخرجوا من بلادى فلا تسأكنوني ، وقد هممت بما هممت به من الغدر » .
فجاءهم محمد بن مسleme وبلغهم الرسالة ، فقالوا له : ما كنا نظن أن يجئنا بهذه الرسالة رجل من الأوس !

فقال محمد بن مسleme : تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود (يقصد العهود السابقة على الإسلام) .

فقالوا : نتحمل .

ولكن رأس المناقطين عبد الله بن أبي أرسل إليهم يقول : لا تخرجوا ، فإن معي من العرب ومن انضوى إلى من قومي ألفين ، فأقيموا فهم سيدخلون معكم .
فأرسل زعيمهم جدى بن أخطب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يقول له :
إننا لا نبرح دارنا ، فاصنع ما بدا لك !

وهنا كبرَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأذن بنى النضير بحرب ، فهرعت الصحابة إلى الرسول ، وذهب عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان من كرام المسلمين ، إلى دار أبيه رأس المنافقين ليأخذ سيفه ويلحق بالنبي عليه الصلاة والسلام وعند أبيه جماعة من بنى النضير ، يطالبونه بإنجاز وعده من نصرتهم ، فلما رأوا ما صنعه ابنه ولم يجدوا أثراً لتحركه أو أحداً ممن ذكروهم ، رجعوا إلى ديارهم وتحصنوا بها .

وحاصرهم الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة عشر يوماً ، ثم صالحوه على أن يحقن دماءهم ويأخذوا من أموالهم ما حملته إبلهم غير السلاح ، فقبل الرسول ذلك ، وجلا بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى أذرعات بالشام .

وقد قسم الرسول عليه الصلاة والسلام أموالهم الثابتة ، وما عجزوا عن حمله من منقول على المهاجرين ليرفع ثيوبهم عن الأنصار ، فقد كانوا يعينون المهاجرين بأموالهم ويقاسمونهم أرزاقهم ، وأعطى الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة من الأنصار لأنهم كانوا فقراء .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وكان حامل رايته على بن أبي طالب رضى الله عنه .

غزوة ذات الرقاع

وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بعد إجلاء يهود بنى النضير بالمدينة حتى شهر جمادى الأولى ، ثم بلغه أن جموعاً من قبيلتي بنى محارب و بنى ثعلبة من غطفان تمهياً لغزو المدينة ، فخرج غازياً هاتين القبيلتين حتى بلغ ديارهم ، وتصاف الفريقان ولكن لم تقع بينهما حرب ؛ إذ تفرقت القبائل خوفاً منه في الجبال .

وقد شرعت صلاة الخوف في هذه الغزوة ، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وسُميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأسباب كثيرة سردها المؤرخون ، أشهرها أن الأرض التي تقابل فيها الفريقان ذات ألوان مختلفة ، أو أن الصحابة رقعوا أرجلهم حين تقطعت نعالهم من كثرة السير .

واستخلف الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة عثمان بن عفان على المدينة .

غزوة بدر الآخرة

كان أبو سفيان قد واعد المسلمين ، إثر انتهاء موقعة أحد ، بدرًا من العام المقبل ، ولما دنا هذا الموعد لم يأنس من نفسه القوة للوفاء بوعده ، فعمد إلى الحيلة والتظاهر ليدراً بهما عن نفسه خلف الوعد . فأما الحيلة فإنه استأجر نعيم بن مسعود الأشجعي - بعد أن علم منه أن النبي يتأهب للغزوة في جيش كبير - ليذهب إلى المدينة ، فيثبط عزائم المسلمين بما يفتره عن عظم استعداد قريش ، وكثرة جيشها وقوة سلاحها . وقصد نعيم إلى المدينة ، وقام بمهمته على أكمل وجه حتى كاد يفلح فيها ، وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فتور بعض الناس عن الغزو ، فقال :

« والذي نفسى بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي » .

وعندئذ تدارك الله المسلمين برحمته ، فأثار بصائرهم ، وشد عزائمهم ؛ فحققوا سراعاً مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستصحبوا معهم تجارتهم لأن بدرًا كانت سوقاً تقام كل عام ثمانية أيام ، يتجر فيها العرب كلهم من جميع أنحاء الجزيرة . وسار النبي صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه ، وعدته ألف وخمسمائة مقاتل ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، وذلك في شهر شعبان من السنة الهجرية الرابعة .

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام بدرًا عسكر بها ، وأقام ينتظر قريشاً . أما التظاهر الذي عمد إليه أبو سفيان فإنه خرج بقريش حتى نزل مجنة من ناحية الظهران على مسيرة ليلتين من مكة ، ثم قال لقريش :
يامعشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ، وإني راجع ، فارجعوا . فرجع الناس متخاذلين ، مستهدفين لقليلة العرب وشماتة المسلمين .

أما المسلمون فقد ظلوا ببدر ثمانية أيام ، ولما لم يصادفوا حرباً انفردوا بتجارة الموسم ، فباعوا واشتروا ، وربحوا الدرهم درهمين والدينار دينارين ، ثم عادوا إلى المدينة سالمين راجحين . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُبُوءٌ ، وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » ^(١) .

أخبار اجتماعية

في السنة الرابعة من الهجرة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة زوج أبي سلمة بعد أن توفي عنها ، وهو ابن عمه رسول الله وأخوه من الرضاعة .

وفيها أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ، وقال له : إني لا آمن أن يبدلوا كتابي .

وفيها توفيت زينب بنت خزيمة زوج الرسول .

السنة الخامسة الهجرية

غزوة دومة الجندل ^(٢)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه قد أصبح غرضاً لجميع مشركي الجزيرة العربية ، كل قبيلة تحاول أن تغزو المدينة لتكسر شوكة الإسلام ، ولتملأ يديها من المغنم ، ومن أجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يتحسس الأخبار ، ويتحرى حركات الأعراب حتى لا يؤخذ على غرة .

وكان فيما جاءه من الأخبار أن جمعاً من الأعراب بدؤوا الجندل ينوى غزو المدينة ، فخرج عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه في شهر ربيع الأول من هذا العام ، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ الغفاري ، وكان عليه الصلاة والسلام

(١) آل عمران : ١٧٤ .

(٢) بلد على مسيرة خمس عشرة ليلة من المدينة بجوار الشام .

يسير الليل ويمكن النهار ، فلما قرب من دومة الجندل نذر به القوم ففرقوا ، واستولى
المسامون على ماشيتهم وأموالهم ، ثم رجع إلى المدينة سالماً غانماً .

غزوة بني المصطلق

كانت قبيلة بني المصطلق حرباً على المسلمين ، فقد آذنت قريشاً في غزوة أحد ،
وشاركتها في دماء الشهداء ، ولم تكثف بذلك بل أعدت العدة لغزو المدينة وقتال
المسلمين ، وبلغ النبي الكريم ما أجمعت عليه هذه القبيلة ، فتجهز لغزوها .
وخرج عليه الصلاة والسلام في شعبان من هذه السنة على رأس جيش كبير ،
وخرج معه المناقون لأول مرة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ، طمعاً في عرض الدنيا
لا عملاً على نصرة الرسول .

ومضى الرسول الكريم قدماً نحو عدوه حتى لقيه على ماء يسمى « المرَيْسِع »
من ناحية قديد إلى الساحل ، وكان رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار ،
فتراخف الناس واقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزم الله بني المصطلق ، وولى رئيسهم هائماً
على وجهه ، ووضع المسامون أيديهم على الأموال وسبوا النساء ، وكانت ابنة رئيس
هذه القبيلة ، واسمها بريرة ، بين السبايا ، ووقعت في سهم رجل من الأنصار فكاتبته
على قدر من المال لتشتري نفسها ، وجاءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تستعينه
في المكاتبه ، فقال لها الرسول الكريم : أو خير من ذلك ؟ قالت ما هو يا رسول
الله ؟ قال : أودى عنك مكاتبتك وأتزوجك . قالت : رضيت ، وسماها
الرسول : جويرية .

فلما سمع المسامون بذلك ، قالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسلوا
ما بأيديهم ، فأعتق بسببها أهل مائتي بيت من قومها .

ولما علم بنو المصطلق بذلك هزتهم هذه الأريحية ، فجاءوا إلى النبي عليه الصلاة
والسلام وأسأموا كلهم ؛ فلم يكن هناك من العرب امرأة أبرك على قومها من جويرية
بنت الحارث أم المؤمنين : تزوجت من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأعتق

بسببها كل من أسر أو سبي من قومها ، ثم أسلموا جميعاً ، وصاروا قوة للإسلام بعد أن كانوا حرباً عليه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اصطحب معه في هذه الغزوة زوجتيه السيدتين عائشة وأم سلمة ، لأن القرعة خرجت عليهما .

من حوادث المنافقين

قدّمنا أن عبد الله بن أبي ، رأس المنافقين ، خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم لأول مرة في غزوة بني المصطلق طلباً لعرض الدنيا ، وقد حدث بعد أن انتهت المعركة أن تزاحم على البئر لسقيا الماشية ، أجير لعمر بن الخطاب وحليف للخزرج ، وأدى التزاحم إلى تضارب ، فقد ضرب أجير عمر حليف الخزرج ، فصاح الحليف يا للخزرج ، وصاح الأجير يا للمهاجرين ! وسارع كل من الفريقين إلى استجابة النداء ، وكادت تكون فتنة لولا أن أسرع الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ ولما أخبر الخبر تدخل بحكمته حتى فضّ المشكل على ما يرضى الطرفين .

واستغل عبد الله بن أبي هذا الحادث ، فجلس بين رهط من الخزرج ، وقال : ما رأيتم كالיום مدّة ، أو قد فعلوها ؟ ! نافرونا في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول : سمنك بك يا كلك ، أما والله « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

ثم وجه الحديث إلى من حوله من الخزرج ، وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد ، فأيتتم أولادكم ، وقلتم وكثروا .

وسمع هذا الدّسّ زيد بن أرقم ، وهو فتى في صدر الشباب ، فأخبر عمه بما سمع ،

فذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فأشار على النبي بقتل عبد الله بن أبي ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها .

ومشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لما بلغه أن حديثه مع بعض الخزرج قد نقل إليه ، فحلف بالله ما قال شيئاً من ذلك .

وكان ابن أبي شريفاً في قومه ، فقال من حضر هذا الحديث من الأنصار : عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل .

فلما سار الرسول مرتحلاً لقيه أسيد بن حضير ، وسأله بعد أن حياه بتحية النبوة ، لماذا ارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ؟ فقال له الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟

قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : عبد الله بن أبي ، قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل !

قال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه ، إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، أرفق به ، فوالله لقد جاء الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكاً !

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم بالناس سيراً حثيثاً ، يومهم هذا حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم الثاني ، حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فما هو أن وجدوا مسّاً الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل الرسول ذلك ليشغل الناس بما هم فيه من جهد عن الحديث الذي كان بالأمس .

ثم سار الرسول حتى نزل بماء يقال له النعواء ، فنزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق لرواية زيد بن الأرقم ، وتسفيه للمنافقين ورأسهم عبد الله بن أبي .

أنا أحمل إليك رأسه !

و بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ، أن الرسول يريد قتل أبيه ، وكان عبد الله « الابن » من كرام الصحابة وعيون المجاهدين ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

قد بلغني يا رسول الله أنك تريد قتل عبد الله بن أبي ، فإن كنت فاعلا فمُرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت انلخرج ما كان هناك رجل أبر بأبيه مني ، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا .

حديث الإفك

وحدث أثناء الرجوع من غزوة بني المصطلق كذلك أن نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلاً في ليلة من الليالي ، وكانت السيدة عائشة قد ذهبت لقضاء حاجة ، فلما رجعت التمسّت عقداً لها فلم تجده ، وأدركت أنها أضاعته مكانها الذي كانت فيه ، فرجعت إليه لتلتقطه ، وحدث في هذه الساعة أن أذن النبي عليه الصلاة والسلام في الناس بالرحيل ، فجاء المكلفون رفع هودج السيدة عائشة على الجمل فرفعوه ، وهم يظنون أنها فيه ، ولم يلحظوا خلوه منها لخفة جسمها .

فلما رجعت السيدة عائشة ومعها عقدها وجدت الناس قد رحلوا ، فتلفت بجلبابها واضطجعت في مكانها ، موقنة أنهم متى افتقدوها رجعوا إليها .

وبينما هي في مكانها مر بها صفوان بن المعطل السلمى ، وكانت وظيفته تعهد مكان الجيش بعد رحيله ليتدارك من عسى أن يكون قد تخلف عنه أو ترك مكانه فلما رأى سواداً أقبل عليه فعرف السيدة عائشة ، لأنه كان يراها قبل أن يفرض الحجاب فاسترجع ، ثم قرب بغيره واستأخر وقال اركبي يرحمك الله ، وسار بها

حتى أدرك الركب ، وكان غيابها لم يحسه أحد ، فلما رآه الناس يقود بعيره وعليه السيدة عائشة انطلقت ألسن المناققين بالإفك ، وهلك بعض الناس بالوقعة فيها .

واتفق إلى ذلك أن مرضت السيدة عائشة ، ورأت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم تغيراً وهي لم تسمع شيئاً من قول أهل الإفك ولا أخبرها أحد من أهلها به ، فاستأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في أن تذهب إلى أهلها ليتولوا تمريضها ، فأذن لها بذلك . وكان وقع تخرصات أهل الإفك شديداً جداً على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستشار من يثق به في الأمر ، فأثنى بعضهم خيراً على زوجه ، وأشار على بن أبي طالب بطلاقها قائلاً : النساء غيرها كثير .

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام آثر التريث ، ولما نهت السيدة عائشة خرجت ذات ليلة لقضاء حاجة ومعها أم مسطح بنت أبي رهم فعثرت في ثوبها فقالت : تعس مسطح — أى ابنها (وكان مسطح بن أثاثة من أكبر الأفاكين) فقالت عائشة : بئس ، لعمر الله ، ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدمراً ؟ قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟

قالت عائشة : وما الخبر ؟

فأخبرتها أم مسطح بالذى قد كان من قول أهل الإفك ، فبكت حتى كاد كبدها أن يتصدع .

وقام رسول الله عليه الصلاة والسلام في الناس يخطبهم ، قائلاً :

أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى في أهلى ، ويقولون عليهن غير الحق ، والله ما علمت منهن إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما دخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى .

وذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى عائشة وعندها أبوها وامرأة من الأنصار تسعد^(١)ها على البكاء ، فقال لها الرسول :

(١) تسعد^(١)ها على البكاء : أى تعينها عليه بالبكاء معها .

يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتق الله ، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده .

وانتظرت عائشة أن يحيب عنها أبواها ولكنهما لم يفعلا ، فقالت :

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله لئن أقررت بما يقول الناس — والله يعلم أنى منه بريئة — لتصدقنى ، ولئن أنكرت ما يقولون لا تصدقونى ، ولكنى أقول كما قال أبو يوسف :

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ »

وكانت عائشة لا تطمع أن ينزل فيها قرآن ، ولكنها كانت ترجو أن يرى الرسول رؤيا تكذب ما قيل فيها ، وتحقق براءتها مما اتهمت به ، ولكن الله عز وجل كان أرحم برسوله وبها ، فحقق ما لم تكن تطمع فيه ، وأوحى إلى رسوله الكريم وهو لم يبرح مكانه الذى ساءلها فيه بما ساءلها آنفاً ، فلما سرى عن الرسول أخذ يمسح العرق عن جبينه ، ثم التفت إلى السيدة عائشة ، وقال لها :

أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . فقالت أم السيدة عائشة لها : قومى ، واشكرى لرسول الله . فقالت عائشة : لا والله ، لا أشكر إلا الله الذى برأنى ! . ثم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام فخطب الناس وتلا عليهم ما أنزل الله من قرآن فى براءة السيدة عائشة ، وهى آيات بينات فى سورة النور أولها :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » الآيات .

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإقامة الحد على من صرّح بالقذف وهو ثمانون جلدة ، وكان الذين صرحوا به ثلاثة : مسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش .

وكان مسطح قريباً فقيراً لأبى بكر ينفق عليه ويعوله ، فلما تقوّل على ابنته قطع عنه ما كان يعوله به ، فأنزل الله تعالى قوله :

« وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) .

فامتثل الصديق لهدى الكتاب الكريم ، وغفا عن مسطح ، وعاد إلى ما كان عليه من الإحسان إليه .

غزوة الأحزاب

لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى النضير عن ديارهم ، استشاروا أحقادهم في ضرب من المكر يهيم لهم الانتقام منه ، فأفتتهم بما حسبوا أن فيه شفاء نفوسهم المريضة ودواء قلوبهم الكليمة ، وبيان ذلك أن حُي بن أخطب — وكان مثله في اليهود مثل أبى جهل في قريش — وسلام بن مشكم وكنانة ابن أبى الحقيق ، وهم رؤساء اليهود وأهل رأى فيهم ، ذهبوا إلى قريش وحرصوها على حرب الرسول ، وقالوا لها : نحن حزب عليه معكم ولا ندعه حتى نستأصله . فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، إن أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، ولكننا لا نأمنكم حتى تسجدوا لآلهتنا وتشهدوا أن ديننا خير من دينه ، فسجدوا للأصنام ، وقالوا أتم أهدى سبيلاً من محمد لأنكم تعظمون هذا البيت وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم !

وفى هذا نزل القرآن الحكيم : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الآيات .

وكان ذلك مما نشط قريشاً وأغراها بتكوين حملة كبرى على الرسول ، تستأصل فيها الإسلام والمسلمين ، وتفرغ من الهم الذى ركبها من جراء ظهور الدعوة الحميدة وانتشارها في الجزيرة يوماً إثر يوم .

وسار وفد اليهود ييث كيده وينشر حقه في غطفان وماجاورها من القبائل لتنضم إلى قريش وتدخل فيما دخلت فيه من غزو محمد ، ومنها بجيش كبير من اليهود يساهم في هذه الحرب ، وما زال اليهود يغرون زعماء القبائل بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى ذهبوا إلى أن وعدوهم تمر خير سنة إن عاونوهم في هذه الحرب ، فكان أن استجابوا لهم وراحوا يعدون العدة لغزو المدينة مع قريش .

خروج الأحزاب

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وحامل لوائها عثمان بن طلحة العبدري ، وعددها أربعة آلاف مقاتل ، ومعهم ثلثمائة فرس وألف بعير .
وخرجت فزارة في ألف فارس وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وهو الذي سماه الرسول عليه الصلاة والسلام الأحق المطاع .
وخرجت بنو مرة في أربعمائة فارس ، يرأسهم الحارث بن عوف المري .
وخرجت بنو أشجع في عدد كبير من محاربيها ، وعلى رأسهم أبو مسعود .
ابن رُحَيْلة .

وخرجت بنو سليم في سبعمائة مقاتل ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن عبد شمس .
وتجهزت بنو أسد في جمع كبير من رجالها ، وعلى رأسهم طليحة ابن خويلد الأسدي .

وكانت عدة هذه الجيوش عشرة آلاف مقاتل ، وقد اتفقت كلمة الجميع على أن يتولى أبو سفيان بن حرب ، رئيس قريش ، القيادة العامة لهذه الحملة الكبرى .

الرسول يستشير أصحابه

ولما انتهت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنباء هذه الحملة إذ أرسلت إليه خزاعة بنخبرها ، استشار أصحابه في الأمر ، أخرج إلى لقاءها أم يتيق في المدينة ؟
وقد أشار الصحابي الجليل سلمان الفارسي على المسلمين أن يبقوا في المدينة ويحصنوها .

بحفر خندق واسع من جهتها الشمالية المعرضة للغزو ، و يقيموا على حراسته حتى لا يجتازه العدو من أية ثغرة فيه .

وقد أخذ النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الرأي ، ورسم خطة للخندق ، وشرع في حفره هو والصحابة ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل بيده معهم تشجيعاً لهم ، وأصدر أوامر حازمة أن لا يغادر العمل في الخندق أحد إلا بإذنه ، وكان المنافقون يتسللون من العمل إلى أهليهم بغير إذن من الرسول .

معجزات الرسول

وقد أمدَّ الله عز وجل رسوله الكريم بطائفة من المعجزات ، تحققت أثناء العمل في حفر الخندق ، وكثير من أخبار الغيب بشرهم فيها بالاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر ، وكانت هذه الأنباء رحمة للمؤمنين وفتنة للمنافقين .

خروج الجيش الإسلامي

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق ، وقد استغرق ذلك حوالى شهرين ، خرج بالجيش الإسلامي ، وعدته ثلاثة آلاف مقاتل ، وعسكر في الجهة الشرقية مسنداً ظهر الجيش إلى جبل سَلْع والخندق بينه وبين القوم ، واستعمل الرسول على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة رئيس الخزرج .

معسكر الأحزاب

وجاءت قريش ومن معها من الأحزاب ، فنزلت قريش بجميع الأسيال ، ونزلت قبائل غطفان ومن تبعها من أهل نجد بذنب تَقَمَّى إلى جانب أحد .
ولما رأى المشركون الخندق هالهم أمره ، لأن هذه الخطة من الحرب لم تكن

معروفة لديهم ، فاقترعت الحرب بينهم وبين المسلمين أول الأمر على التراشق بالنبال والرمي بالحجارة .

يهود بني النضير

يعوون يهود بني قريظة

ولما رأى يهود بني النضير ، المصاحبون للأحزاب ، تحصنَ المسلمين بالخندق ، وعجز الجيوش الغازية عن اقتحامه والاشتباك بالمسلمين ، تفتقت أذهانهم المريضة بالحق والحسد عن تدبير خطير ، ذلك هو أن يغروا يهود بني قريظة بالدخول في هذه الحرب ليأتوا المسلمين من خلفهم ، فيقع المسلمون بين شقي الرحا ، ويحيط بهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، فيتم للأحزاب القضاء عليهم .

ونذب حُيَّ بن أخطب ، رئيس بني النضير وأعدى أعداء الإسلام ، نفسه لهذه المهمة ، وذهب حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، رئيس بني قريظة ، وكان بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام عهد ، ذلك إلى ما كان بينه وبين الأوس من حلف ، وأخذ حُيَّ بن أخطب يغريه بالاشتراك في هذه الحرب ، فتمنع عليه أولاً ، ولكنه ما زال يحاوره ويمنيه حتى قبل الغدر والخيانة ، وكان فيما عاهده عليه حُيَّ أنه إذا انصرفت الأحزاب من غير أن تحارب المسلمين ، دخل معه حصنه وشاركه فيما يحل به من مصير .

التحقق من الخيانة

وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بأمر هذه الخيانة ، فاستدعى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، وسعد بن عباد رئيس الخزرج ، وطلب إليهما الذهاب لتعرف جلية الأمر ، فإذا أَلْفَيَا غدرا أشارا بذلك عند عودتهما ولم يفصحا حتى لا يداخل الوهن نفوس المسلمين . فلما بلغ السعدان ديار بني قريظة أساءوا استقبالهما وأخشوا بالقول في حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأراد سعد بن عباد الرد عليهما ، فقال له سعد

ابن معاذ : إن ما بيننا أربى من ذلك ، ولما رجعا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا له : عضل والقارة^(١) .

اشتداد البلاء على المسلمين

وهنا اشتد البلاء على المسلمين وفدحهم الخطب وشملهم الكرب ، وليس في قدرة مخلوق أن يصف هذا البلاء كما وصفه الخالق جل وعلا حين يقول في حكم التنزيل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا »^(٢) .

واتخذ النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الخيانة ما تقتضيه من الحذر ، فأرسل مسعدة بن أسلم في ما تئين ، وزيد بن حارثة في ثلثمائة رجل لحراسة المدينة . وفي هذه الآونة الحرجة انسحب جماعة من المنافقين من الجيش وقالوا : « إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »^(٣) .

صفقة لم تتم

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن من الحكمة تشتيت الأحزاب من طريق السياسة ، فراسل عيينة بن حصن والحارث بن عوف — وكان لهما الكلمة على سائر غطفان — يصالحهما على أن لهما ثلث ثمار المدينة إذا رجعا بمن معهما من سائر قبائل غطفان ، وكانت المفاوضات لا تزال دائرة في هذا العرض حين أطلع الرسول

(١) عضل والقارة : أى غدر وخيانة ، إشارة إلى غدر هاتين القبيلتين ببعثة إسلامية .

(٢) الأحزاب : ٩ — ١١

(٣) الأحزاب : ١٣

على الأمر سعد بن معاذ وسعد بن عباد رئيسي الأنصار ، فقالا يارسول الله : أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أخين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعظم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! وهكذا فشلت المفاوضة وحكمت السيوف .

ابنة عبد المطلب !

لما خانت بنو قريظة الله ورسوله وأعطت من يدها للأحزاب ، حدث ذات يوم أن رأت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام — وكانت مقيمة بحضن فارح لحسان بن ثابت وهو مقيم مع النساء ولم يخرج لحرب — رجلاً من اليهود يطيف بالحصن وهو مملوء بالنساء والصبيان ، فقالت لحسان بن ثابت : يا حسان ، إن هذا اليهودي قد رأى من أمرنا ما رأى ، وما آمن أن يدل علينا اليهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله .

فقال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .

فلما رأت صفية أن حسان ليس هناك شدت وسطها وأخذت عموداً ونزلت من الحصن وضربت اليهودي فقتلته ، ثم صعدت إلى حسان فطلبت إليه أن ينزل فيسلمه لأنه لم يمنعها من ذلك إلا أن القتيل رجل .

فقال حسان : مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب ! .

ثُلْمة في الخندق

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعرف أن هناك ثُلْمة في الخندق، فكان يذهب إليها بالليل ليحرسها بنفسه ويقول : ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها ، فإذا أخذه البرد عاد إلى قبته ليدفأ قليلاً ثم يعود إلى مكانه ، وفي إحدى عوداته إلى القبة ، قال : ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثُلْمة الليلة ! فسمع صوت السلاح ، فقال عليه الصلاة والسلام : من هذا فقال القادم : سعد بن أبي وقاص ، أتيت أحرسك ، فقال عليه الصلاة والسلام : عليك هذه الثُلْمة فاحرسها ، ثم نام حتى قام لصلاة الصبح .

اقتحام الخندق

وبعد أيام من الحصار اقتحم فرسان من قریش الخندق من مكان ضيق فيه ، وكان بينهم عمرو بن عبد ودّ العامري وعكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عبد الله ، وطلب عمرو بن عبد ودّ المبارزة ، فبرز إليه على بن أبي طالب كرم الله وجهه فقتله ، وهرب عكرمة بن أبي جهل ، ووقع نوفل بن عبد الله في الخندق فاندق عنقه ، وفر الباقيون لا يملكون على شيء .

الحرب خدعة

نصير ليس في الحسبان

وقيض الله للمسلمين نصيراً لم يكن في حسابهم ، كاد للمشركين ولليهود كيداً أوقع الخلف بينهم ، وقضى على ما كان بينهم من حلف وثيق وتعاون أكيد . وبيان الأمر أن نعيم بن مسعود ، أحد وجهاء غطفان ، جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره أنه قد أسلم وأخفى إسلامه عن قومه وهو ينتظر أمر الرسول فيما يفعله لنصرته . فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : إنما أنت فينا رجل واحد فَخَذَلْ عَنَّا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فذهب نعيم إلى بني قريظة وكان صديقاً لهم ، وقال لهم : إنكم غدرتم بمحمد

وأتم تساكُنونه في بلد واحد، وانضمتم إلى قريش وأحلافها، وهى إن وجدت نهضة
اتهرتها، وإلا رحلت وخلّت بينكم وبين محمد، فتلقون منه ما لا تطيقون، والرأى
عندى أن تطلبوا من قريش ومن غطفان رهائن من أشرفهم حتى تضمنوا مناجرتهم
محمدًا. فقالوا: نعم ما أشرت به.

ثم ذهب نعيم إلى قريش، فلقى أبا سفيان وكان له صديقًا، وقال له: عندى
أمر مهم فاكتمه على، ثم أخبره أن قريظة ندمت على خروجها على محمد، وأرسلت
تعرض عليه تسليمه رهطًا من أشرف قريش ليقتلهم تكفيراً عما تورطت فيه من
العدو به، وعلامة على رجوعها إليه، فإن طلبت منكم رهائن فلا ترسلوها إليها.
فقال أبو سفيان: نعم ما أشرت به.

ثم خرج نعيم إلى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب
الناس إلىّ، ولا أراكم تهمونى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال:
فاكتموا عنى، ثم قال لهم ما قال لقريش.

وأراد أبو سفيان أن يستوثق من الأمر فأرسل عكرمة بن أبى جهل فى نفر معه
إلى بنى قريظة، يصفون ما بلغته قريش ومن معها من الجهد والضيق، ويطلبون
إليهم الاستعداد للقتال ومناجزة المسلمين، فطلبوا أن يرسلوا إليهم رهائن ليضمنوا
بقاءهم حتى يناجزوا المسلمين ويستأصلوهم، فلما رجعت رسل قريش إليها بما قال اليهود
تبينت صدق نعيم، وأرسلت إلى بنى قريظة تأبى عليها إرسال رجل واحد، وحينئذ
تبين بنو قريظة صدق ما قاله نعيم، ووقع الخذلان بين الفريقين.

الريح العاتية من جنود الله

وأرسل الله على الأحزاب ريحاً عاتية، كفأت قلوبهم وأشاعت الفوضى فى صفوفهم
وجعلتهم فى ظلام حالك، فارتفعت ضوضاؤهم وسمعها الرسول، فقال: لا بد من
حادث، ثم التفت إلى أصحابه وقال: مَنْ رَجُلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع،
أسأل الله أن يكون رفيق فى الجنة؟ فما قام رجل من شدة الخوف والجوع والبرد،

وكرر الرسول عليه الصلاة والسلام قوله ثلاثاً ، فلم يستجب أحد ، فنأدى حذيفة ابن اليمان وكلفه هذه المهمة وأمره أن لا يحدث حدثاً ، فأطاع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذهب إلى القوم وشاهد الكرب الذي عَمَّهُم وكيف تعصف الرياح بكل شيء في معسكرهم من نار و بناء وخيام ، وسمع أبا سفيان وهو يقول : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ جلسه ، فأخذ حذيفة بيد الرجل الذي يليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

أبو سفيان يركبه الهلع

ثم إن أبا سفيان اشتد به الخوف ، وتملكه الذعر ، وخشى أن يتهمز المسلمون وبنو قريظة معهم — على حسب ما ظهر منهم أخيراً — الفرصة فيهاجموا قريشاً في هذه الحال التي لا تملك فيها من أمرها شيئاً ، فقال :

يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع^(١) والخف^(٢) ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الرياح ما ترون ، ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل .

و بلغ من شدة ذعره ، أنه قعد على بعيره قبل أن يتم حل عقاله ، وأنكر صفوان ابن أمية على أبي سفيان هذا الهلع ، وقال له : إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي ! فنزل وأذن في الناس بالرحيل ، وعهد إلى خالد بن الوليد في جماعة من الرجال أن يحموا ظهور الجيش أثناء انسحابه لئلا يدّهم من ورائه .

وكان حذيفة بن اليمان يرى كل هذا ويسمعه ، ولولا عهد الرسول إليه أن لا يحدث حدثاً لأمكنه أن يقتل أبا سفيان بسهم يرميه به .

انسحاب بقية الأحزاب

ولما علمت غطفان بانسحاب قريش ، حذت حذوها وكرت راجعة إلى بلادها .

(٢) الخف : الإبل .

(١) الكراع : الخيل .

وعاد حذيفة بن اليمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بما كان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ضحك حتى بدت ثناياه في جوف الليل، وقال حين جلاء الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، وقد صدقت الأيام نبوءته: فكان ذلك من معجزاته الشريفة.

رجوع المسلمين إلى المدينة

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة، وانصرف المسلمون إلى دورهم. وكانت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة الهجرية وقد دام حصار المشركين المدينة بضعاً وعشرين ليلة.

إصابة سعد بن معاذ

وأصيب فيها سعد بن معاذ رئيس الأوس بسهم رماه به أحد المشركين فقطع أكله^(١)، ودعا الله سعد أن لا يقبضه إليه حتى يشفيه من بني قريظة لغدرهم بالرسول، وقد استجاب الله دعاءه.

غزوة بني قريظة

كان غزو بني قريظة أمراً تقتضيه ضرورات الأمن القصوى إذ لم يصبح جوارهم مأموناً، ولا ساهمهم مكفولاً بعد ما أحدثوه من غدر وخيانة، وممالة لأعداء الله على المسلمين أثناء محنة لم يروا لها مثيلاً، ومن أجل ذلك أوحى الله عز وجل صبيحة جلاء الأحزاب بغزو بني قريظة، فأذن الرسول في الصحابة بالذهاب إلى هذه الفئة الباغية الغادرة ظهر اليوم نفسه، وسلم لواء الجيش لعل ابن أبي طالب وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

(١) الأكل: عرق في الذراع.

بنو قريظة ياتمسون النجاة بأنفسهم

وحاصر الجيش حصون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب وفث الخوف في عزائمهم ، وعلموا أنهم إن أقاموا على هذا الحصار ماتوا جوعاً .

كتيبة الإيمان

وكان الحادث الذى قضى على البقية الباقية من جلدهم أن على بن أبى طالب صاح ذات يوم فى جيش المسلمين قائلاً :
يا كتيبة الإيمان ، وتقدم هو والزبير بن العوام ، وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتحن حصنهم .

فلما رأى اليهود ذلك وعلموا أن لا قبل لهم بغضبة أبى الحسن كرم الله وجهه ، انهارت قواهم وأزمعوا التسليم ولكنهم بدأوا فطلبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ، من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأبى ذلك عليهم الرسول ، فأرسلوا أن لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من السلاح ولا غيره ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه من غير قيد أو شرط .

مستشار تأخذه رقة

فطلبوا إلى الرسول أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم ، وكان لهم صديقاً وحليفاً ، فأذن الرسول بذلك ، فلما ذهب أبو لبابة إليهم ، أحاط به النساء والأطفال يبكون فرق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ، وعلم أبو لبابة أنه خان الأمانة فخرج رأساً إلى المسجد ، وربط نفسه فى أحد عمدته ، مقسماً أن لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه .

ولما علم الرسول بخبره ، قال : لو جاءني لاستغفرت الله له . وقد تاب الله على أبي لبابة وأنزل فيه :

« وَأَخْرُوجُوا عَنْهُمْ يَذُنُّونَهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) » .

تحكيم رئيس الأوس

ولم يجد يهود بنى قريظة مناصباً من النزول على حكم الرسول ، فنزلوا فأمر بهم فأوثقوا ، وجاء الرسول أناس من الأوس وهم حلفاء بنى قريظة ، يطلبون إليه أن يعامل بنى قريظة حلفاءهم كما عامل بنى النضير حلفاء الخزرج .

فقال لهم الرسول : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا : نعم . قال : فاختاروا ، فأجمعوا على اختيار سعد بن معاذ سيد الأوس حكماً في هذه القضية ، وكان سعد لا يزال يعاني من أثر الجرح الذي أصابه من السهم الذي رمى به أثناء غزوة الخندق ، فبعث الرسول عليه الصلاة والسلام من جاء به راكباً على حمار والأنصار حوله يقولون له : أحسن في مواليك ، ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه ؟ وهو يقول لهم :

لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لأثم .

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم بنى قريظة قبل أن يحكم سعد فيهم ، مستنداً إلى العبارة التي سمعها منه .

ولما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قوموا إلى سيدكم ، فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم كما حكمت ؟

قالوا : نعم !

قال : وعلى من ها هنا ؟ أى فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن الرسول إجلالا له ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم !
قال سعد :

فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .
فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :
لقد حكمت فيهم بحكم الله .

تنفيذ الحكم

فخرج الرسول إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم أتى بهم وهم بين ثمانمائة وتسعمائة مقاتل ، وضربت أعناقهم .

حبي بن أخطب رأس المحرضين

وقد كان من بينهم عدو الله حبي بن أخطب رأس يهود بنى النضير الذين حاربوا الأحزاب فى غزوة الخندق ، وقد وفى لكعب بن أسد رئيس بنى قريظة بما وعده به من أنه إذا رجعت قريش إلى بلادها ولم تتاجز المسلمين جاءه فدخل عليه حصنه وشاركه فيما يصيبه ، وقد جرىء به مغلولة يدها إلى عنقه ، فلما قدم ليقتل ، قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟ !
فقال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذَل ،
ثم قال مخاطب الناس :

أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة ، كتبها الله على بنى إسرائيل .

وكانت هذه العبارة آخر كلماته ثم شيع إلى الجحيم .
ولم يقتل من النساء إلا امرأة اسمها نباتة ، كانت قد طرحت من فوق الحصن رحا على خالد بن سويد فقتلته .

الغنائم

وجمعت الغنائم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألفي رمح ، وخمسمائة ترس وجحفة ، وعدداً كبيراً من الإبل والغنم ؛ فقسم ذلك كله على المسلمين طبقاً لنظام الغنائم ، واصطفى الرسول لنفسه ريحانة بنت عمرو وقد أسلمت ، وظلت عند الرسول حتى وفاته .

وفاة رئيس الأوس

وعلى إثر الفراغ من تنفيذ الحكم في بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات شهيداً ، وقد بكاه الصحابة ، وحزن عليه الرسول حزناً شديداً ، وفقد فيه المسلمون جميعاً رجلاً من أولى العزم ، وركناً من أركان الدين ، وقائداً حكيماً ، ومشيراً عليماً . روت كتب السنة الموثوق بها : أن جبريل عليه السلام ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل ، معتجراً بعمامة من إستبرق ، فقال : يا محمد ، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ؟ قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً يجر ثوبه إلى سعد ، فوجده قد مات .

أخبار اجتماعية

في هذه السنة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة مولى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى ابنة عمه النبي فأما أميمة بنت عبد المطلب ، وقد كان النبي عليه السلام زوجها من زيد ابن حارثة مولاه ، رغماً من أهلها ، إذ كان من عادة العرب أن لا يزوجوا الموالى ، ولكن الإسلام جاء بإزالة الفوارق ومحو الطبقات ، واعتبار الناس كلهم سواسية كأسنان المشط :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (١) .

وقد قصد الرسول من هذه الزيجة محاربة العادات العربية البغيضة ، وإعطاء المثل والقدوة بناس من أهله ، ولكن النفوس تتأثر بالعادات ولا تتخلى عنها إلا بعد مران ورياضة ، ومن أجل ذلك لم يصحب هذه الزيجة ما ينبغي أن يصحبها من انسجام بين الزوجين ، إذ كانت الزوج دائبة الإعراض عن زوجها ، لما وقر في نفسها من تباين النسب والحسب بينها وبينه ، وقد شكها زوجها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من مرة ، فكان الرسول يقول له : أمسك عليك زوجك . وحدث فيما بين ذلك أن أوحى إلى الرسول بالموافقة على التفرقة بينهما ، وزواجه صلى الله عليه وسلم بزَيْنَب لحكمة تشريعية بليغة : وبيان ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد تبني زيدا ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، وكان من عادة العرب أن يجرموا على أنفسهم الزواج من نساء من يتبنونهم ، إنزالا لمنزلة نساء الأبناء من أصلاهم ، فأراد الشارع الأعظم أن ينسخ هذه العادة التي تحشر في ذوى الأرحام من ليس منهم ، وتقحم في الأبناء من هم أجانب عنهم ، فشرع الله عز وجل زواج نبيه من مطلقة متبنيه وأنزل في ذلك آيات محكمات ، فقال تعالى في سورة الأحزاب :

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ « وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةٍ ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ وَأَنْعَمَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ بِالْوَلَاءِ » أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » .

أى بعد أى شكائك إليك إعراضها عنه ونفورها منه « وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » من أمر الله بوجوب التفرقة بينهما « وَتُخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَاهُ » أى تخشى تقول العرب واليهود عليك في هذه التفرقة وما يعقبها من زواجك بمطلقة مولاك ، ولا تخشى الله وهو المتفرد بوجوب الخوف منه والخشية لذاته « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا » والمعنى ظاهر جدا ، فقد بين المولى عز وجل حكمة التشريع في هذا العمل ، وقطع بهذا القرآن المبين دابر الإشاعات والأراجيف .

وقد جرت عادة أصحاب السير على إطالة الوقوف في هذا المقام بغية الإفاضة في

تسكريم الرسول عليه الصلاة والسلام عما أرجف به المنافقون واليهود ، ولكننا نرى أن من أبلغ التكريم لذات الرسول عليه الصلاة والسلام أن تقبل بقلوب مخصصة ونفوس مطمئنة تعليل الله عز وجل الحادث في القرآن ، فقد شفى وأربنى وكفى وزاد : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

فرض الحجاب

وفي هذه السنة فرض الحجاب على أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونهى المسلمون عن إيذاء رسول الله عليه الصلاة والسلام بالتحدث عن أزواجه ، كما حرم على زوجات الرسول أن يتزوجن أحداً من بعده .
أما سائر المسلمات فقد أمرن بغض الأبصار وحفظ الأعراس .

فرض الحج

وفرض الحج على الأمة الإسلامية في هذه السنة في أرجح الأقوال . ومن المسلم به أن قريشاً كانت لا تزال على شركها وحربها لله ورسوله ، ولكن فريضة الحج جاءت مشروطة بالاستطاعة .

السنة السادسة الهجرية

مقتل سلام بن أبي الحقيق

لم يكن للأنصار هم ، بعد الانتهاء من غزوة بني قريظة ، إلا تصيد زعماء اليهود بعد أن آذوهم بخيانتهم وتآمرهم مع الأحزاب ، فاجتمع رهط من الخزرج وتدارسوا أمر زعماء اليهود الذين حاربوا الأحزاب على المسلمين ، وكان سلام بن أبي الحقيق من أولهم كيداً وأشدهم غدرًا ، فقصده إليه خمسة من الخزرج وقتلوه في فراشه .

غارة على بنى بكر بن كلاب

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في أوائل محرم من هذه السنة سرية برياسة محمد بن مسامة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب ، وكانوا ينزلون بمكان يسمى ضرية ، وهو على مسيرة سبع ليال من المدينة ، وكانوا يضارون الله ورسوله والمسلمين ، فدهمهم السرية وقتلت عشرة منهم ، واستأقت ما شيتهم ورجعت سالمة .

رجل كريم : ثمامة بن أثال الحنفي

وحدث أثناء رجوع سرية محمد بن مسامة إلى المدينة أن أخذت رجلاً من بنى حنيفة حتى أتوا به الرسول ، فقال لهم : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمال بن أثال الحنفي ، أحسنوا إيساره ، ثم رجع الرسول إلى أهله ، فقال : اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، وأمر الرسول بأن يرسل إليه لبن ناقته صباحاً ومساءً ، فكان يأتي على كل ما يرسل إليه من طعام وشراب ولا يبلغ منه شبعاً .

ويأتيه الرسول فيقول له : أسلم يا ثمامة ، فيقول ثمامة : إيه يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن ترد المال تعطه ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام : اللهم أكلة من جزور أحب إلى من دم ثمامة .

وظل الأمر على هذه الوتيرة مدة ، ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بإطلاق سراحه فعظم النبي عليه الصلاة والسلام في عين ثمامة وكبر الإسلام في نفسه ، وأدرك أن هذه الأخلاق الكريمة لا تكون إلا للنبي ، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأسلم مختاراً ، ثم قال :

يا محمد ، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح أحب الدين كله إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح أحب البلاد إلى .

فلما أمسى جاءوه بما كانوا يأتونه به فلم يمس منه إلا قليلا ، فعجبوا من ذلك ، فقال الرسول : ممّ تعجبون ؟ إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، وإن المسلم يأكل في مِعَى واحد ^(١) .

وخرج ثمامة معتمراً فلما بلغ البيت الحرام ، رفع صوته بالتلبية فكان أول مسلم دخله ملياً ، فأخذته قریش وأرادت قتله ، ثم تذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة فتركوه ، ولكنه مع ذلك أنذرهم بأنه لن تصل إليهم حبة من حبوب اليمامة إلا بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عند قوله فما كاد يصل إلى اليمامة حتى حرم غلاتها من الحبوب على قریش ، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يقولون : إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع .

فكتب الرسول إلى ثمامة أن يخلى بينهم وبين ما يقتاتون به ، وهذا واحد من مثله العليا عليه الصلاة والسلام في الكرم والرحمة .

وكان لثمامة موقف كريم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حين ارتدت بنو حنيفة وتابعت كذابها مسيلمة ، فقد وقف فيهم خطيباً وقال :

يا بني حنيفة أين عزبت عقولكم « بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ » ^(٢) .

أين هذا من : يا ضفدع تقى كما تنقین ، لا الشراب تسکدرین ولا الماء تمنعین ، مما كان يهذى به مسيلمة ؟ فأطاعه منهم ثلاثة آلاف وانجازوا إلى المسامین ، ففت ذلك في عصد بنی حنيفة وأوهن شوكتها ، وأدى إلى أن تكون كلمة الله هي العليا .

(١) مفاد هذا الكلام الشريف أن قناعة المؤمن تغنيه عن الإفراط في تناول الطعام .

(٢) غافر : ١ — ٣

غزوة بنى لحیان

بنو لحیان هم القوم الذين غدروا بأصحاب الرجيع ، وقتلوا بعضهم ، وباعوا اثنين منهم إلى قريش : وهما خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة فقتلوهما ، ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام ليترك دم أصحابه ؛ ومن أجل ذلك خرج في ربيع الأول من هذه السنة على رأس جيش مؤلف من مائتي راكب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان عليه الصلاة والسلام يكتُم وجهته حتى لا يُنذر أعداؤه بمقدمه إليهم ، ولكن حدث على الرغم من ذلك أن نذروا به ، وتمنعوا في رؤوس الجبال ، فذهب في مائتي راكب إلى قريب من مكة ، ليرى قريشاً أنه قد جاءهم ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم^(١) ، وبعد ذلك كرّ راجعاً إلى المدينة وكان يقول في قفوله : آيئون تائبون ، إن شاء الله لرَبنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

على قبر أمه

ولما رجع الرسول عليه الصلاة والسلام من غزو بنى لحیان ووصل إلى الأبواء ، نظر يميناً وشمالاً فرأى قبر أمه : آمنة بنت وهب ، فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم بكى وبكى الناس معه ، فقال لهم : ماذا أبكاكم ؟ قالوا : بكيت فبكينا يا رسول الله . قال : ماذا ظننتم ؟ قالوا : ظننا أن العذاب نازل علينا ! قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالوا : ظننا أن أمتك كلفت من الأعمال مالا تطيق ! قال : لم يكن من ذلك شيء . ولكنى مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ، ثم استأذنت ربي عز وجل أن استغفر لها فزجرت زجراً أبكاني .

(١) كراع الغميم : واد بينه وبين عسفان ثمانية أميال ، وبين عسفان وبين مكة مرحلتان .

غزوة ذي قرد^(١)

وحدث بعد أن قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة عائداً من غزوة بني لحيان بليال قلائل ، أن أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على إبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت ترعى بمكان يسمى الغابة على مسيرة يوم من المدينة ، وكان يرعاها أبو ذر الغفاري ومعه امرأته وابنه ، فقتلوا ابنه وسبوا امرأته ونجا هو منهم ، ثم استاقوا الإبل وكان عددها عشرين ناقة لبونا .

وكان أول من نذر بهم من المسلمين سلامة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى ، فأشرف على المدينة من مرتفع وصاح : واصباحاه ، فاستمع ما بين لابتئها^(٢) ، ثم خرج يعدو إثر القوم ويرميهم بالنبل وكان عداء يسبق الخيل ورامياً مصيباً ، فإذا كروا عليه فاتهم بسرعة عدوه ، وإذا انطلقوا حاذاهم على مرتفع ورماهم وهو يرتجز :

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم اليوم الرضع^(٣)

وما زال يناوشهم ويعوق سيرهم حتى خافوا أن يلحقهم الطلب فألقوا كثيراً من متاعهم بغية التخفف ، ثم اشتد بهم الخوف حتى تركوا عشرين النوق .

ولما بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام صباح بن الأكوع نادى : يا خيل الله اركبي ، ففرع إليه المسلمون ، وكان أول من لبى النداء المقداد بن عمرو وأبو قتادة وعباد بن بشر وسعيد بن زيد ثم تلاحت الفرسان فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام طليعة منهم تحت قيادة المقداد بن عمرو لتتقب الأعداء حتى يلحقها الجيش ، ثم خرج عليه الصلاة والسلام وجعل على حرس المدينة سعد بن عباد وعلى الصلاة بن أم مكتوم ، وسار بالجيش فوجدوا قتيلاً مسجى ببرد لأبي قتادة فقال المسلمون : يرحم الله أبا قتادة . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ليس بأبي قتادة ولكنه قتل لأبي قتادة وضع

(١) اسم ماء ، ويقال لهذه الغزوة أيضاً غزوة الغابة .

(٢) اللابة : مكان منخفض فيه حجارة ذات ألوان .

(٣) الرضع : أى اللثام .

عليه برده ليعرف أنه صاحبه ، وقد صدق رسول الله ، فإن أبا قتادة لقي صاحب هذه الجثة واسمه حبيب بن عينة وكان قد قتل فارساً من المسلمين اسمه الأخرم الأسدي فقتله أبو قتادة ، وفي هذه الواقعة قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي قتادة : أفلح وجهك يا أبا قتادة ، فقال : ووجهك يا رسول الله ، ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام : أبو قتادة سيد الفرسان . بارك الله فيك يا أبا قتادة وفي ولدك وولد ولدك .

ومضى الرسول عليه الصلاة والسلام في إثر الأعداء فلم يدر بهم ، فأقام يوماً وليلة بذى قرد ثم كر راجعاً إلى المدينة .

وبعد قليل من عودته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، أقبلت امرأة أبي ذر على ناقه للرسول اسمها العضباء ، وكان من حديثها أنها تغفلت من الوثاق ثم قصدت إلى هذه الناقة فحلت عقالها وركبتها وسارت بها سيراً حثيثاً فلم يدر بها الأعداء ، وكانت قد نذرت أن تنحرها إن نجاها الله عليها ، فلما أخبرت النبي بذلك تبسم ، وقال : بس ما جزيتها أن حملتك ! لا نذر في معصية ولا فيما لا تملكين ، إنما هي ناقة من إبلى ، ارجعي إلى أهلك على بركة الله تعالى .

حملات تأديبية

وكرثت في هذا العام الحملات التأديبية ، التي كان يرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لتأديب الأعراب الذين يتجمعون لكيد أو يحدثون حدثاً ضده ، فكان عليه الصلاة والسلام يرسل السرايا برياسة نفر من الصحابة ، وكان عدد أفرادها يختلف باختلاف الأحوال ، ونحن نجمل ما قصته كتب السيرة عنها فيما يلي :

إلى بني أسد

بعث النبي عليه الصلاة والسلام سرية إلى بني أسد برياسة عكاشة بن محصن ، في أربعين راكباً لتأديب هذه القبيلة التي دأبت على إيذاء من يمر بها من المسلمين ، ولما شارفت السرية منازلهم علموا بها فهربوا ، ولكن المسلمين وجدوا رجالاً نائماً

فأيقظوه ، وأمنوه على نفسه إذا دلهم على نعم القوم ، ففعل ، فذهبوا إليها واستاقوها وكانت مائة بغير وعادوا إلى المدينة سالمين .

إلى ذي القصة (١)

وانتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن أعرابا بذى القصة يعتزمون الإغارة على المدينة ليستلبوا نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء من ضواحيها ، فأرسل إليهم محمد ابن مسامة في عشرة من المسلمين ، فعلم بهم المشركون وراقبوه حتى ناموا ، ثم هجموا عليهم ، واستيقظ المسلمون وقد أحيط بهم فعمدوا إلى السلاح ولكنه لم يغن عنهم شيئاً لكثرة عدد عدوهم ، وما فوجئوا به من الغارة ، وقد استشهدوا جميعاً ما عدا رئيسهم محمد بن مسامة ، فقد أصيب بجراحات خطيرة حتى عد في القتلى ، فلما ابتعد الأعداء عاد إلى المدينة وأخبر الرسول بما حدث .

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة بن الجراح على رأس عدد كبير من المسلمين ليقترض من هؤلاء الأعداء ، فلما علموا بمقدمه هربوا في الجبال ، فساق نعمهم وعاد إلى المدينة سالماً هو ومن معه .

إلى بني سليم

وعلم النبي عليه الصلاة والسلام أن قبيلة بني سليم — وهي من قبائل الأحزاب التي هاجمت المدينة — تضار المسلمين في رحلاتهم التجارية ، فأرسل إليها زيد ابن حارثة في جماعة من المسلمين ، وسار حتى بلغ منازل القوم ، فوجدهم قد أمعنوا في الحرب .

وعثرت السرية بأمرأة دلتهم على مكان يختبئ به بعض الأعداء ، فقصدوا إليه وأسروا عشرة منهم ، كان من بينهم زوج هذه المرأة ، ثم ساقوا نعم القوم وعادوا إلى المدينة ، فلما أطلعوا الرسول عليه الصلاة والسلام على شأن المرأة أنعم عليها وعلى زوجها بالحرية .

(١) موضع قرب المدينة .

الاستيلاء على غير لقریش

وأنبى الرسول عليه الصلاة والسلام أن غيرا لقریش مقبلة من الشام تريد مكة وفيها تجارة كثيرة ، فأرسل إليها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكبا ، فتربص بها حتى استولى عليها وأسر من فيها من الرجال ، وكان من بينهم أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله فاستجار بوجه فأجارته ، وأمضى النبي والصحابة جوارها ، ثم ردوا على أبي العاص التجارة كلها لأنه كان الأمين عليها اكراما للرسول عليه الصلاة والسلام وأهله ، وأطلق الرسول أبا العاص ، ولما رجع أبو العاص إلى مكة وأدى أمانته وأعطى كل ذى حق حقه أعلن إسلامه ، وهاجر إلى المدينة .

قصاص

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام في جمادى الآخرة زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلا للقصاص من بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسleme وهم مقيمون بالطرف^(١) ، فلما أشرفت السرية على الأعداء حسبوها طليعة لجيش إسلامي كبير ، فولوا الأدبار وتركوا أموالهم وكانت كثيرة ، فاستولى عليها المسلمون وقتلوا راجعين إلى المدينة سالمين .

إلى وادى القرى

كان زيد بن حارثة راجعا إلى المدينة في تجارة له ، فاعترضته بنو فزارة واستولت عليها وكادت تقتله ، فلما رجع إلى المدينة أخبر الرسول بما حدث له فأرسله في رجب على رأس جماعة من المسلمين ليؤدب هذه القبيلة الباغية ، فسار في جماعته حتى بلغ وادى القرى ، ودم الأعداء وقتل منهم خلقا كثيرا .

إلى بنى كلب

وجهز رسول الله عليه الصلاة والسلام في شعبان من تلك السنة جيشا قوامه

(١) الطرف : ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة على طريق العراق .

إلى بنى كلب

وجهز رسول الله عليه الصلاة والسلام في شعبان من تلك السنة جيشاً قوامه سبعمائة رجل من الصحابة برياسة عبد الرحمن بن عوف ، لغزو بنى كلب في دومة^(١) الجندل . وقبل خروج الجيش أوصاهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « اغزوا جميعاً في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا^(٢) ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

وكان من اللطائف التي تميزت بها هذه الغزوة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى عبد الرحمن بن عوف بأن يتزوج بنت رئيس القوم إذا فُتِحَ عليه . فلما بلغ الجيش منازل بنى كلب ، ويدعى رئيسهم الأصبع بن عمرو ، دعاهم المسلمون إلى الإسلام ثلاثة أيام تباعاً ، فأسلم رئيسهم في اليوم الثالث ، وتابعه على إسلامه السواد الأعظم من قومه ، ورضى الآخرون بدفع الجزية ، وكانوا أهل كتاب ، فقبل منهم المسلمون ذلك .

وخطب عبد الرحمن بن عوف ابنة رئيس القوم إلى نفسه فزوجها منه ، وهكذا تمت بركات الرسول عليه الصلاة والسلام . واستمرت الحملات التأديبية قائمة ، كلما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام بكيد كائد سارع إلى رد كيده في نحره ، وكلما علم بتجمع أسباب جريمة بادر إلى خنقها وهي ما تزال في مهدها ، حتى هابت العرب ، وسبقته الروعة منه شهراً بمسير الناس في ذلك الزمان .

صلح الحُدَيْبِيَّةِ^(٣)

كان من أمر الحديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه هو وأصحابه يطوفون بالمسجد الحرام آمنين محلّقين رءوسهم ومقصرين ، فاعتزم العمرة وأذن بها

(١) مكان على مسيرة خمس عشرة ليلة من المدينة وخمس من دمشق .

(٢) الغلول هو إخفاء شيء من الغنيمة قبل توزيعها .

(٣) الحديبية : اسم ضاحية من ضواحي مكة متصلة بالحرم .

في أصحابه ، ودعا من حول المدينة من أهل البوادي من الأعراب المسلمين وهم قبائل أسلم وغفار وجهينة ومزينة فتناقل كثير منهم ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره ^(١) فنقاتلهم ، واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم .

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة في شهر ذى القعدة في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، واصطحب زوجته أم سلمة وساق معه الهدى سبعين بدنة وأشعرها ^(٢) وقلدها ^(٣) ليعلم الناس أنها هدى ولم يحمل معه سلاحاً ، فلما كان بذي الحليفة قال له عمر بن الخطاب :

يا رسول الله ، تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ^(٤) ؟
فبعث الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فلم يترك بها سلاحاً ولا خيلاً إلا جاء بها ، ثم سار حتى بلغ عسفان ^(٥) فقابلته هناك بشر بن سفيان السكعي وكان الرسول قد بعثه إلى مكة عيناً له ليتعرف أخبار قريش ، فقال له :

يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم الخيل والرجل ولبسوا جلود النمر ونزلوا بوادي طوى ، وهم يخفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلو بيني وبين سائر العرب ، فإنهم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ^(٦) .

مخالفة طريق قريش

ثم سأل النبي عليه الصلاة والسلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، ثم سار بهم في طريق وعرة حتى أفضوا إلى

(١) إشارة إلى غزوة الأحزاب . (٢) الأشعار : جرح بصفحة سنامها .

(٣) التقليد : تعليق قصعة جلد أو نعل بعنق البدنه وهو دليل على أنها هدى .

(٤) الكراع : الخيل . (٥) موضع بينه وبين مكة مرحلتان .

(٦) السالفة : صفحة العنق كنى بذلك عن الموت .

أرض سهلة ، ثم سلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض ، فلما رأت طلائع قريش غبار جيش المسلمين وأنه قد خالف طريقهم ، رجعت راكضة إلى قريش فخبرتها .

حبسها حابس الفيل

وسار الرسول عليه الصلاة والسلام حتى بلغ ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فبركت ناقته ، فقال الصحابة : خلأت^(١) الناقة . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطه ، يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا . فقليل له ما بالوادي من ماء نزل عليه ، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل به في بئر به وشل من ماء لا يغني شيئاً ، فغرز في جوفه ففاض الماء حتى أنشأوا حوله سدّاً يحول بينه وبين السيلان !

سفارة صديق

فلما اطمأن الرسول عليه الصلاة والسلام بمنزله جاءه بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي رئيس خزاعة — وهو وخزاعة كلها حلفاء الرسول ونصحاؤه — فسأله عما أقدمه ، فأخبره الرسول عليه الصلاة والسلام : أنه جاء زائراً للبيت ومُعظماً لحرمته ، ولم يجيء محارباً .

فذهب بديل إلى قريش وأخبرها أن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً هذا البيت ، فأساءوا الرد عليه لما يعلمون من صلته بالرسول ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا نتحدث العرب عنا بذلك

سفراء قريش

ثم بعثوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مكرز بن حفص ، فأعاد عليه الرسول ما قاله لبديل ، فرجع وخبر قريشاً بما سمع .

(١) خلأت : أي حرت .

ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة ، سيد الأحابيش ^(١) ، فلما رآه الرسول من بعد قادمًا عليه ، أمر المسلمين بأن يبعثوا الهدى في وجهه لما كان يعلمه عنه من تعظيم البيت الحرام واحترام مناسكه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى بقلائده هاله الأمر ورجع من غير أن يصل إلى الرسول إعظاماً لما رأى ، واحتج على قريش لمنعها الرسول عن زيارة البيت ، وقال : ما على هذا حالفناكم ، وتهددكم بأن ينفر عليهم الأحابيش إن لم يخلوا بين محمد وبين البيت ، فقالوا له اجلس ، فإنما أنت أعرابي فكف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إن قريشاً قد جمعت لك ولكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك .

فرد عليه أبو بكر رداً عنيفاً وقال له : أنحن نكشف عنه ؟ !

ثم جعل عروة يتناول حية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان كلما فعل ذلك يقرع المغيرة بن شعبه يده ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله . ورأى عروة أثناء ذلك من تعظيم أصحاب الرسول له ومحبتهم إياد ما أذهله ؛ فهم لا يحدقون النظر إليه ، ولا يرفعون صوتهم إذا تحدثوا معه ، ولا يسقط منه شيء إلا ابتدروا إليه يلتقطونه تبركاً به ، ولا يتوضأ إلا تبادروا فمسحوا وجوههم بماء وضوئه .

ثم أعاد الرسول على عروة ما قاله لمن تقدمه ، من أنه جاء زائراً ولم يجيء محارباً ، ورجع عروة إلى قريش وقد بهره ما رأى ، فقال لهم :

إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم ، وقد عرض عليكم رشداً فاقبلوا منه .

(١) الأحابيش : اسم يطلق على قبائل الهون والحارث بن عوف وبنو المصطلق لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له : حبشى

أسر طلائع قريش

وكانت قريش قد أرسلت خمسين رجلاً منهم ليطوفوا بمعسكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويحيثوا بمن يستطيعون من أصحابه ، فذهبوا إلى المعسكر ورشقوه بالنبل والحجارة ، فأخذهم المسلمون أخذاً ، وجاءوا بهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

إيفاد عثمان بن عفان إلى قريش

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إلى قريش أحد أصحابه الذين يعول عليهم ليلغها ما جاء له ، واختار لهذه المهمة عمر بن الخطاب ، فاعتذر عن عدم القيام بها لما تعرفه قريش من غلظته عليهم ، ولقلة من بقي من بني عدى قومه بمكة ، ثم أشار بإيفاد عثمان بن عفان لهذه المهمة لما له من العصبية الشديدة بمكة .

وكلف الرسول عليه الصلاة والسلام عثمان بهذه المهمة ، فذهب إلى مكة ، فكان أول من قابله أبان بن سعيد بن العاص ، فأجاره ، وأردفه خلفه ، وذهب به إلى البيت الحرام وحوله عطاء قريش ، فبلغهم رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما فرغ منها . قالوا له : إن شئت الطواف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم احتبسته قريش عندها ثلاثة أيام ، واحتبسوا معه عشرة من الصحابة كانوا قد دخلوا مكة بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام .

بيعة الرضوان

وشاع بين المسلمين أن قريشاً قتلوا عثمان ومن معه من المسلمين ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان ؛ وكانت على الفتح أو الشهادة .

وبايع النبي عليه الصلاة والسلام لعثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال : اللهم إن هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك .

ولما جاء عثمان بعد إطلاق سراحه ، إذ أن خبر مقتله لم يكن أكثر من إشاعة ،
بايع الرسول على ما بايعه عليه إخوانه .

قریش تطالب الصلح

وترامت إلى أسمع قریش أنباء البيعة ومغزاها ، فها لم الأمر وأدركوا أن الأمر
جد وأنه لا عاصم لهم من الهلاك إلا طلب الصلح ، فأرسلوا سهيل بن عمرو ليلتمس
من الرسول ذلك ، وكان سهيل رجلاً سمحاً ذا خلق ، فلما رآه النبي مقبلاً قال : لقد
أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .

وابتدأ سهيل كلامه ، فقال : يا محمد ، إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان
من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم
به ، وكان من فعل سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرتهم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي .
فبعث سهيل إلى قریش بذلك ، فخلوا سبيل عثمان ومن معه .

ثم تحدث سهيل في الصلح فأطال ، ثم تراجعاً وانفقاً على شروط الصلح ، وقد
كان ظاهرها ينم عن حرج شديد للمسلمين وغلبة ظاهرة للمشركين ، ولكن الرسول
عليه الصلاة والسلام قبلها لما كشف الله عن بصيرته فأراه الفوائد العظمى التي
سيحصل عليها المسلمون من مهادنة قریش .

وسياتى في تعقيبنا على هذا الصلح ، آخر هذا الفصل ، إيضاح أكثر لهذا الموضوع .

شروط الصلح

وهذه هي أهم شروط الصلح :

١ — وضع الحرب بين المسلمين وقریش سنتين .

٢ — من جاء المسلمين من قریش مسلماً يردونه ، ومن جاء قریشاً من المسلمين

لا يردونه .

٣ — أن يرجع محمد هذا العام من غير عمرة ، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه إلا السيوف في قربها والقوس .

٤ — من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

وهنا توثبت خراعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوثبت بنو بكر ، فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم .

شدة الأمر على المسلمين

ولما تراضى رسول الله صلى عليه وسلم وسهيل بن عمرو على هذه الشروط ، وقبل أن تُكتب . عظم على المسلمين جداً أن تفوز قريش بهذه الشروط الحلة في نظرهم بناموس الكرامة ، وغير المتعادلة مع ما تقتضيه الحال ، فقد كانت شوكة المسلمين أشد من شوكة قريش وأغلب ، وكانوا يستطيعون أن يطحنوها طحن الرحا لو أذن لهم الرسول بذلك ، فكيف ينقلب الأمر عليهم وتكون العاقبة لغيرهم ؟ !

زد على ذلك أن الصحابة كانوا يعلمون الرؤيا التي رآها الرسول من دخول المسجد الحرام ، وكانوا يعدون رؤياه بمنزلة الوحي ، فكيف لم تصدق هذه الرؤيا ؟ وقد ظل هذه السؤال يحير عمر بن الخطاب حتى قال له أبو بكر : أو قد عَيَّن النبي صلى الله عليه وسلم العام ؟

عمر ريثور

ووثب عمر فأتى أبا بكر وقال له :

أليس برسول الله ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : أو لسننا بالمسلمين ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : فعلام نعطي الدّنية في ديننا ؟

قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه ^(١) ، فإنني أشهد أنه رسول الله ،

قال عمر : وإني أشهد أنه رسول الله .

ثم جاء عمر النبي صلى الله عليه وسلم وسأله ما سأل أبا بكر قبله ، فأجابه النبي :
أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني .

ولقي عمر من تلك الشروط أمراً عظيماً ، وجعل يرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل عمر يتعوذ بالله من الشيطان ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا عمر إني رضيت وتأبى !

وكان عمر رضى الله عنه يقول بعد ذلك :

ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى
رجوت أن يكون خيراً .

كتابة الشروط

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ليكتب شروط الصلح ، فقال :

اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمر : لا أعرف هذا (أى الرحمن الرحيم) ولكن اكتب

باسمك اللهم !

(١) الفرز الرحل بمكان الركاب لاسرج ، أى الزم أمره .

فضج المسلمون حين طلب سهيل تغيير البسملة ولكن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال لعلي :

اكتب باسمك اللهم ، فكتبها على .

ثم أملى النبي عليه الصلاة والسلام على علي :

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

وهنا ضج المسلمون ضجيجاً شديداً والنبي عليه الصلاة والسلام يشير عليهم أن اسكتوا فلا يسكتون ، وتقدم أسيد بن حضير وسعد بن عباد فأمسكا بيد علي ومنعاه أن يكتب إلا « محمد رسول الله » وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، وجعل المسلمون يقولون : لم نعط الدّنيّة في ديننا ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام طلب إلى علي أن يمحو هذه الكلمة ويكتب اسمه واسم أبيه ، فقال علي : ما أنا بالذي يمحوك . فطلب إليه النبي عليه الصلاة والسلام أن يريه مكان الكلمة فأراه إياه فحاجها بيده الشريفة وكتب على اسم محمد وأبيه .

وشهد على وثيقة الصلح جماعة من المسلمين فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد عليها من المشركين : سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص وحويط بن عبد العزى

أول امتحان للصلح

وحدث أثناء كتابة وثيقة الصلح ، أن جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، سفير المشركين القائم بأمر الصلح بينهم وبين الرسول ، يرسف في الحديد وهو مسلم ، قد آذاه أبوه وقيده وعذبه ، فلما رآه أبوه ضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لَجَّتْ^(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

(١) « لجّت » أى تمت .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : صدقت !
وجعل أبوه يحرقه ليكرهه إلى قريش وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر
المسلمين ، أأردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟
فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله
جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم
صلحاً ، وأعطيناكم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .
وقد جاء حادث أبو جندل ضعفاً على إباله بالنسبة للمسلمين ، فقد كانوا في حال
من الكرب عظيمة بسبب شروط الصلح ، فزادهم هذا الحادث كرباً على كرب ،
وحملهم غماً فوق غم ، حتى كادوا يهلكون .

محنة

فلما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من أمر الصلح ، قال لأصحابه : قوموا
فانحروا ثم احلقوا ، فلم يبق منهم أحد ، فكرر ذلك عليهم ثلاثاً ، وهم لا يقومون ،
غضباً لله ولرسوله مما حلَّ بهم في زعمهم من الهوان بسبب ما توهّموه في شروط
الصلح من استعلاء المشركين على المسلمين .

مشورة موفقة

فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى زوجته أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من
الناس ، ثم قال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .
فقالت أم سلمة : يا رسول الله ، اعذرهم ، فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح ،
ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكرويون . ولكن اخرج يا رسول الله
وابدأهم بما تريد ، فإذا رأوك فعلت اتبعوك .
فعمد النبي عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره ، وجلس فحلق ، فمراة
المسلمون يفعل حتى توابثوا فنحروا ، وأخذ بعضهم يحلق رؤوس بعض متعجلين حتى
كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .

ثم رجع النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى المدينة ، وقد لاقى من الشدائد ما لم يلقه في رحلة قبلها ؛ إذ أن شدته فيها جاءت من قبل أصحابه لامن قبل أعدائه ، ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك المسلمين برحمته ، وأنزل سورة الفتح ، يبين فيها حكمة تديير الرسول ، ويشرح صدور المسلمين لما تم في حادث الحديبية من نصر وفتح ، وما سيطرت عليه من إعلاء شأن الدين ونصر المؤمنين .

الفتح المبين

أو صلح الحديبية

ليست تسمية صلح الحديبية « فتحاً مبيناً » من عندنا وإنما هي من عند الله عز وجل ، فقد أنزل سورة الفتح في هذا الحادث العظيم وأولها : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ووجه الإعجاز في هذه التسمية هو أن المسلمين الذين صاحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية كانوا بين رجلين : رجل عصمه إيمانه بالله ورسوله عن الشك في صواب الخطة التي سلكها الرسول مع قريش ، وراض نفسه على أن الخير فيما اختاره الله ورسوله وإن كانت جميع الظواهر تعترض هذا الإيمان ، وعلى رأس هذا الفريق الصديق العظيم أبو بكر بن أبي قحافة ، والله سبحانه وتعالى أدرى بمن كان على رأيه من الصحابة ، وهل كان معه أحد أو أنه كان منفرداً بهذا الاعتقاد السامي النبيل .

ورجل نظر إلى الأمر نظرة مستندة إلى بوار العقل وسياسة الحرب وعوامل الكرامة والسمعة ، فشق عليه التصديق بصواب الخطة المسألة التي اختطها الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر ، وكاد يفقد إيمانه ، ويمثل هذا الفريق عمر بن الخطاب ومن وراءه سواد المسلمين ، ويقول عمر في هذا المقام : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً » .

ولم يكن ما داخل المسلمين يوم الحديبية من الشك في صواب الخطة التي سلكها الرسول والتلكؤ في طاعته عن خوف ، فقد بايعوه على الموت ، وقدموا أنفسهم في سبيل الله ، وإنما كان ناشئاً من قصور مداركهم عن تفهم ما قصد إليه الرسول عليه الصلاة والسلام من مطاولة قريش وإرخاء الحبل لها ، وما تبع ذلك من الغضب لله ورسوله أن تظن قريش والعرب من ورائها ضعفاً بالمسلمين واستعلاء لقريش .

كان المسلمون يرون أنفسهم الأغلبين ، ويبصرون عن كذب ضعف قريش وقد واتتهم الفرصة ليطشوا بها ، فإذا يمنعونهم ، وقد ركبوا أكتافها ، وهزموا طلائعها ، أن يستأصلوها ويستولوا على مكة ويضعوا أيديهم على مفاتيح الكعبة والمسجد الحرام ؟

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرجو دائماً أن تسلم قريش فيكون في إسلامها إسلام الجزيرة العربية كلها ، ويأمن المسلمون عدوهم الكلب وخصمهم العنيد ، فيتجهوا إلى غيره حمي الظهور مطمئني النفوس ، ويضاف إلى ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعلم أن بمكة كثيرين من المسلمين الذين كتموا إسلامهم خوفاً من قريش ، فإذا دهم الجيش الإسلامي مكة أصابهم على غير علم وخلط دماء المسلمين بدماء المشركين « وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ » (١) .

وقد قامت البراهين القاطعة التي تواترت بعد هذا الحادث على صواب التدبير الذي آثره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم المسلمون فيما بعد أن الخير فيما اختاره الله ورسوله ، ولكن بعد أن زلزلت نفوس واضطربت عقول .

أما تسمية هذا الحادث بأنه « فتح مدين » فلذلك وجوه :
منها أن المسلمين هزموا طلائع قريش وتكسّف الأمر عن حقيقة واضحة جداً ، ألا وهي أن النصر حليف المسلمين لو قاتلهم المشركون .

ومنها أن قريشاً باءت بسوء السمعة بين العرب لصدّها الرسول وأصحابه عن

المسجد الحرام ، وقد جاءوا مسلمين حتى قال رسولهم إلى النبي وأصحابه : الحليس ابن علقمة رئيس الأحابيش أحلاف قريش : أيصد ابن عبد المطلب عن بيت الله ، وقد جاء معظماً له وتطوف به لحم وجذام ؟ ثم تهددهم بحرب إذا منعوا محمداً وأصحابه عن المسجد الحرام .

ومنها أن الهدنة التي عقدت ، رفعت عن المسلمين من قريش الذين لم يهاجروا ضغط قريش وإيذاءها إليهم ، فعبدوا الله آمنين مطمئنين ، ودخل في دين الله بدعايتهم في سنتي الهدنة مثل عدد المسلمين جميعاً قبل الهدنة .

ومنها أن المسلمين فرغوا من أمر قريش مؤقتاً والتفتوا إلى أعراب الجزيرة ويهود خيبر فبلغوا مرادهم منها .

من أجل هذه الوجود وأكثر منها مما لا يتسع المقام لذكره ، سمي الله حادث الحديبية « فتحاً مبيناً » وحقاً كان كذلك !

ومن حق الصديق العظيم أبي بكر رضى الله عنه أن نختم هذا التعليق برأى أبداه في صلح الحديبية ، وهو :

ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين ربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . لقد رأيت سهيل بن عمرو بعد إسلامه في حجة الوداع قائماً عند المنحريق قرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة والرسول ينحرها بيده ، ودعا الرسول الخلاق لخلق رأسه فأنظر إلى سهيل كلما يلقط من شعره صلى الله عليه وسلم يضعه على عينيه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام .

وقف أشنع شرط

من شروط الصلح

وحدث إثر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أن جاءه أبو بصير : عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن أسلم وحبسه المشركون بمكة وعذبوه ، فكتب أهل الرسول أن يرد عليهم وفاء بشروط الصلح ، وأرسلوا رجلاً من بني عامر ومعه مولى لهم ليتسلماه ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » .

فانطلق معهما حتى إذا كانوا بذى الحليفة^(١) ، اتهم أبو بصير نوم صاحبيه فأدنى وثاقه من سيف أحدهما وتحامل عليه حتى قطع السيف الوثاق ثم انتزع السيف وقتل العامري ، وهرب المولى راجعاً إلى المدينة فخبّر النبي بما حدث واستجار به فأجاره . وجاء أبو بصير على أثره ، وقال للرسول عليه الصلاة والسلام : وقت ذمتك ، أسلمتني إلى القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : اذهب حيث شئت .

فخرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر طريق قريش في تجارتهم إلى الشام ، وسمع به المسلمون الباقون بمكة فتنسلوا إليه ، وبلغ عددهم سبعين رجلاً أخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ويسلبون أموالها ، ويقتلون من في التجارة من رجالها ، فضجت قريش واستغاثت بالنبي عليه الصلاة والسلام منهم ، وناشدته الرحمة أن يدعوهم إليه ليقبضوا عليه فليست لها بهم من حاجة . وهكذا نسخ الله أعنف شرط وأغلظه وقعاً على نفوس المسلمين من شروط صلح الحديبية ، وهكذا تحقق وعد رسول الله للمستضعفين من المسلمين في قريش من أن الله سيجعل لهم مخرجاً مما هم فيه من ضيق .

(١) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال .

أمر المهاجرات

وهاجرت إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، أم كلثوم بنت عقبة بن معيط ، فخرج في أثرها أخواها عمارة والوليد حتى قدما إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبان ردها عليهما وفاء بالعهد ، فقالت أم كلثوم :

يا رسول الله ، إني امرأة وإن رجعت إليهم فتنوني في ديني ! فأنزل الله حكمه في هذه القضية ، يقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَآ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ، ذَلِكَ كُحْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ^(١) .

وكان الامتحان الذي فرض على المهاجرات هو أن تحلف المهاجرة أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله .

وقد سارع المسلمون بعد نزول هذه الآية إلى تطبيق زوجاتهم المشركات .

الدعوة عامة

مخاطبة الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها

أرسل الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، داخل الجزيرة العربية ، وخارجها ، زمانه الذي عاش فيه وما يليه من الأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ويرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

وقد كان من خيرات صلح الحديبية ، تمكين الرسول عليه الصلاة والسلام من تعميم دعوته وإبلاغ رسالته إلى الناس جميعاً ، من عرب وعجم ، وسود وبيض ، ومن أهل المشرق وأهل المغرب على السواء ، وكان الملوك الكبار في زمن الرسالة ممن يتصل بهم العرب ويعرفونهم ثلاثة : كسرى ملك الفرس ، وقيصصر ملك الروم ، والنجاشي ملك الحبشة ، وكان هؤلاء الملوك الثلاثة نواب عنهم يحكمون طائفة من المقاطعات البعيدة عن صلب المملكة التي يتبعونها ، ول بعضهم من المظاهر والمراسم ما عد في زمنه ملكاً على من يليه من رعيته ، ول بعض لقب الإمارة . وقد آثر الرسول عليه الصلاة والسلام خطابهم جميعاً ليدعوهم إلى الإسلام ، وأرسل إليهم رسلاً من أصحابه يحملون كتبه ؛ فمن الملوك والأمراء من استجاب للدعوة فأسلم بذاته ، ولم يجد من نفسه الشجاعة لإظهار إسلامه ودعوة شعبه إليه ، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فقتل الرسول أو أساء إليه ، ومنهم من وقف بين يني ، لم يقرب ولم يبعد ، ولكنه تقبل خطاب الرسول وحامله بقبول حسن .

وسنورد في هذا المقام نصوص الكتب الشريفة وما جاء فيها من أخبار وآثار ؛ ففيها عظة وعبرة ، وفي الكتب نفسها حكمة وبلاغة .

كسرى ملك الفرس

وجه النبي عليه الصلاة والسلام ، عبد الله بن حذافة السلمي إلى كسرى ملك الفرس بكتاب الدعوة إلى الإسلام ، يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم الجوس .

وقد كبر على كسرى أن يخاطبه أحد العرب هذا الخطاب ، فقال : كيف يكتب إلى هذا وهو عبدى ! ثم مزق الكتاب الكريم ، وكتب إلى باذان عامله باليمن أن يرسل نفراً من عنده إلى محمد ليأتيه به ، فأرسل باذان اثنين من قبله إلى الحجاز ، فمرا بالطائف وقابلا نفراً من قريش وأنهبوا إليهم مهمتهم ففرحت قريش بذلك ، وقالوا قد نصب ملك الملوك لمحمد ، ثم دلوا المبعوثين على مقر النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فذهبوا إليها وقابلا الرسول عليه الصلاة والسلام وبلغاه الرسالة ، فأخبرهما بما أوحى الله إليه به وهو أن ابن كسرى قتل أباه الذى أرسلهما وخلفه على ملكه . وعاد الرسولان إلى باذان فأخبراه بما سمعا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأثر الانتظار ليتثبت من صحة هذه النبوءة ، فإن كانت حقاً كان لها من الشأن ما لها ، وإن كانت كذباً جرد على محمد جيشاً جراراً .

وبعد قليل جاءه كتاب من الملك الجديد بما حدث من الأحداث في الملك ، ويطلب إليه أن لا يتخذ أى تدبير ضد محمد حتى يوافيه بجديد في هذا الشأن . وقد أسلم باذان ومن معه من الفرس في اليمن لتصديق الأنباء التى أخبرهم به الرسول قائلاً : ليس هذا بملك وإنما هو نبي .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد دعا على كسرى حين علم أنه مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فاستجاب الله دعاء رسوله ومزق الإسلام مملكة الفرس شر ممزق ، وأحالها أرضاً إسلامية عزبها الإسلام وساد .

قيصر ملك الروم

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم بكتاب الدعوة ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على

من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم ، وأسلم يوثك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن
إثم الأكارين^(١) عليك .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(٢) » .

وكان قيصر هذا رجلاً قد قرأ الكتب ووقف على ما يعلمه أحبار المسيحية من
أن نبي العرب الذي سيملك دينه ما تحت قدميه ، والذي بشر به موسى وعيسى ،
قد آن أوان ظهوره ، فال إلى الإسلام ، ولكنه أراد أن يمتحن عطاء مملكته فدعاهم
ومعهم الأحرار والعلماء وقال لهم :

يامعشر الروم ، إني عارض عليكم أمراً فانظروا فيه ، فقالوا : ما هو ؟ قال :
تعلمون والله إن هذا الرجل لنبي مرسل ، إنا نجده في كتابنا ، نعرفه بصفته التي
وصف لنا ، فيحكم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فنخروا نخرة رجل واحد ، ثم
ابتدروا الأبواب ليخرجوا ثأرين فوجدوها مقفولة ، وهنا خافهم قيصر على نفسه ، فقال
لهم : يامعشر الروم ، إني قد قلت لكم هذه المقالة لأنظر كيف صلابتكم على دينكم
لهذا الأمر الذي قد حدث ، وقد رأيت منكم الذي أَسْرُ به . فوقعوا له ساجدين .

بين قيصر وأبي سفيان

وحدث أن أبا سفيان خرج بتجارة في نفر معه من قریش إلى غرة ، بعد صلح
الحديبية ، واتفق أن كان قيصر قد انتصر على فارس واسترد الصليب الأعظم ، وجاء
القدس ليشكر الإله على هذه النعمة ، وأصبح ذات يوم مهموماً تعلو وجهه سحابة
كدر ، فسأله بطارقه عما به ، فذكر أنه رأى رؤيا تنبئ أن مُلكَ الختان ظاهر ، فقالوا

(١) الأكارين : أي الفلاحين .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

ما نعلم أمة تُخْتَنَنُ إلا اليهود وهم في سلطانك ، فأمر بضرب أعناقهم جميعاً لتستريح من همك .

وبينما هم في هذا الحديث جاءه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يحدث بظهور دين جديد في الجزيرة العربية ، يدعو إليه محمد بن عبد الله ، فاستخبره قيصر الخبر فأخبره ، ثم أراد مزيداً من البيان ، فطلب إلى أعوانه أن يأتوه بأناس أكثر علماً بهذا الدين وأمس رحماً بصاحبه ، فوقع الأعوان على أبي سفيان وصحبه ، وأحضروا إلى قيصر ، فسألهم هل أتم من رهط هذا الرجل ؟ — يقصد إلى النبي عليه الصلاة والسلام — قالوا : نعم . فسأل عن أدنانهم رحماً به . فقال أبو سفيان : أنا أدنانهم رحماً به ، فقرّبه إليه وأجلس من معه خلف أبي سفيان وقال لهم : إني سائل هذا الرجل عن أشياء فإن صدق فصدقوه وإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان — زعيم أعداء الإسلام وعدو محمد الألد :
والله ، لو كذبت ما ردوا على ، ولكنني كنت امرأسيماً أتكرّم عن الكذب .
وقال قيصر يسأله :

أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ، كيف نسبه فيكم ؟
قلت : محض ، أوسطنا نسباً .

— هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول ، فهو يتشبه به ؟ قلت : لا .

— هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه ؟ قلت : لا .

— أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟

قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال : فأخبرني عن تبعه أيحبه ويلزمه ، أم يقلبه ويفارقه ؟ قلت : ما تبعه رجل ففارقه .

قال : فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قلت : سجال ، يُدَال علينا ونُدَال عليه .

قال : فأخبرني ، هل يغدر ؟ قلت : (ولم أجد شيئاً مما سألتني عنه أغمره فيه غيرها) لا ، ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره ، فوالله ما التفت إليها مني ، ثم كرّر على الحديث .

قال : سألتك ، كيف نسبه فيكم ، فرعمت أنه محض ، من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً .

وسألتك ، هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقوله فهو يتشبه به ، فرعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم مُلكٌ فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ، فرعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه ، فرعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ، وسألتك عن يتبعه ، أيجبه ويلزمه ، أم يقّله ويفارقه ؟ فرعمت أن لا يتبعه أحد يفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر ؟ فرعمت ، أن لا ؛ فلن كنت صدقتني عنه ، ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، وودت أنني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك . قال أبو سفيان : فخرجت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى ، وأقول : أي عباد الله ، لقد أمر أمرٌ ابن أبي كبشة^(١) ، أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم !

المقوقس والى مصر

وأرسل النبي الكريم حاطب بن أبي بلتعة بكتابه إلى المقوقس والى مصر من قبل هرقل . ونصه كنص كتابه الشريف إلى قيصر مع استبدال كلمة « القبط » بالأكارين .

وكان المقوقس يقيم حينئذ بالإسكندرية ، فلما مثل بين يديه حاطب بن أبي بلتعة وترجم له خطاب الرسول العربي ، قال لحاطب :

(١) أبو كبشة : كنية زوج حليلة مرضعة الرسول وكانت قریش تطلقها على الرسول من باب السخرية .

ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟
فقال حاطب على الفور : وما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أراد قتله
فهلهم الله ؟

فقال المقوقس : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، ثم أخذ يسأل حاطباً عن
رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وما يدعو إليه من خلق وتعاليم . ولما استوعب
ذلك كله ، قال :

إنى قد نظرت في أمر هذا الملك فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن
مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه
آلة النبوة : إخراج الغائب المستور والإخبار بالنجوى ، وسأ نظر .
ثم أجاب عن كتاب النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب :

من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله ، سلام عليك . أما بعد فقد قرأت
كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى وكنت
أظنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم
في القبط وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركيها ، والسلام .

وقد اصطفى الرسول الكريم إحدى هاتين الجاريتين لنفسه واسمها مارية ،
فولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وأهدى الجارية الثانية لحسان بن ثابت شاعر
الرسول ، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان ، وكان شاعراً كذلك .

النجاشي ملك الحبشة

وأرسل النبي صلوات الله وسلامه عليه عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي
ملك الحبشة وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام ،
أما بعد ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ،

وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكتبه ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فيني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .

وقد أكرم النجاشي رسول النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن أمر الرسول جديداً عليه ؛ فقد كان عليهما به منذ أوى مهاجرو المسلمين من مستضعفي قريش إليه فراراً بدينهم من جبروت قريش وطغيانها .

وذكر النجاشي لعمر بن أمية خيراً عن الإسلام ، بل روى « الطبري » في تاريخه أنه أسلم وأرسل ابنه في ستين من وجهاء الحبشة ليبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فغرقوا في البحر .

النجاشي وكيل النبي

في زواجه من أم حبيبة

وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد طلب إلى النجاشي ، على لسان رسوله إليه ، أن يخاطب إليه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بعد أن فارقت زوجها الذي هاجر معها إلى الحبشة مسلماً وارتد عن الإسلام ، فأرسل النجاشي إلى أم حبيبة وأعلمها نبأ الخطبة فوافقت عليها فرحة مستبشرة ، وقام النجاشي بتزويجها من الرسول وأصدقها نيابة عنه بأربعائة دينار ، وأهدى إليها طيباً ولباساً .

إعادة مهاجري الحبشة

وكان من المهمات التي كلف الرسول عليه الصلاة والسلام عمر بن أمية الضمري بها ، في رحلته إلى الحبشة ، إعادة من بقى فيها من مهاجري المسلمين بعد أن أمن الله المسلمين ، وجعل لهم من المدينة حصناً حصيناً وموطناً كريماً .

إلى جميع الأمراء والأقيال

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتباً مماثلة للكتب السابقة إلى جميع الأمراء والأقيال ، نذكر منهم : أمير بصرى وقد قتل رسول النبي إليه في الطريق^(١) ، والحارث بن أبي شمر أمير دمشق من قبل هرقل فأساء إلى الرسول ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، فأسلم وتابعه على إسلامه كثيرون من رعيته ، وملكي عمان جيفر وعبد ابني الجلندی فأسلما ، وهوذة بن علي ملك اليمامة ، فأبى ومات على الأثر .

السنة السابعة الهجرية

فتح خيبر^(١)

كانت خيبر حصن اليهود بالحجاز ، وأهلها أقوى اليهود شكيمة وأكثرهم مالا ، وكانوا إلى ذلك أشد اليهود عداوة لله ولرسوله ، وقد آزروا الأحزاب التي حاصرت المدينة ، وأبدوا من ضروب الغدر والخيانة ما هم معروفون به طبعاً وتخلقاً ، وكان مما لا بد منه لأمن المسلمين وإراحة بالهم أن يناجزوا هؤلاء اليهود ويقضوا على شوكتهم ، ليأمنوا كيدهم ويتفرغوا إلى ما هم عازمون عليه من نشر الإسلام في الجزيرة العربية كلها بعد أن هادنوا قریشاً واكتفوا شرها إلى حين .

ففي المحرم من السنة السابعة الهجرية ، وبعد الرجوع إلى المدينة من الحديبية بقليل ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام بإعداد العدة لغزو خيبر ، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، ودفع رايته إلى علي بن أبي طالب وكانت بيضاء . ولما أشرف الرسول عليه الصلاة والسلام على خيبر ، قال لأصحابه : قفوا ، ثم قال :

اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين

(١) خيبر تطلق على مجموعة حصون لليهود على بعد مائة ميل من المدينة إلى الشمال الغربي .

وما أضلن ، وزب الرياح وما أذرين ، فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله .
وكانت خير مجموعة حصون منفصلة بعضها عن بعض ، ومنقسمة إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

القسم الأول ، يسمى حصون النطة وهى تتألف من : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة .

والقسم الثانى ، يسمى الكتبية وهو يتألف من : حصن أبى ، وحصن البرى .
والقسم الثالث يسمى الشق ، وهو يتألف من : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن الشالام .

ونزل الرسول عليه الصلاة والسلام بجيشه بواد يقال له الرجيع ، بين خير وبين منازل غطفان ، ليحول بين غطفان وبين إمداد خير لأنهم كانوا حلفاء ، وقد تحركت غطفان لنجدة خير حين علمت بمقدم الجيش الإسلامى ، ولكنها حين غادرت منازلها سمعت ضوضاء فيها ، فكرت راجعة لتوهما أن المسلمين قد ناجزوها ، وكانت غطفان على حرب دائمة ومناوشات متصلة مع المسلمين .

وكان أول حصن حاصره الجيش الإسلامى ، حصن ناعم ، وقد ظل الحصار سبعة أيام كان النبى عليه الصلاة والسلام أثناءها يعطى الراية كل يوم لواحد من كبار الصحابة ، فأعطاه يوماً لأبى بكر ويوماً لعمر وفى الأيام الباقية كان يعطيها لآخرين ، وحدث أن كانت الراية يوماً مع أحد المهاجرين وخرجت كتائب اليهود يقدمهم ياسر ، فكشف من أمامه من المسلمين حتى انتهى إلى رسول الله فى موقفه ، فاشتد ذلك عليه وبات مهموماً .

فلما كانت الليلة السابعة من الحصار وكان عمر بن الخطاب رئيس الحرس أتى برجل من اليهود فى جوف الليل فأمر بضرب عنقه ، فقال : اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه ، فأمسك عنه وقاده إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فقال له : ما وراءك ؟

فقال : إذا أمنتوني على حياتي فأني أدلى إليكم بأخبار أتم في أشد الحاجة إليها وفيها نجاحكم ، فأمنوه على حياته ، فقال : إن القوم قد أجهدهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر إذ أنهم قرروا أن يناجزوكم غداً ، فإذا فتح الله عليكم هذا الحصن ، فأني أدلكم على بيت فيه منجنيق ،^(١) ودبابات ،^(٢) وسيوف ودروع ، تعينكم على فتح بقية الحصون .

حامل راية المسلمين

رجل يحب الله ورسوله ويحبانه

وقد بات الجيش الإسلامي معداً نفسه لخوض المعركة ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام في العشية : سأعطى الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه ، فراح كل ذي شأن من الصحابة يمتني نفسه أن يكون هو الرجل المختار .

فلما أصبح الرسول عليه الصلاة والسلام والتف أصحابه حوله ، سأل عن علي بن أبي طالب ، فقيل له : إنه يشكو وجعاً بعينه ، فدعا به فجاء وهو يضع على عينيه عصابة ، فتفل عليه الصلاة والسلام فيهما ، ودعا له بالشفاء ، فعوفى من وجعه كأن لم يكن بعينه شيء ، ولم يرمد طوال حياته بعد ذلك وأعطاه الراية وسار على رأس الجيش إلى الحصن ، فوجد اليهود على أهبة القتال ، وخرج واحد منهم يطلب المبارزة فقتله أحد المسلمين ، ثم خرج فارس اليهود الأول مرحب وهو في أكمل لباس للحرب وكان يرتجز بشعر ارتجله ، وطلب المبارزة ، فبرز إليه علي بن أبي طالب وقتله ، وبرز من بعده أخوه ياسر ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، وعلى أثر ذلك هجم المسلمون على اليهود وأعملوا فيهم السيوف فولوا الأدبار ، وغلبهم المسلمون على الحصن ففروا إلى الحصن الثاني .

(١) المنجنيق : آلة حرب تقذف العدو بالحجر والنفط الملتهب .

(٢) الدبابة في ذلك الزمن عبارة عن شبه حجرة من الخشب أو الجلد يضعها الجيش المهاجم لصق جدار الحصن ويقف فيها الرجال لتقب جدار الحصن وهم آمنون .

سقوط الحصون

حصناً بعد حصن

وتتبع الجيش الإسلامي الحصون اليهودية حصناً إثر حصن ، يحاصرها ويرميها بالمنجنيق إن استعصت عليه ، ويحول بينها وبين الماء حتى استولى عليها جميعاً بالقوة ، ماعدا حصن الوطيح والسلام فإنهما فتحا صلحاً ، وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة جداً من ما كل وملابس ، وعدة الحرب على اختلاف أنواعها . ويقول بعض الصحابة إن المسلمين لم يملأوا بطونهم من طعام إلا بعد فتح خيبر .

وقد استشهد من المسلمين في غزوة خيبر خمسة عشر رجلاً ، وقتل من اليهود نحو المائة .

وقد أذن النبي عليه الصلاة والسلام لليهود الذين لم يجلوا عن ديارهم أن يبقوا فيها ، ويقوموا على شئون النخل والزراعة لقاء حصة لهم ، على أن يخرجهم الرسول منها إذا شاء ، وقد ظلوا على هذا العهد حتى أجلاهم عمر بن الخطاب بعد أن علم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في مرضه الذي توفي فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان .

يهودية غادرة

تسم النبي ويسعها حامله

ولما انتهت الحرب واطمأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أهدت إليه زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم اليهودي ، شاة مشوية مسمومة ، وكانت قد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى محمد ؟ فقبل لها : الذراع ، فزادتها سماً ، ثم جاءت فوضعت الشاة بين يديه ، وكان معه من أصحابه بشر بن البراء ، فتناول النبي عليه الصلاة والسلام الذراع ، فلاك منها مضغة فلم يسعها ، فلفظها وقال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم . أما بشر فازدرد ما أكل فمات ، ثم دعا بالمرأة فاعترفت ، فقال لها ما حملك

على ذلك ؟ قالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان نبياً فسيُخبر ،
وإن كان ملكاً استرحت منه .

وقد وسعها حلم النبي عليه الصلاة والسلام فعفا عنها .

تشريعات مهمة

نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين في غزوة خيبر عن أربعة أشياء هي :

١ — الاتصال بالسبايا قبل الاستبراء .

٢ — أكل لحم الجمر الأهلية .

٣ — أكل كل ذى ناب من السباع .

٤ — بيع المغنم حتى تقسم .

وكانت تصحب الغزوة نساء ، قن بعمل التمريض للجرحى ، وإعانة الجيش
بما هو في استطاعتهم ، فأعطاهن الرسول نصيباً من الغنائم لا يبلغ سهم المقاتلين .
ويؤخذ من هذا أن عادة اصطحاب الجيوش بعض النسوة لإسعاف الجرحى
وأداء الخدمات التي لا يتفرغ لها الرجال أثناء القتال ، عادة قديمة جداً .

زواج النبي

بصفية بنت حيي بن أخطب

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد انتهاء القتال في خيبر ، بصفية بنت حيي
ابن أخطب أحد زعماء اليهود بعد أن أسلمت ، وجعل مهرها عتقها .

احتياال ودهاء

ولما فتحت خيبر جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم الحجاج بن علاط السلمي ،
واستأذنه في السفر إلى مكة ليستخلص أمواله من التجارة فيها ، واستأذن النبي الكريم
في أن يقول ما يرضى قريشاً من الكذب عليه — أى على الرسول — حتى يعينوه
على جمع ماله ، فأذن له .

وجاء الحجاج مكة وقابل زعماءها وهم متلهفون على سماع أخبار الرسول في خير: حصن الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا ، فلما سألوه عما عنده من الأخبار ، وهم لا يعلمون إسلامه ، قال لهم : إن محمداً هُزم هزيمة منكرة ، وقتل أصحابه وأسر ، وقد استحسن اليهود أن يأتوا به إليكم لتقتلوه بمن أصاب من رجالكم ، وإني قد جئت لأخذ أموالاً فأتجر بها في خير ، فأعينوني على ذلك حتى لا تفوتني الفرصة .

فصاحت قريش صيحات الفرح والسرور ، وجمعوا له أمواله جميعاً حينئذ ، وعلم العباس بن عبد المطلب بالخبر فأرسل غلاماً له إلى الحجاج ليتعرف منه الحقيقة فطلب إليه أن يبلغ سيده أن يلقاه خفية في مكان عينه ، فلما التقيا قال له : إن ابن أخيك قد فتح حصون خيبر كلها ، واستولى على ما فيها من أموال ، وقد تركته مُعرَّساً بابنة ملكهم ، فأكرم على ذلك ثلاثة أيام حتى أفوت الطلب ، ثم قل ما بدا لك !

وفي اليوم الثالث لبس العباس أفر لباسه وتطيب وذهب إلى البيت الحرام ، يطوف به وهو هاشم باش ، فقالت قريش : هذا والله هو التجلد على المصيبة يا أبا الفضل ! فقال : وأية مصيبة ؟ قالوا : مصيبة محمد ، وأسرده واستقدمه إلى مكة ليقتل بها . فقال العباس : هذا كذب ، وقد فتح محمد خيبراً ، وهو الآن معرس ببنت ملكهم فقالوا : من أخبرك بهذا ؟

قال : الذي أخبركم بضده ، وقد كذب عليكم لتعينوه على جمع أمواله من غرمائه ، وهو فوق ذلك ممن آمن بمحمد .

فقالوا : أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . ثم لم يلبثوا أن جاءتهم الأخبار من كل جانب بالحقيقة ، فأتوا غيظاً وكمداً .

تسليم أهل فدك

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله بأهل خيبر ، فبعثوا إلى الرسول يصالحونه على

النصف من غلة أموالهم ، فقبل منهم ذلك ، فكانت فذك لرسول الله خاصة لأنه لم يوجف^(١) عليها بخيل ولا ركاب .

وأهل تيماء

وكذلك فعل يهود تيماء ، فرضوا بدفع الجزية ، ولم يظهروا خلافاً أو يقدموا على حرب .

فتح وادى القرى

ولكن يهود وادى القرى لم يتعظوا بما حل بيهود خيبر ، وأبوا أن يستسلموا أو يصالحوا المسلمين ، فسار إليهم الجيش الإسلامى وعلى رأسه النبي عليه الصلاة والسلام ، وحاصروهم ثم قاتلوهم وهزموهم ، وقد قتل منهم أحد عشر رجلاً ، وغنم منهم المسلمون مغنم كثيرة ، وقد انتهى بهم الأمر إلى أن يقبلوا الوضع الذى قبله أهل خيبر ، فيزرعوا الأرض ويخدموا النخل ولهم نصف الغلة .

عودة النبي إلى المدينة

ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سالماً غانماً ، وعاد أصحابه إليها معه ، وقد فتح الله عليهم ورزقهم وأغنهم ، وأراح بالهم من عدو ما كر خيبت .

مهاجرو الحبشة يعودون

قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كلف عمرو بن أمية الضمرى ، حين أرسله بكتابه الكريم إلى النجاشى ، أن يطلب إلى المهاجرين المسلمين فى الحبشة أن يعودوا إلى المدينة ، وقد فعلوا .

وكان مقدمهم إلى المدينة إثر عودة النبي عليه الصلاة والسلام إليها من غزوة خيبر .

(١) يوجف : يجتمع .

وكان بين العائدين جعفر بن أبي طالب ، وقد فرح الرسول ببقائه فرحاً شديداً ،
وقبله بين عينيه وقال :

ما أدري بأيهما أنا أسر : بفتح خير أم بقدم جعفر ؟ !
وكان عدد هؤلاء المهاجرين العائدين من الحبشة في هذه الدفعة ستة عشر رجلاً .

حملات تأديبية

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم ، في الأشهر التي أعقبت عودته إلى المدينة ،
حملات تأديبية إلى جهات شتى ، لتؤدب الأعراب الذين يعترضون طريق المسلمين ،
أو يهيمون بالإغارة على المدينة .

إلى هوازن تربة

ففي شعبان من هذه السنة أرسل عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب في ثلاثين
رجلاً من المسلمين ، إلى فخذ من هوازن يقيمون في مكان يسمى تربة^(١) ، فلما تسامع
القوم بسير المسلمين إليهم رحلوا من مكانهم هائمين على وجوههم ، فرجعت السرية
من غير أن تلقى كيداً .

إلى بني مرة بفدك

ووجه النبي عليه الصلاة والسلام بشير بن سعد الأنصاري ، في نفر من الصحابة ،
إلى بني مرة النازلين بقرب فدك ، فساق نعم القوم ولم يصادف منهم أحداً ، ولما جاء
القوم الصريخ تبعوا بشيراً وأصحابه في جمع غفير يفوق عدد من معه أضعافاً مضاعفة ،
وظلوا يناوشونهم طوال الليل ، وفي الصباح هجم المشركون على جماعة المسلمين فقتلهم
جميعاً ما عدا رئيسهم فإنه ترك جريحاً ، وقد ظن القوم أنه قتل فتحامل على نفسه وعاد
إلى المدينة يخبر بالواقعة .

(١) تربة : مكان على مسير يومين من مكة .

إلى أهل الميعة

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام سرية عددها ثلاثون ومائة مقاتل ، برياسة غالب بن عبيد الله الليثي ، إلى أهل الميعة ^(١) ، وكانوا قوماً مشاغبين ، فأحسن المسلمون تأديبهم ، وأوغلوا فيهم قتلاً وأسراً .

وحدث أثناء المعركة أن طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين وضيق عليه الخناق ، فلما أحس المشرك الموت قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحسب أسامة أن المشرك يقوله اتقاء للقتل لا إيماناً فقتله ، فلما عادت الحملة إلى المدينة وعرف الرسول عليه الصلاة والسلام الخبر ، أنكر هذا العمل وقال لأسامة :

أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟ ! .

فلما قال أسامة : يا رسول الله ، إنما قالها متعوذاً من القتل ، قال عليه الصلاة والسلام : فهلاً شققت عن قلبه ، فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ .

وقد أنزل الله في هذه الواقعة قوله تعالى :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ^(٢) »

وقد عدَّ النبي عليه الصلاة والسلام فعل أسامة من قبيل القتل الخطأ ، وأمره بعق رقبة كفارة عن عمله .

إلى غطفان

وكان عينية من حصن الفزارى رئيس فزارة قبل أن يسلم من أكبر المشاغبين وأكثرهم تجنياً على المسلمين ، وقد انتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه تأمر مع جماعة من غطفان ، يقيمون بأرض تسمى يمن وجبار بقرب خيبر ، للإغارة على

(١) الميعة : مكان على بعد ثمانية برد من المدينة .

(٢) النساء : ٩٤ .

المدينة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام بشير بن سعد في شوال من هذه السنة إليهم على رأس ثلثمائة مقاتل ، وكان الجيش الإسلامي يسير الليل ويكنم النهار ، حتى فاجأ القوم فأصاب نعمهم واستاقها ، وخاف القوم المسلمين فركبوا رؤسهم هرباً وفرقاً .

عمرة القضاء

وجاء شهر ذى القعدة من هذه السنة ، وبذلك حل موعد عمرة القضاء بعد انتهاء العام المضروب في صلح الحديبية بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، فخرج معتمراً ومعه أصحابه الذين كانوا شهود الحديبية ، واستخلف على المدينة عوف بن الأخطب الديلي ، وأمر المسلمين بحمل سلاحهم وخيلهم ، وجعل على الخيل محمد بن مسامة ، وعلى السلاح بشير بن سعد .

وقد اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام هذه التدابير عملاً بالأحوط ، لأنه كان يخشى أن تغدر قريش به ، فلما بلغ من الظهران بقرب مكة شاهد نفر من قريش المسلمين وهم في سلاحهم ، فراعهم ذلك وهرعوا إلى قومهم يندرونهم ، فجاء وفد ليخبر خبره وقال قائلهم :

والله يا محمد ما عرفنا صغيراً ولا كبيراً إلا بالوفاء ، وإن قريشاً لم تحدث حدثاً . وقد طمأنهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر لهم أنه لا يدخل الحرم بالسلاح ، فرجع أولئك نفر إلى قريش وأخبروها بما وعدهم الرسول إياه .

وحمل الفضول أهل مكة على الاصطفاف بجوار دار الندوة ، ليشاهدوا الرسول وجيشه ، وكان الرسول ممتطياً راحلته ، وأمامه عبد بن رواحة يهتف قائلاً : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم يرتجز بأبيات لطيفة من الشعر فيها عنف على قريش واستخفاف بها .

ولما دخل الرسول عليه الصلاة والسلام وجيشه مكة ، خرج أهلها منها كراهية أن يجتمعوا به فيها .

وأرجفت قريش أن محمداً وأصحابه يلقون جهداً ، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عضده الأيمن من باب شكر الله على ما أنعم عليه من نعمة الصحة والقوة والعافية ، وقال :

رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة .

ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراها البيت ، واستلم الركن اليماني ، مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف . وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ثلاثة أيام ، ثم جاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش ، فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك فأخرج عنا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتموني فأعرست ^(١) بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا . فخرج الرسول وفاء بعهده .

تصديق الرؤيا

وقد نزلت في هذه العمرة الآية الشريفة :

« لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ^(٢) » .

وهكذا حقق الله رؤيا نبيه التي رآها قبل ذلك العام ، وملاً قلوب المشركين رعباً من الجيش الإسلامي وما هو عليه من مظاهر القوة والفتوة ؛ أما الفتح القريب الذي ورد في الآية الشريفة فهو فتح خيبر .

(١) أعرس الرجل . إذا دخل على زوجته ، وسيرد تفسير هذه العبارة في فصل تال .

(٢) الفتح : ٢٧

سبعة أعوام

وقد كانت عودة الرسول إلى مكة إثر سبعة أعوام تقريباً من خروجه منها مهاجراً إلى المدينة ، وكان من نعم الله عليه أنه خرج من مكة خائفاً يترقب ، ورجع إليها عزيزاً كريماً ، سيداً مطاعاً .

زواج النبي

من السيدة ميمونة

وأثناء كان النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، تزوج من السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي أرملة عمه حمزة بن عبد المطلب وأخت زوج عمه العباس بن عبد المطلب ، وقد وكلت عمه العباس عنها في هذا الزواج ، وأصدقها النبي عليه الصلاة والسلام أربعمائة درهم ، وهي آخر أمهات المؤمنين ، فلم يتزوج الرسول بعدها .
وقد خلف النبي مولاه أبا رافع بمكة ليأتى إليه بالسيدة ميمونة ، فوافاه بها في « سرف »^(١) ، فبنى بها الرسول عليه الصلاة والسلام .

إسلام بطلى قریش

خالد بن الوليد وعمر بن العاص

وفي هذه السنة شرح الله للإسلام صدرى بطلى قریش : خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، فأقفر منهما نادى الكفر وعمرت بهما مساجد يذكر فيها اسم الله ، وانهد بفقدتهما ركن المشركين ، وعز بهما الإسلام والمسلمون .

سيف الله

كان الوليد بن الوليد أخو خالد بن الوليد من المسلمين الأولين ، وكان كثيراً ما يقرأ في وجه النبي عليه الصلاة والسلام ويسمع من حديثه ما يفيد الرغبة في أن يهتدى الله

(١) موضع قرب التتيم .

للإسلام أخاه خالداً ، فلما حدثت عمرة القضاء افتقد الوليد أخاه ليرغبه في الإسلام فلم يحده لأن رؤساء قريش غادروا مكة حين دخلها النبي وأصحابه ، فترك له خطاباً يخبره فيه أن النبي عليه الصلاة والسلام سأل عنه وأثنى على عقله ، وقال : ما مثله يحفل بالإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ، ولقد مناه على غيره . ثم ختم الوليد كتابه بقوله : فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتك مواطن صالحة ! وكان خالد قد فكر في الإسلام من قبل ، ورأى أنه يضيع جهوده عبثاً في محاربتة فعرض الأمر على صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل فخيما ظنه ، وقالاه : لو لم يبق أحد ضد محمد لكنا نحن ضده ^(١) .

ثم عرض الأمر على عثمان بن طلحة فاستجاب له ، واتفقا على الهجرة في زمان ومكان عينهما ، ولما تلاقيا في الموعد سارا غير قليل فإذا بهما يجدان عمرو بن العاص فسألها أين يريدان ؟ فقال خالد :

لقد استقام الميسم ^(٢) وإن هذا الرجل لنبي فأذهب فأسلم فحتى متى ؟ !
قال عمرو : وأنا ماجئت إلا لأسلم .

وسار الجميع حتى بلغوا أول المدينة فنزلوا ليصلحوا من أمرهم ، فجاءهم الوليد بن الوليد وقال لأخيه خالد : أسرع ، فإن رسول الله قد سر بقدمكم وهو ينتظركم .

قال خالد بن الوليد : فأسرعنا المشى فاطلعت عليه ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم إلى حتى وقفت عليه فسامت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير .

قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدا عليك .

فقال عليه الصلاة والسلام : الإسلام يحبُّ ما كان قبله .

(١) ومع ذلك فقد هداها الله للإسلام عام الفتح .

(٢) الميسم : أى الطريق .

فاتح مصر

وقال عمرو بن العاص :

قدمنا المدينة واطلعنا على النبي صلى الله عليه وسلم وإن لوجهه تهللاً ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا ، فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، وتقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه ، فبايعته على أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر ! فقال عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها .

قال عمرو : فوالله ما عدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحداً من الصحابة في أمر حربه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبي بكر رضى الله عنه بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر رضى الله عنه بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب .

السنة الثامنة الهجرية

حملات تأديبية

ومكث النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد عودته من مكة ، يتعهد شأن الدعوة الإسلامية ، ويزيد في انتشارها يوماً بعد يوم ، ثم أخذ يوجه حملات تأديبية إلى كفرة الأعراب .

إلى بني الملوح بقديد

ففي صفر من السنة الثامنة أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الكلبي من بني ليث في جماعة من المسلمين إلى بني الملوح بقديد ، وبينما هو في طريقه إليهم لقي الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثي فأخذه ، فقال : إنما جئت لأسلم ، فقال له غالب : إن كنت إنما جئت مسلماً فلن يضيرك رباط يوم ولية ، وإن كنت

على غير ذلك ، استوثقنا منك ، ثم أوثقه وعهد به إلى رجل جلد وأمره أن يقتله إن بدا منه غدر .

وأرسل أمير السرية جندب بن مكيث الجهني عيناً له على القوم ، فعمد عند الغروب إلى صعود تل يشرف على القوم فانبطح عليه ، وأبصره واحد من الأعداء فرماه بسهم في جنبه فزرعه من غير حركة وظل مكانه ساكناً ، فرماه بسهم آخر أصاب عاتقه فزرعه وظل ساكناً كذلك .

فقال الرجل الراعى : والله ، لقد خالطه سهمى ، ولو كان ريثة^(١) لتحرك .

وانتظر جندب حتى خيم الظلام فعاد إلى المعسكر وأخبر القائد بنخبه القوم ، فأمرهم حتى ناموا ثم هجم عليهم فقتل منهم طائفة واستاق نعمهم وسار بها ، ولكن الأعداء تداعوا ، وتجمع منهم عدد كبير جداً ، ومضوا يتعقبون المسلمين حتى إذا لم يكن يفصل بين الفريقين غير بطن الوادى ، أرسل الله مطراً غزيراً استحال إلى سيل جارف حال بين القوم وبين المسلمين ، فوقفوا ينظرون إلى أموالهم وهى تساق تحت أبصارهم ، وإلى قلة أعدائهم ولا يستطيعون حراكاً .

الاقْتِصَاصُ مِمَّنْ قَتَلُوا

بعثة بشير بن سعد

وقد رشح النجاح الذى أصابه غالب بن عبد الله الليثى صاحبه للقيام بمهمة جديدة كانت تشغل بال النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ألا وهى الاقتصاص من بنى مرة بناحية فدك لقتلهم بعثة بشير بن سعد ، فكان أن بعثه النبي عليه الصلاة والسلام فى مائتى رجل للقيام بهذه المهمة ، فخالفه النجاح فيها ؛ ذلك أنه قتل من الأعداء مقتلة عظيمة ، واستاق نعمهم كلها .

(١) الريثة : هو من يستطلع أخبار العدو .

غزوة مؤتة^(١)

استشهاد ثلاثة من القادة

لما بعث النبي عليه الصلاة والسلام رسله إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة الهجرية يحملون إليهم كتبه بالدعوة إلى الإسلام ، كان من بينهم الحارث بن عمير الأزدي ، وقد أرسل إلى أمير بصرى ، فلما بلغ قرية مؤتة قابله شرحبيل بن عمر الغساني وهو من أمراء قيصر على الشام ، ولما علم أنه رسول النبي صلى الله عليه وسلم قتله . ولم يقتل من رسل المصطفى غيره ، وقد حزن عليه الصلاة والسلام لقتله حزناً شديداً ، ولم يعزب عن خاطره الشريف الاقتصاص له .

وبعد سنتين من هذا الحادث ، وحين سنحت الفرصة للرسول عليه الصلاة والسلام ، جهّز جيشاً كبيراً لهذه المهمة عدده ثلاثة آلاف مقاتل ، وذلك في جهادى الآخرة من السنة الثامنة ، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر ابن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، وقد وقع في نفس جعفر شيء من تقديم زيد بن حارثة عليه في الإمارة ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : امض فإنك لا تدري أى ذلك خير ؟ .

وقد خرج النبي عليه الصلاة والسلام وكبار الصحابة لوداع هذا الجيش ، وأوصاهم الرسول بقوله :

« اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ، ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءً » .

ومضى الجيش حتى حتى أتى معان من أرض الشام ، وهناك وجدوا أن الروم

(١) مؤتة : قرية على مشارف الشام .

قد جمعوا لهم جيشاً من مائة ألف منهم ، يرفده جيش من العرب المنتصرة يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل .

ولما صحت لديهم هذه الأنباء ، تبادلوا الرأى فيما يفعلون : هل يناجزون العدو على الرغم من كثرة عدده وقلة عددهم وبعدهم الشاسع عن مركز إمدادهم ، أو يطاولونه حتى يرسلوا للنبي صلى الله عليه وسلم بالواقع ليرى رأيه ؟

وقد قضى على هذا التردد خطاب عبد الله بن رواحة فيهم ، فقد خطبهم يقول : يا قوم : والله إن التي تكرهون لتي خرجتم تطلبون ، ألا وهى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة .

فتشجع الناس ، وقالوا : صدق ابن رواحة ، ومضوا للقاء عدوهم حتى إذا كانوا يتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ، فتعباً الجيش ، وكان على ميمنته قطبة بن قتادة العدوى ، وعلى ميسرته عُبَايَة بن مالك الأنصارى .

مقتل الأمراء الثلاثة

ثم التحم الجيشان فى معركة عنيفة لا تعادل فيها بحال من الأحوال ، فقتل الأمير الأول زيد بن حارثة .

فأخذ الراية الأمير الثانى جعفر بن أبى طالب ودافع عنها دفاع الأبطال حتى قطعت يمينه ، فأخذها بشماله فقطعت ، فاحتضنها بعضديه حتى قتل وبه أكثر من سبعين جراحة .

وأخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة وقاتل قتال المستميت ، حتى قتل . فأخذ الراية أبو اليسر ودفعها إلى ثابت بن أقرم العجلانى ، فدفعها بدوره إلى خالد بن الوليد وهو يقول له : أنت أعلم بالقتال منى .

سيف الله يأخذ الراية

فلما أخذ خالد الراية ، قاتل القوم بقية يومه قتالا عنيفاً حتى اندقت في يده تسعة أسياف ، فلما تحاجز الفريقان مساء أدخل تغييراً وتبديلاً في نظام تعبئة الجيش ، فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، والساقة مقدمة والمقدمة ساقة ، مما خيل للروم أن المسلمين تلقوا مدداً جديداً ، وقد حاربهم خالد وهم تحت هذا الاعتقاد بمهارة وحذق معروفين عنه في الحرب ، وكان أثناء ذلك يتراجع بالجيش حتى انحاز إلى قرية مؤتة ، ثم أخذ يناوش الأعداء سبعة أيام ولا يزال يأتي أثناءها من فنون الاحتيال ما يوهم الأعداء أنه يتلقى إمدادات متجددة ، وأنه يستدرجهم إلى الصحراء ليقاتلهم فيها ؛ فألقى الله الرعب في قلوبهم وكرروا راجعين .

ولما رأى خالد انسحاب الأعداء رجع بالجيش إلى المدينة .

النبي عليه الصلاة والسلام

يخبر أصحابه بما حدث

وقد أطلع الله عز وجل نبيه الكريم على ما حدث فخبّره أصحابه وقت حدوثه ، فقال :

أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلّه على الكفار والمنافقين ، من غير إمرة حتى فتح الله عليهم .

وقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم لمقتل هؤلاء الأبطال حزناً شديداً ، وكان يلقي على الصحابة أخبارهم وعيناه تذرفان الدمع .

وقد ظن المسلمون بالجيش العائد الظنون ، وذهبوا إلى وصفه بالجن والفرار لأنه لم يثبت أمام العدو حتى ينتصر أو يفنى عن بكرة أبيه ، فحشوا التراب في وجوه أفرادهم

وبلغ الأمر حدًّا مزعجًا ، فقد كان الصبيان يتلقون الجنود العائدين ويصيحون في وجوههم : يا فرار ، يا فرار . .

وكبر الأمر على بعضهم حتى لزم داره لا يخرج منها تجنبًا للأذى وخجلًا من الناس !

وبلغ النبي الكريم ذلك ، فقال :

ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ، إن شاء الله .

وقد قدر النبي عليه الصلاة والسلام عمل خالد بن الوليد حق قدره ، فسمى الخطة التي اتخذها وأفضت إلى سلامة الجيش « فتحًا » وهي جديرة حقًا بهذه التسمية الموفقة ، إذ لم يكن من اليسير تنفيذها إلا على يد قائد محنك ، ولم يكن من الهين على المسلمين أن يفقدوا جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف مقاتل هم زبدة القوة الإسلامية وصفوة أعيانها في غير جدوى وبدون طائل .

جراب من تمر زاد جيش

بلغ النبي عليه الصلاة والسلام عن قبيلة قضاة النازلة على ساحل البحر أنها تعد لحرب المسلمين ، فسير إليها جيشًا من ثلثمائة مقاتل على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وزودهم جرابًا من تمر فكان يزودهم منه ويعده عليهم عددًا ، ولما أوشك التمر على الفراغ كان يعطى الرجل ثمرة واحدة في اليوم ، وفي آخر يوم نقص التمر واحدة عن عدد الجيش فكان لذلك وقع شديد على الناس ذلك أن واحدًا منهم حرم غذاؤه .

وبعد أن فرغ التمر جهدهم الجوع حتى أكلوا ورق الشجر ، ثم أرسل الله إليهم حوتًا ضخمًا فأكلوا منه وشبعوا عشرين يومًا ، وقد بلغ من ضخامة الحوت أنهم نصبوا ضلعًا منه وأركبوا أطول رجل فيهم أضخم بعير في الحملة فمر من تحته من غير أن تمسه رأسه .

وكانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة الثامنة الهجرية .

غزوة ذات السلاسل

علم النبي عليه الصلاة والسلام ، أن جموعاً من قضاة فيا وراء وادى القرى قد احتشدت تريد غزو المدينة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام إليها جيشاً من المسلمين قوامه ثلثمائة رجل وعلى رأسه عمرو بن العاص ؛ وإنما اختير لهذه المهمة بذاته لأن جدته قضاة فأراد النبي أن يتألف الأعداء بإرسال ابن أختهم إليهم ، وكانت هذه الغزوة في شهر جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار عمرو حتى بلغ ماء بأرض جذام يسمى السلسل ، ثم جاءت أنباء بكثرة الجموع المحتشدة فعسكر على الماء وأرسل يستمد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأمدّه بمائتي رجل فيهم أبو بكر وعمر ، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ، فلما قدم على عمرو قال له عمرو إنما جئت مدداً لى ، يريد أنه الرئيس ، فقال أبو عبيدة يا عمرو إن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لى : لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعك . قال عمرو : فإنى الأمير عليك . فقال أبو عبيدة : دونك فصل بالناس .

ثم مضى الجيش حتى التحم بالعدو ، فلم تك إلا ساعة حتى انهزم وولى لا يعقب على شيء ، وقد استحوذ المسلمون على أموالهم ومنعهم عمرو من اقتفاء أثرهم خوفاً أن تكون هزيمتهم إحدى مكائد الحرب ، كما كان قد منعهم أثناء السفر من إيقاد نار ، وقد اعترض عليه عمر بن الخطاب فى ذلك فنهه أبو بكر وقال له : إن رسول الله اختاره رئيساً علينا لمعرفته بالحرب أكثر منا .

ولما عاد الجيش إلى المدينة وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما فعله عمرو سأل عنه ، فأجاب بما يفيد أنه فعل ما فعل مبالغة فى الحذر والحيلة ، فتبسم النبي وأثنى عليه .

إسلام العباس بن مرداس

كان العباس بن مرداس زعيماً فى قومه بنى سليم ، وفارساً من فرسان العرب ، وشاعراً من شعرائها ، ومن حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية ، وكان له صنم يعبد ، يقال

«ضَمَارِ» ، فبينما هو ذات يوم يتعبده إذ سمع صوتاً يخرج من جوف الصنم وهو ينشد :

قل للقبائل من قریش كلها هلك الضمار وفاز أهل المسجد

هلك الضمار وكان يعبد مدة قبل الصلاة على النبي محمد

إن الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قریش مهتدى

فذر العباس مما سمع ، وجاء قومه فأخبرهم الخبر ، ثم خرج في ثمائة منهم حتى

أتوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة فلما رآهم تبسم ، وقال : إلى يعباس ، كيف

إسلامك ، فقص عليه القصة و بايعه هو وقومه على الإسلام .

فتح مكة

قریش بين التسليم والإسلام . تطهير الكعبة من الأوثان والأصنام

بلال يؤذن : الله أكبر . الله أكبر فوق الكعبة

حين يبدأ المرء دراسة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونشأة الإسلام ، يرى

العظمة تحيط به من كل جانب ، ويبصر السمو والرفعة يكتنفانه في كل موطن ، وكما

استغرقه مشهد من المشاهد العظيمة التي تحفل بها سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة

والسلام ، خيل إليه أنه بصدد أعظم مشاهدها وأروع آياتها ، ولكنه كلما ارتقى درجة

ترقت معه الحوادث واتسعت الآفاق حتى إذا بلغ نهاية السيرة واستوعب دلائل

عظمتها وانشرح صدره بالتفقه فيها ، رأى من معالم المجد ومحافل الفضل ومصادر

الإشراق ومنابع الإغداق مالا يحيط به وصف واصف ولا يطيقه قلم كاتب ، ومبلغ

ما يستطيعه القلم الحصيف هو المقاربة وبذل الوسع ، فهما حسبه وأنعم بهما إذا

صاحبهما التوفيق .

ونحن الآن على أبواب مشهد من أعظم مشاهد السيرة النبوية بل هو من أعظم

مواقف الإسلام ، إلا وهو فتح مكة وولاية المسلمين على الكعبة والمسجد الحرام ،

وغلبة الإسلام على الأصنام وعابديها والأوثان ومن يليها .

ومن حق هذا الفتح العظيم أن يفرد بكتاب مستقل ، يستوعب تاريخه ويلم بحوادثه ويحيط بجميع جوانبه من سياسية وحررية ودينية واجتماعية ، فإنها جوانب فسيحة الأرجاء رحبة الأنحاء ، للفكر فيها مجال ، وللخيال فيها ضيال ، وللعبرة فيها موضع ، وللأسوة فيها مرجع ، ولكننا قد استعنا بالله على رسم صورة واضحة المعالم لهذا الفتح الأعظم فأعاننا فله الحمد والشكر ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

قريش تنقض صلح الحديبية

كانت مدة الهدنة بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين قريش سنتين ، وقد علم القراء أن خزاعة دخلت في عهد رسول الله ودخلت بكر في عهد قريش ، ومنازل هاتين القبيلتين مجاورة لمكة ، وقد كانت بينهما قبل ظهور الإسلام حروب ومنازعات مستمرة ، فلما كان صلح الحديبية وانحازت خزاعة إلى المسلمين وبكر إلى قريش سكن ما بينهما إلى حين .

ثم حدث بعد مضي زمن على الصلح — أى في السنة الثامنة الهجرية — أن تحرشت بكر بخزاعة ، وكانت تستعلى عليها بقرب منازلها من حليفها قريش وبعد منازل خزاعة من المدينة مقر الرسول ؛ وكان بدء ذلك أن رحلا من بكر وقف يهجو رسول الله عليه الصلاة والسلام على مسمع من أحد الخزاعين فغضب الخزاعي لذلك ، وكان أن تضارب الرجلان ، وحرك هذا الحادث ما بين القبيلتين من عداة قديم ، وسارعت بكر إلى تبسيت خزاعة على ماء يقال له الوتير ، فلم تحل قريش بينها وبين هذا العدوان وهي تعلم ما سيجره من العواقب بل أعانت حليفها سرّاً بالرجال والسلاح ، وكان ممن أعان بكرّاً على خزاعة من زعماء قريش وهم متسكرون : صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمر وغيرهم كثيرون . وقد لجأت خزاعة إلى البيت الحرام بعد ما أصابها على الوتير فلم تجرّها قريش ولم تحمها مع تبجحها فيما مضى بحرمة البيت وحق كل لاجئ إليه في المنعة والحماية ، وقد قتل من خزاعة في هذه الموقعة عشرون رجلاً .

وبادر عمرو بن سالم الخزاعي فقدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام في أربعين راكباً فيهم بديل بن ورقاء ووقف عليه في المسجد وأصحابه من حوله فقال :

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبيه وأبيننا الأتلتداً^(١)
 قد كنتم ولداً وكنا والداً ثم أسلمنا فلم ننزع يداً^(٢)
 فأنصر هداك الله نصراً اعتداً^(٣) وادع عباد الله يأتوا مدداً
 فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربداً^(٤)
 في فيلق^(٥) كالبحر يجري مزبداً إن قریشاً أخلفوك الموعدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رسداً^(٦)
 وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عدداً
 هم يبتوننا بالوتير هجداً^(٧) وقتلونا ركعاً وسجداً
 فأنصر هداك الله نصراً أيّداً^(٨)

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم عرض للنبي الكريم سبحانه في السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام :

والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه .

وعاد الخزاعيون إلى بلادهم مطمئنين ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة !

(١) الأتلتدا : القديم .

(٢) يريد أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة .

(٣) اعتدا : أي حاضرنا .

(٤) تجردا : تهيأ وشمر للحرب . سيم : كاف خطبة لا يرضاها . خسفاً أي ذلاً ، تربداً : تغير لون وجهه إلى السواد .

(٥) الفيلق : العسكر الكثير .

(٦) كداء كسحاب : موضع بأعلى مكة ، رسداً : جمع راصد أي رقيب .

(٧) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة .

(٨) أيدياً : أي شديداً ، وهو من الأيد أي القوة .

قریش تدرك خطأها

ولم یغیب عن قریش ما جرّته علی نفسها من شر بسبب نقضها عهد الرسول بما أعانت به بکراً علی خزاعة ، وعلمت أن الأمر سیتهی حتماً إلی الرسول ، فتشاورت فیما بینها ، وهداها الرأى إلی إیفاد أبی سفیان إلی المدینة لیؤكد العهد الذی بین قریش و بین الرسول ویزید المدة ، فلما کان بعسفان ^(١) لقی بدیل بن ورقاء الخزاعی عائداً من المدینة ، فسأله : من أين أقبلت یا بدیل ؟ قال : من زیارة لخزاعة علی الساحل . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال بدیل : لا .

ولکن أبی سفیان لم یرض هذا الجواب ، فانتظر حتی رحل بدیل ومن معه ، وذهب إلی مکان رحالهم فوجد النوی مختلطاً بروث إبلهم ، فقال : أحلف بالله ، لقد جاء بدیل محمداً .

أنت رجل مشرک نجس

وقدم أبو سفیان المدینة وقصد إلی ابنته أم حبیب زوج النبی علیه الصلاة والسلام ، فلما ذهب لیجلس علی فراش رسول الله علیه الصلاة والسلام طوته عنه . فقال : یا بنیة ، ما أدری أرغبت بی عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنی ؟

فقلت أم حبیبة : بل هو فراش رسول الله صلی الله علیه وسلم ، وأنت رجل مشرک نجس ، ولا أحب أن تجلس علیه .

فقال لها أبو سفیان : یا بنیة ، لقد أصابک بعدی شر !

یکذب علی الرسول

وخرج أبو سفیان حتی أتى الرسول علیه الصلاة والسلام فی مسجده ، وعرض علیه توكید العهد و زیادة المدة ، فقال الرسول : هل کان من حدث ؟ قال : لا ، فقال الرسول : فنحن علی مدتنا وصلحنا .

(١) عسفان : موضع علی مرحلتین من مکة .

لا يشفعه أحد لدى الرسول

ولم يخف على أبي سفيان — وهو الداهية المحرب — حرج الموقف وما ينذر به من سوء العواقب ، فذهب إلى أبي بكر مستشفعاً به لدى الرسول ، فأبى عليه ذلك ، فقصد إلى عمر بن الخطاب ، فردّه رداً عنيفاً ، وذهب إلى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت الرسول وبين يديها الحسن ابنها ، فقال لها :

يا ائنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيحير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فقالت السيدة فاطمة : والله ما بلغ بُنَى ذاك أن ييخّر بين الناس ، وما ييخّر أحد على رسول الله .

يرجع خائباً

ولما لم يجد أبو سفيان مخرجاً من أمره ، رجع إلى مكة وأخبر قريشاً بما أصابه من الفشل ، فلم يصدقوا أنه كان جاداً في تحقيق مطلبهم بل اتهموه بأنه خانهم وتابع محمداً على دينه ، فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة .

الرسول يأمر بالتأهب

وأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالجهاز ، وأرسل رسلاً في القبائل الإسلامية المحيطة بالمدينة تعزم عليها بعزيمة الرسول أن تنحدر إلى المدينة فتمضى شهر رمضان فيها ، فاستجابت لعزيمته قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، ولم يطع الرسول عليه الصلاة والسلام أحداً على عزيمته لئلا يفسد الخبر وتعلم به قريش فتعمل على حربه ، ولم يكن يخشى حربها فقد علم أن الحروب الماضية أنهكتها ، وكانت وفادة أبي سفيان الأخيرة إلى المدينة دليلاً قوياً على أن قريشاً لا تريد حرب الرسول

ولا تستطيعها إن هي أرادتها ، إنما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يريد أن يفتح الله عليه مكة من غير حرب ليكون ذلك أدعى إلى تألف قريش وحملها على الإسلام ، ذلك إلى ما تجره الحرب من عداوات وأحقاد لا يحبها الرسول ولا يسعى إليها .

كتاب إلى قريش

ودعا الرسول الله ، فقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبعتها في بلادها ، وأمر بحراسة الطرق إلى مكة لرد كل من يستراب فيه ؛ وعلى الرغم من تكتم النبي عليه الصلاة والسلام نيته ، فقد عرفت ولو بالتخمين ، وكانت هناك بضع قرائن تحدد وجهة الجيش الذي يعده الرسول ، أهمها استغاثة خزاعة بالرسول وإعراضه عن أبي سفيان ، فكان أن كتب حاطب ابن أبي بلتعة — وهو من شهد بدرًا — كتاباً إلى قريش يعلمها باعتزام الرسول حربهم ، وأعطى الكتاب امرأة وجعل لها أجراً مغرباً إن أوصلته إلى قريش ، فخرجت به تسعى إليهم .

وأوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه بالأمر ، فأرسل على بن أبي طالب والزبير بن العوام في إثر المرأة ليأخذا منها الكتاب ، فلما أدركاها طلبا إليها أن تسلمهما الكتاب الذي معها فأنكرت أن يكون معها كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال على : إني أحلف بالله ما كُذِبَ رسول الله ولا كُذِبْنَا ، ولتخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشِفَنَّكَ .

فلما رأت المرأة الجدم منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت المرأة شعرها وأخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليهما .

من أهل بدر

وجاء الرسول أن النبي بالكتاب ، فدعا حاطب بن أبي بلتعة وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ فقال :

يارسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدّلت ، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم — أي قريش — أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : دعني فلا ضرب عنقه . فإن الرجل قد نافق ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

وما يدريك يا عمر . لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم .

ففاضت عينا عمر بالبكاء وأنزل الله تعالى قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ »

خروج الجيش

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار والمهاجرين بالخروج ، فخرجوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد وخرجت القبائل التي استدعاه الرسول إلى المدينة ، وتحرك الجيش لعشر خلون من رمضان السنة الثامنة للهجرة واستخلف الرسول على المدينة أبا رهم : كلثوم بن حصين الغفاري ، وكان عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل ، وخرج الناس صائمين حتى إذا بلغوا الكديد أفطر الرسول وأمر الناس بالإفطار .

هجرة العباس

وأثناء الطريق لقي الجيش العباس بن عبد المطلب عم الرسول مهاجراً بأهله إلى المدينة ، ففرح به الرسول واستبقاه معه وأمره بإرسال أهله إلى المدينة .

غضب فعتاب فغفران

ولما بلغ الجيش الإبواء التقى بأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب بن عم الرسول ومن أشد أعدائه لداً وخصومة وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمته

(١) المتحنة : الآية الأولى منها

وشقيق زوجته أم سلمة ومن أكثر الناس إساءة إليه ، وقد بلغ من إساءته إلى الرسول أيام كان بمكة قبل أن يهاجر أن قال له ذات يوم :

والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلعاً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك .

والتمس هذان القادمان الإذن على رسول الله عليه الصلاة والسلام وكنيته زوجته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله : ابن عمك وابن عمتك وصهرك :

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتاك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهرى — أى أخى أم سلمة — فهو الذى قال لي بمكة ما قال ! فلما خرج الخبر إليهما بما قال الرسول حلف أبو سفيان لئن لم يأذن له الرسول هام على وجهه فى الصحراء هو وابن له كان معه حتى يموتا عطشاً وجوعاً .

فلما بلغ ذلك الرسول رقى لهما فدخلا عليه فأسلما . وكانا من خيرة المسلمين وصفوة المجاهدين ، وسيرى القراء موقفاً ممتازاً لأبي سفيان مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة حنين .

قريش تتوقع شراً

وكانت قريش تتوقع شراً ولكن الأنباء عُميت عليها فلم تسمع بمسير الرسول إليها ، وعلى ذلك لم تتخذ للحرب عدة ولا عصمت نفسها بحيلة ، حتى إذا نزل الرسول بجيشه مَرَّ الظهران^(١) ، أمر الجيش أن يكثروا من إيقاد النار ليلاً لإرهاب قريش فأوقد المسلمون ألوفا من النيران أضاءت الوديان وأنارت الجبال وألفت منظراً رهيباً .

(١) مكان على بعد يسير من مكة .

أبو سفيان بن حرب

وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام و بديل بن ورقاء خرجوا يتحسسون الأخبار فأشرفوا على هذه النيران الكثيرة فارتاع منها أبو سفيان ، وقال : ما هذه النيران ؟ والله لكانها نيران عرفة ؟ فقال له أحد رفيقيه لعلها نار خزاعة ! فقال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وهذا عسكرها .
وفي هذه اللحظة سمع أبو سفيان صوتاً يناديه : يا أبا حنظلة ، وعرف أبو سفيان صاحب الصوت ، وهو العباس بن عبد المطلب فقال : لبيك يا أبا الفضل .

وكان العباس بن عبد المطلب قد خشى أن يدهم الجيش الإسلامي مكة قبل أن ينذر أهلها فتهلك قريش ، فأراد أن يتصل بواحد من الناس ليحمل رسالة إلى قريش بأن محمداً قد أتاهم بما لا قبل لهم به ، فليسارعوا إليه ويستأمنوه على أنفسهم ، وإلا فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر ، وكان أن ركب بغلة الرسول عليه الصلاة والسلام وتقدم الجيش فسمع أبو سفيان يحاور صاحبيه بشأن النيران التي شهدها فأذهلتهم لكثرتها وانتشارها ، وقال العباس :

ويحك يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله في الناس وإصباح^(١) قريش ، والله .
قال أبو سفيان : فما الحيلة ؟ فذاك أبي وأمي .

قال العباس : والله لأن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب خلفي حتى أستأمنه لك ثم أردفه خلفه على بغلة الرسول ورجع به إلى المعسكر ، فكان كلما مر بنار قوم وعرفوا بغلة الرسول وهو عليها تركوه إلى أن مر بنار عمر بن الخطاب ، فعرف أبو سفيان ، وقال :

أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم جرى نحو الرسول فدخل عليه بعد العباس بقليل ، وقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلاضرب عنقه .

(١) أى ما أسوأ صباحها وعبارة « وإصباحه » يهتف بها للنجدة عند هجوم الأعداء .

فقال العباس : إني قد أجرته .

فلما ألع عمر على الرسول في قتل أبي سفيان ، أراد العباس أن يخرجه ، فقال له :
هل تريد قتله لأنه من بني عبد مناف ؟

فقال عمر : والله لقد سررت بإسلامك أكثر مما لو كان أبي أسلم ، وما ذاك إلا
لأنني عرفت أن إسلامك يسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من إسلام
الخطاب لو أسلم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لعمه العباس : إذهب به إلى رحلك ، فإذا
أصبحت فأتني به .

فلما أصبح العباس غدا بأبي سفيان على الرسول عليه الصلاة والسلام فلما رآه
الرسول ، قال له :

وَيْحُكَ يَا أَبَا سَفِيَان ! أَلَمْ يَأْنْ لَكَ أَنْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟
قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد
ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئا بعد !

فقال الرسول : وَيحُكَ يَا أَبَا سَفِيَان : أَلَمْ يَأْنْ لَكَ أَنْ تَعْلَمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟
قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه
والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا !

فقال له العباس بن عبد المطلب : وَيحُكَ ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك .
فأسلم أبو سفيان !

وقال العباس للرسول : إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن
ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد
فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

وأراد الرسول أن يُظهر أبا سفيان على عظمة الجيش الإسلامي ، فقال للعباس :
أذهب به فاحبسه عند خَطَم^(١) الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها .

ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة ، قال أبو سفيان : من هذه يا عباس ؟
فيقول له : سليم ، فيقول : مالي ولسليم ، ومالي ولمزينة ومالي ولجهينة ، حتى مر رسول
الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء^(٢) ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى
منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس ، من هؤلاء ؟
قال العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .

قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح
ملك بن أخيك الغداة عظيما ؟

قال العباس : إنها النبوة ، قال : نعم هي إذن !
فقال له العباس : أسرع إلى قومك ، ف جاءهم أبو سفيان مهرولا وهو يصرخ
بأعلى صوته :

يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن
فقامت إليه زوجته : هند بنت عتبة فأخذت بشاربه وقالت : أقتلوا الخبيث .
قبح من طليعة قومه !

فقال أبو سفيان : ويالكم ؟ لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قبل
لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك !

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . ومن
دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن .

فتفرق الناس مسرعين إلى دورهم وإلى المسجد .

(١) خطم الجبل أنه وهو مكان يبرز منه فيضيق الطريق .

(٢) كتيبته خضراء لكثرة الجديده وظهوره فيها والعرب تسمى الاسود أخضر والاخضر
أسود ، ومنه سواد العراق أى خضرته .

دخول الجيش الإسلامي

مكة من جميع نواحيها

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ذى طوى وأشرف على مكة ، وقف وأمر بتركيز رايته ، ثم أطرق برأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى إن ذقنه لتمس راحلة الركب ، ثم أصدر تعليماته للجيش ؛ فأمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة بمن معه من الجيش من كدّى ، وأمر سعد بن عبادَةَ رئيس الخزرج أن يدخلها من كدّاء ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها فيمن معه من الجيش ، وأمر القواد أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

فأما الزبير بن العوام فإنه لم يلق حربا غير أن اثنين من أفراد قوته انخلعا عن القوة ، وسلكا طريقا أخرى فتصيدهما نفر من قریش وقتلوهما .

وأما سعد بن عبادَةَ فإنه لما أخذ طريقه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحُرمة — أى حرمة مكة والبيت الحرام — فأمر الرسول بسحب الراية منه وتسليمها لابنه قيس ، وقال عليه الصلاة والسلام :

هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة .

وأما خالد بن الوليد ، فقد اعترضه جمع من فتيان قریش ومعهم نفر من بنى بكر أعداء خزاعة وقتلوه فقاتلهم وانتصر عليهم ، وأصاب منهم اثني عشر رجلا ، وأصيب واحد من رجاله .

دخول الرسول مكة

ودخل الرسول عليه الصلاة والسلام مكة راكباً راحلته مردفاً أسامة بن زيد خلفه في صبيحة عشرين من شهر رمضان ، حتى وصل إلى الحجون فنصبت قبته فيها على زوجيه : أم سلمة وميمونة ، وقد استراح الرسول عليه الصلاة والسلام بعض الوقت ثم سار قاصداً إلى البيت وإلى جانبه أبو بكر فطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه .

وجعل عليه الصلاة والسلام يشير إلى الأصنام المشدودة بالرصاص على الكعبة بقضيب في يده ، وهو يقول :

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا فَتَسَاقَطَ وَاحِدًا أَثَرُ وَاحِدٍ وَكَانَتْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ صُفْمٍ .

فقال تميم بن أسد الخزاعي حين رأى هذه المعجزة :

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا
وهكذا طهر الله الكعبة من الأصنام والأوثان وأزال عنها الرجس والبهتان .
ورأى النبي صلى الله عليه وسلم ، صورة لإبراهيم الخليل ويده الأزلام^(١)
يستقسم بها فقال :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »^(٢) .

ثم أمر بتلك الصور فطمست .

ودخل الرسول الكعبة وكبر في نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه وشرب من ماء زمزم .

اذهبوا فأنتم الطلقاء

وكانت قريش قد تجمعت في المسجد الحرام تنظر ما يفعله الرسول بأصنامها ولا تحرك ساكناً ، ثم راحوا يتطلعون إلى القضاء الذي سيصدره الرسول فيهم وقد آذوه وأخرجوه وحاربوه ، فلما قضى الرسول مناسكته ، خطب فيهم ، فقال :

يا معشر قريش ، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ؟

(١) الأزلام : هى السهام ويستقسم بها : أى يضرب بها .

(٢) آل عمران : ٦٧ .

ثم قال :

يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعْظُمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا الآية الكريمة :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ^(١) » الآية .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه فبين كثيرا من الأحكام الإسلامية والحدود والديات وحرم القتال في مكة من جديد وقال :

إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، ولا يعضد ^(٢) فيها شجرا . لم تحلل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي . ولم تحلل لي إلا هذه الساعة ، غضبا على أهلها ، الا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس .

أهل مكة يبايعون الرسول

ثم أخذ الناس يبايعونه على الإسلام ، وكان ممن أسلم هذا اليوم أبو قحافة والد أبي بكر الصديق وكان شيخا ضريرا ، فتلطف معه الرسول ، وقال لأبي بكر إنه كان يستحسن أن يذهب هو إلى الشيخ ، فقال أبو بكر :

هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت .

وأسلم في هذا اليوم كذلك معاوية بن أبي سفيان .

وأصدر الرسول عليه الصلاة والسلام عفوا عاما لم يستثن منه إلا نفرا يسيرا لشدة إجرامهم وعظيم ذنبهم .

منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإنه كان مسلما ، وكان يكتب الوحي

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) يعضد : أى يقطع .

للرسول ثم ارتد وذهب يفتري الكذب ويزعم أنه كان يغير كلام الله ، فلما علم بإهدار الرسول دمه ، استجار بعثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فأخفاه حتى هدأت النفوس ، ثم ذهب به إلى الرسول ، فأعرض عنه مرارا ، ثم أمنه فأسلم وحسن إسلامه ، واستعمله عمر بن الخطاب في خلافته .

ومنهم أناس غير معروفين . كانوا قتلوا بعض المسلمين عمدا فقتلوا بهم .

ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وقد هرب إلى البحر يريد أن يذهب إلى اليمن ، وكانت زوجته أم حكيم قد أسلمت قبل الفتح فطلبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤمن زوجها فأمنه فلحقته به وخبرته الخبر ، وعاد عكرمة فدخل على الرسول عليه الصلاة والسلام فقام له ورحب به وقال له . مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً ، فقال عكرمة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله ثم طأطأ رأسه حياء ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك ، فقال عكرمة : استغفر لي كل عداوة عاديتكها .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به .

ومنهم صفوان بن أمية ، وقد فر عند الفتح إلى جدة ، ليركب منها إلى اليمن ، فذهب عمير بن وهب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال :

يا نبي الله : إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه ، صلى الله عليك ، فقال الرسول : هو آمن .

فطلب عمير من الرسول علامة يظهرها لصفوان على أمانه ، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل بها مكة يوم الفتح ، فذهب عمير مسرعاً إلى جدة فأدرك صفوان ولما يرحل ، وأخبره بأمان الرسول إياه ، فقال له : أغرب عني فلا تكلمني . قال : أي صفوان إنه — أي الرسول — أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك وملكه ملكك .

قال : أخاف أن يغدر بي .

قال : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال يا محمد : إن هذا يزعم أنك قد أمنتني . قال الرسول : صدق ، قال : فاجعلني فيه بالخيار شهرين . قال الرسول : فأنت فيه بالخيار أربعة أشهر ، وقد أسلم قبل انقضاء هذا الأجل بكثير . ومنهم الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية الخزومين وقد استجارا بأمن هانيء بنت أبي طالب أخت على رضى الله عنه ، وكانت متروجة في بني مخزوم ، فجاءها على وأراد قتلها ، فحالت بينه وبينهما ، ثم أقفلت عليهما بابها ، وذهبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخبرته الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

قد أجرنا من أجرت وآمننا من أمنت ، فلا يقتلها ، يعنى عليه السلام ، علياً . ومنهم هبار بن الأسود وقد اختفى ثم لحق بالرسول عليه الصلاة والسلام بالجعرانة ، مسلماً وقال :

يا رسول الله ، هربت منك ، وأردت للحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عن جهل عليك . وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح الصفح الجميل فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : قد صفحت عنك .

وهبار هذا هو الذى اعترض السيدة زينب بنت الرسول وروعها بحربته حين بعث بها زوجها أبو العاص بن الربيع من مكة إلى المدينة أثر غزوة بدر .

ومن الذين عظمت عليهم جناتهم فاختلفوا ، سهيل بن عمرو صاحب صلح الحديبية ، وكان ابنه عبد الله من خيرة المسلمين فطلب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤمن أباه فأمنه قائلاً : إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام . فلما بلغت مقالة الرسول سهيلاً قال : كان والله برّاً صغير ، برّاً كبير ، ثم أسلم .

إشفاق وطمأنينة

ولما فتح الله عز وجل على رسوله هذا الفتح المبين وكان منه ما كان من العفو عن قريش وكان الأنصار يحيطون به على عاداتهم ، قالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو ربه حينئذ فلما فرغ من دعائه . قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال : معاذ الله ، الحيا محياكم ، والمات مماتكم . فتهلل وجه الأنصار ، وحمدوا الله على هذه النعمة الكبرى .

بيعة النساء

وباع النبي عليه الصلاة والسلام النساء اللائي أسلمن يومئذ على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول في معروف . وكانت طريقة بيعة النساء أن يؤتى بإناء فيه ماء ، فيغمس الرسول عليه الصلاة والسلام يده فيه ثم تغمس المرأة المبايعة يدها فيه إثر ذلك . لأنه كان عليه الصلاة والسلام لا يمس امرأة إلا إذا كانت زوجاً له أو ذات محرم .

هند بنت عتبة

وقد اختفت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أياما ثم جاءت لمبايعة الرسول وهي منتقبة وقالت إني امرأة مؤمنة : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : مرحباً بك .

مفتاح الكعبة

وطلب الرسول عليه الصلاة والسلام مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة العبدري وكان آل عبد الدار سدنة الكعبة في الجاهلية فسلمه إياه ، فسأل العباس بن عبد المطلب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يختص بني عبد المطلب بالسدانة إلى جانب السقاية ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

فلما ولي عثمان ناداه الرسول فرجع ، فقال له : ألم يكن الذي قلت لك ؟ فتذكر عثمان أنه فتح الكعبة للناس في الجاهلية يوما من الأيام فأراد محمد بن عبد الله دخولها معهم فأغظ عثمان القول له ونال منه ، فقال له محمد :

يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت !

فقال عثمان قد هلكت قريش يومئذ وذلت .

قال محمد بن عبد الله : بل عمرت وعزت يومئذ .

ولما ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الواقعة يوم الفتح ، قال : بلى ! أشهد أنك رسول الله .

بلال يؤذن على الكعبة

ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بلالا أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة ، إيداناً بعلو كلمة الإسلام ، وإعلاماً بظهور دين الله .

وكان أبو سفيان بن حرب يجلس بفناء الكعبة ومعه عتاب بن أسيد والحارث ابن هشام ، فقال عتاب :

لقد أكرم الله أسيداً — يعني أباه وكان قد هلك مشركاً — ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ؟

فقال الحارث بن هشام : أما والله ، لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى !
فخرج عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال : قد علمت الذى قلتكم ، ثم
ذكر لهم ما قال كل منهم .
فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع على هذا أحد كان
معنا ، فنقول أخبرك ! .

مائدة الفتح

وبعد أن أتم الله نعمته على نبيه بالفتح الأعظم ، وفرغ من قضائه فى أهم الأحداث
فى تاريخ الإسلام ، ذكر عليه السلام أن لبدنه عليه حقاً ، فذهب إلى بيت أم هانئ ،
بنت عمه أبى طالب ، فقال لها :

هل عندك من طعام نأكله ؟

قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحى أن أقدمها إليك !

فقال عليه السلام : هلمى بهن ، فكسرن فى ماء وجاءت بملح .

فقال عليه السلام : هل من آدم ؟

فقالت : ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خل !

فقال عليه السلام : هلميه ! فصبه على الكسر وأكل منه ، ثم حمد الله ،

ثم قال : نعم الأدم الخل ، يا أم هانئ : لا يقفر بيت فيه خل !

هدم آلهة الجاهلية

ولما فرغ الرسول عليه السلام من أمر الفتح شرع فى هدم أصنام العرب التى
كانوا يعبدونها فى الجاهلية .

فأرسل خالد بن الوليد لهدم العُزَّى ، وكانت مقامة بأرض تسمى نخلة ، والعُزَّى
من آلهة قريش خاصة وكنانة ومضر عامة ، وكان يقوم بسداتها نفر من بنى سليم ،
فلما سمع سادتها بمسير خالد لهدمها علق عليها سيفاً وهرب وهو يقول :

أَيَا عَزَّ شَدَى شَدَّةً لَا شَوَى لَهَا^(١) عَلَى خَالِدٍ ، أَلْقَى الْقَنَاعَ وَشَمَرَى
يَا عَزَّ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي الْمَرْءَ خَالِدًا فَبَوِّئِي يَأْتِمُ عَاجِلٌ أَوْ تَنْصَرِي
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهَا خَالِدٌ هَدَمَهَا وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمًا .

وَأَرْسَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِهَدْمِ سُوعٍ ، وَهُوَ صَنْمٌ
تَعْظُمُهُ هَذِيلٌ ، فَلَمَّا انْتَهَى عَمْرُوٌ إِلَيْهِ . قَالَ لَهُ السَّادَنُ : مَا تَرِيدُ ؟ قَالَ : هَدْمُ سُوعٍ .
قَالَ . لَا تَطِيقُهُ . فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : أَنْتَ فِي الْبَاطِلِ بَعْدَ ! ثُمَّ هَدَمَهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي خَزَانَتِهِ شَيْئًا
وَقَالَ لِلْسَّادَنِ : كَيْفَ رَأَيْتَ ! قَالَ إِنِّي أَسَلَمْتُ .

وَبَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَعْدَ بْنَ زَيْدِ الْأَشْجَلِيَّ لِهَدْمِ مُنَاةٍ وَهُوَ صَنْمٌ
لِكَلْبٍ وَخَزَاعَةٍ فَهَدَمَهُ وَلَمْ يَلْقَ مَعَارِضَةً مِنْ أَحَدٍ .

السِّيفُ يَنْبُو !

غَزْوَةُ الْغَمِيْطِ^(٢)

وَبَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ بِمَكَّةَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ
بِأَسْفَلِ تِهَامَةٍ فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَدْعُوَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالِ ،
فَأَخَذَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ ، فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ : ضَعُوا السَّلَاحَ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا فَوَضَعُوهُ
فَقَتَلْتَهُمْ ، وَانْفَلَتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ . وَذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْهَى إِلَيْهِ الْخَبَرَ ،
فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ .

وَقَالَ خَالِدٌ يَعْتَذِرُ عَنْ فَعْلِهِ : إِنَّهُ مَا قَاتَلَ حَتَّى أَمَرَهُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ السَّهْمِيُّ
وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الرَّسُولَ أَمَرَكَ أَنْ تَقَاتِلَهُمْ لَا مَتَنَاعَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ .
وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ لِيَتَلَفَى
خَطَأَ خَالِدٍ . وَقَالَ لَهُ :

(١) لَا شَوَى لَهَا : أَيْ لَا تَبْقَى عَلَى شَيْءٍ .

(٢) الْغَمِيْطُ : اسْمُ مَاءٍ لِبَنِي جَذِيمَةَ .

يا على ، أخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك .

فسار إليهم على ومعه مال كثير فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، وأعطاهم بقية ما كان معه من مال احتياطا لذمة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

يوم حنين^(١)

عقوبة العجب !

لما سار النبي عليه السلام بجيشه من المدينة قاصدا إلى فتح مكة ، كتم عن الناس وجهته وأخفى عنهم قصده ، حتى لا تتلقف الخبر قريش فتأخذ للحرب أهبتها ، وكان من جراء هذا التكتيم أن حسبت كل قبيلة من القبائل العربية التي تقع منازلها على طريق الجيش الإسلامي وما يتفرع عليه أن النبي عليه السلام يختصمها بغزوته ، وكان مما طوع هذا الحُسبان أن القبائل المشركة كلها كانت في حرب أو شبه حرب مع الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكانت قبيلة هوازن أكثر القبائل توقعا لغزو النبي عليه الصلاة والسلام بإيها ، ومن أجل ذلك أعدت عدة الحرب واستعانت بحلفائها وجيرانها من المشركين فأعانوها ، وكان من القبائل التي تجمعت لحرب الرسول عليه الصلاة والسلام مع هوازن ، ثقيف كلها ، ونصر وجشم كلها ، وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، وقد رأس هذا الجمع الحاشد من المشركين مالك بن عوف النصري ، فكان القائد العام لجيش المشركين .

ولما عرفت هوازن أن وجهة الرسول مكة وعلموا أن الله قد فتح مكة على المسلمين زادهم ذلك غيظا منه وحنقا عليه ، فقررروا أن يهاجموا النبي عليه الصلاة والسلام ولا يتركوا له الفرصة ليبدأهم هو بالهجوم ، ثم ساروا بجمعهم الكبير حتى نزلوا

(١) اسم موضع بين مكة والطائف .

أوطاس^(١) ، وكان مالك بن عوف رئيس المشركين قد رأى من تدابير الحرب أن يحشد مع الجيش النساء والأطفال والأموال ، فخرج كل مقاتل من كل قبيلة ومعه أهله وماله ليحمي في القتال ولا يفكر في الهرب تاركا وراءه أعزائه وأمواله .

دريد بن الصمة

وكان ممن حضر هذه المعركة مع المشركين دريد بن الصمة وهو شيخ كبير قد جاوز المائة ، وكان يحمل في هودج لعجزه عن الركوب ولم يكن له غناء في الحرب إنما كان العرب يتيمنون بمحضره ويسمعون لآرائه وتجاربه الطويلة ، فلما سمع ، رغاء الأبل ونهيق الحمير ، وبكاء الأطفال ، قال ما أسمع ؟ قالوا لقد ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم ، فدعا به فجاءه وسأله عما حمله على هذا العمل فأجابه بما سبق أن بيناه ، فقال دريد .

راعى ضأن^(٢) والله ! وهل يرد المنهزم من شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .
ثم أشار عليه برد النساء والأطفال فعصاه ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى !

الرسول يستعد لحرب هوزان

وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتجمع القبائل لحربه ، فأرسل عينا له ليقتص له الخبر فذهب ورجع يخبره بصحة ما بلغه وأن القوم في عدد كثير ، وعلى ذلك تجهز الرسول لغزو هوزان ومن معها ، وعلم أثناء إعداده عدة الحرب أن صفوان بن أمية — وهو مشرك على أمان من الرسول — عنده سلاح كثير فطلب إليه أن يعيره إياه ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ! فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل عارية

(١) واد في ديار هوزان .

(٢) يقول : إنه جاهل بالحرب جهل راعى الماشية بها .

ومضمونة حتى تؤديها إليك . فاستجاب صفوان لرغبة الرسول ، وزاد بأن أخرج من إبله ما يحمل السلاح إلى موضعه .

وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام في شوال من السنة الثامنة في جيش عدته اثنا عشر ألف مقاتل ، منهم العشرة الآلاف الذين قدموا معه لفتح مكة وانضم إليهم ألفان من أهل مكة بينهم بعض المشركين مثل صفوان بن أمية الذي ذكرناه آنفاً ، وسهيل بن عمرو وهما من زعماء قريش .

واستعمل النبي عليه الصلاة والسلام على المدينة عتاب بن أسيد .

تعبئة الجيش وتسليم الأولوية

فلما بلغ الرسول بجيشه وادى حنين وشارف جيش الأعداء عباً جيشه وعقد الأولوية ، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، ولواء كل قبيلة لزعيمها .

وكان الجيش الإسلامي أكبر جيش تجمع منذ ظهور الإسلام وأكثر عدداً وقد أثر عن النبي صلوات الله عليه قوله في وصفه : لن تغلب اليوم من قلة ، وكان الله سبحانه وتعالى قد كشف عن بصره الحجاب فرأى ما سيحدث فقال هذا القول ليقرر أن العبرة في الجيوش ليست بكثرة العدد وإنما بقوة الروح المعنوى .

مباغطة خطيرة

وانحدر الجيش الإسلامي نحو العدو في واد ضيق منحدر ، تحيط به مرتفعات ذات شعاب ومضايق ، وكان العدو قد سبقهم إليها وكن لهم فيها ، فبينما المسلمون يسبون في الصباح الباكر وقد بقيت من الظلام بقية ، إذ بالعدو يفاجئهم بالهجوم الشديد من المضائق والشعاب التي كن فيها ، فعملت المفاجأة عملها فاختلفت الصفوف وسادت الفوضى وتراجع الناس لا يلوون على شيء .

أنا النبي لا كذب

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين وانكشف عنه الناس إلا القليل
فقال: أين أيها الناس، هلموا إلى، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. أنا النبي
لا كذب، أنا بن عبد المطلب؟

وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم أبو بكر وعمر
وعلى والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وابنه وأخوه ربيعة
وأسماء بن زيد وأيمن بن أم أيمن وقد استشهد في هذه الواقعة.

يا معشر الأنصار

وكان العباس بن عبد المطلب ممسكا بزمام بغلة الرسول وكان رجلا جسيما جهير
الصوت فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر
أصحاب السمر^(١).

وما كاد الأنصار يسمعون الصريخ بهم، حتى قالوا: لبيك، لبيك، ويريد الرجل
منهم أن يوجه بعيره نحو الصوت فيعززه ذلك لشدة تدافع الناس وغلبة القوضى عليهم
فينزل عن بعيره ويحمل سلاحه، ويتجه نحو الرسول حتى إذا تجمع منهم مائة هجموا
على المشركين هجمة قوية رائعة، فنظر إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال:
الآن حمى الوطيس!

أنا ابن أمك

والتفت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب^(٢)
وهو أخذ بمؤخرة سرج الدابة التي يركبها ليحفظه من خلفه، فقال: من هذا؟ قال
أبو سفيان: أنا ابن أمك^(٣) يا رسول الله.

(١) السمر: الشجرة. يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الشجرة التي بايعه الصحابة تحتها
بيعة الرضوان في الحديبية.

(٢) القراء حديثو عهد بما كان بينه وبين الرسول في طريق الجيش الفاتح إلى مكة.

(٣) كناية عن أنه من آل الرسول الأقرين.

شاهت الوجوه

و بينا المعركة فى ذروتها والحرب تغلى غليان الرجل . هتف النبى عليه الصلاة والسلام ببغلته فأناخت به وهو على ظهرها حتى بلغت يده الأرض ، فأخذ حفنة من تراب رماها فى وجوه الأعداء ، قائلاً : شاهت الوجوه ، وتلا بعض آيات الذكر الحكيم ، فأظهر الله المسلمين على المشركين ، وهزم الكافرين هزيمة منكرة ، فولوا الأدبار ، ولم يلقوا بالاً إلى من خلفوا وراءهم من مال و بنين ، وهكذا صدقت فيهم نبوءة دريد بن الصمة حين قال : وهل يرد المنهزم شىء ؟

أخبار وأسرار

على هامش المعركة

وقعت هزيمة المسلمين فى أول المعركة على نفوس مشركى قریش وزائى الإسلام منهم موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

فقال أبو سفيان بن حرب الذى أسلم اتقاء ضرب العنق : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر !

وقال : كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ! فقال أخوه صفوان بن أمية وهو مشرك يزجره : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يرَبِّى (١) رجل من قریش ، أحب إلى من أن يرَبِّى رجل من هوازن . وجاء رجل من شيعتهم يقول لهم : أبشروا بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً .

فقال عكرمة بن أبى جهل يحجبه :

أما إنهم لا يجبرونها أبداً فليس بيدك . الأمر بيد الله ، ليس إلى محمد شىء منه ، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً .

فقال سهيل بن عمرو لعكرمة : والله إن عهدك بخلافه لحديث :

(١) يرَبِّى : أى يكون لى رباً بمعنى مالك أو سيد .

فقال عكرمة : يا أبا يزيد ، إنا كنا على غير شيء ، وعقولنا ذاهبة ، نعبد حَجْرًا
لا يضر ولا ينفع .

ينوى اغتيال الرسول

وكان شيبه بن عثمان بن أبي طلحة العبدري فيمن حضر الموقعة من مشركي
قريش ، فلما رأى هزيمة المسلمين وانكشافهم عن الرسول عليه الصلاة والسلام ،
حدثته نفسه أن الفرصة قد واثته ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذًا بثأر أبيه
الذي قتل بيدر ، فجاءه من خلفه ، فلما هم به تغشى فؤاده شيء حال بينه وبين إمضاء
عزمته ، فالتفت الرسول الكريم وعرف الذي أراد فَمَسَحَ صدره وزال عنه الشك
وملأه الإسلام . فدعا له النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : ادن فقاتل .

دعابة لطيفة

وفي إبان المعركة رأى الرسول عليه الصلاة والسلام ، أم سليم ابنة ملحان ،
وكانت مع زوجها أبي طلحة ، وهي حازمة وسطها ويدها زمام جمل زوجها . فقال لها
الرسول : أم سليم ؟
قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أُقْتِلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك ،
كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل !
فقال الرسول : أويكفي الله يا أم سليم .
واشترك زوجها أبو طلحة في الحديث ، وقد رأى زوجته تحمل خنجرًا ، فقال
لها : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، إن دنا مني أحد من
المشركين شققت بطنه به ، فقال زوجها :
ألا تسمع يا رسول الله ما تقول الرَّمِيصَاءُ^(١) ؟ فجعل رسول الله عليه الصلاة
والسلام يتنسم .

(١) الرميضاء : التي بعينها ضعف ، كأنه يقول : العشاء من باب المداعة .

العلامة عضه ١٩

وكان في سبي هوازن الشيماء بنت الحرث بن عبد العزى أخت الرسول عليه السلام في الرضاع وأمها حليلة فمُتت إليه بهذه الصلة ، فسألها عليه السلام : ما علامة ذلك ، فذكرته بأنه عضّها وهي حاملته في ظهرها ، فذكر الرسول الكريم ذلك وبسط لها رداءه ، فأجلسها عليه ، وخيرها بين أن تقيم معه محبة مكربة ، أو أن يردّها إلى أهلها ، فاخترت الثانية ، فمنحها الرسول منحة كريمة ، وردّها إلى قومها .

مقتل دريد بن الصمة

وكان الرسول عليه السلام قد أمر بتعقب المنهزمين من المشركين ، فأدرك ربيعة ابن ربيع وشهرته ابن الدُّعْنَة ، دريد بن الصمة في هودجه ، فأخذ بزمام بعيره ، وهو يظن أن الراكب امرأة فلما تبين أنه رجل ، أراد قتله وهو لا يعرفه فضربه بسيفه فلم يصنع شيئاً ، فقال له دريد : بئس ما سلحتك أملك ! خذ سيفي هذا ثم اضرب به فإذا أتيت أملك فقل لها : قتلت دريد بن الصمة !

فلول المنهزمين

ولما انهزمت هوازن وحلفاؤها تفرقوا فرقاً ، فذهبت فرقة إلى الطائف وأخرى إلى نخلة وثالثة إلى أوطاس . وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إثر جماعة أوطاس سرية على رأسها أبو عامر الأشعري ، فأبلى في القتال بلاء حسناً ثم أصيب بسهم فاستشهد ، فأخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعري وقاتل القوم حتى هزمهم .

خالد يصاب

ومن المسلمين الذين أبلوا بلاء حسناً يوم هوازن خالد بن الوليد فقد قاتل قتال المستميت وأصيب بجراحات بالغة حتى أثقل .

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ملاقاه خالد سار في الجيش بعد انتهاء المعركة يقول : من يدلني على رجل خالد ؟ ولما دُلَّ عليه وجده قد أسند إلى مؤخرة رحله من شدة مابه من الألم ، فنفت على جرحه فبرىء في الحال .

العدل والحزم

يجمعان في قصة قتيل

كان النبي عليه الصلاة والسلام قد بعث عبد الله بن أبي حدرٍ إلى إصم في نفر من المسلمين لبعض الأغراض الحربية ، فلما بلغوه مر بهم عامر بن الأضبط الأشجعي وحياهم بتحية الإسلام فأمسكوا عنه ، ولكن محمَّد بن جثامة أحدهم وثب على الرجل فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بغيره وما عليه من متاع حقير .

فلما قدم القوم المدينة وأخبروا الرسول بما حدث أنزل الله تعالى قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، إلى آخر الآية .

ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام بحنين ، جاءه عيينة بن حصن رئيس غطفان يطالب بدم عامر بن الأخط ، ووقف الأقرع بن حابس يدافع عن محمَّد ، فتداولوا الخصومة ، وعرض الرسول على عيينة دية القتيل مائة من الإبل فأبى ، وأعاد الرسول العرض ، وكرر عيينة الرفض .

فخلا الأقرع بن حابس بعيينة ومن معه من المتشبهين بالقوَد ، وقال لهم : بامعشر قيس ، منعم رسول الله ، قتيلا يستصلح به الناس ، أفأنتم أن يلعنكم فيلعنكم الله بلعنته أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه ، والله الذي نفس الأقرع بيده لتسامنه إلى الرسول فليصنعن فيه ما أراد أو لآتين بخمسين رجلا من بني تميم يشهدون بالله كلهم أن صاحبكم قتل كافراً ، وبذلك يُطْلَ دمه .

فلما سمعوا ذلك قبلوا الدية .

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام : أين صاحبكم — أى القاتل — فجاهم محم
وكان قد تهيأ للقتل والقوم يظنون أن الرسول يريد به خيراً ، فلما مثل بين يديه سأله
عن اسمه فقال : محم بن جثامة .

فقال الرسول : أَمَنَّتَهُ بالله ثم قتلته ، ثم رفع يده ، وقال : اللهم لا تغفر لحم
ابن جثامة .

فلم يمكث إلا سبعا حتى مات ، ولما دفن لفظته الأرض مراراً حتى اضطروا
إلى دفنه بين صدعى جبل وأثقلوا عليه بالحجارة .

غزوة الطائف

لم يكن هناك بدٌّ بعد أن ظهرت ثقيف هوازن على حرب المسلمين أن تكون
وجهة الجيش الإسلامى وغرضه الأول وأكّد هذا العمل ما حدث من لجوء
فلّ حنين إلى الطائف ، وكان من بين من لجأ إليه مالك بن عوف رئيس جيش
المشركين فى حنين ، وتطبيقاً لهذه الخطة سار الرسول عليه السلام إلى الطائف فيمن
معه من المسلمين ، وجعل على مقدمة الجيش سيف الله خالد بن الوليد .

وبلغ الجيش الطائف فوجد أهلها قد تحصنوا واتخذوا عدتهم للحصار من
مؤن وسلاح ، وكان الحصن منيعاً جداً وبادر من فيه إلى رمى المسلمين بالنبال
فأصابوا عدداً منهم وكان فيمن أصيب أبو سفيان بن حرب جاءه سهم أصاب
إحدى عينيه ففقأها ، وعبد الله بن أبى بكر وقد طالوله جرحه حتى استشهد فى خلافة
أبيه ، وبلغ عدد من توفى بسهام المشركين اثنى عشر شهيداً .

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام الجيش بالتأخر مسافة لاتصل إليه فيها نبال العدو ،
وضرب قبتين لزواجه أم سلمة وزينب بنت جحش وصلى بينهما ، فلما أسامت
ثقيف فيما بعد ، بنى عمرو بن أمية بن وهب مسجداً مكان مصلى النبي بين القبتين .
واستمر الحصار قرابة عشرين يوماً ، ولم يكن هناك قتال ، لأن المشركين

اعتصموا بخصمهم ، وأقاموا على حراسته ، وقد أخذ خالد بن الوليد ، يتحدى المشركين كل يوم بطلب المبارزة فلا يستجيب له أحد ، فلما أكثر على العدو أطل عليه عبد ياليل رئيس ثقيف ذات يوم ، وقال له :

لن ينزل إليك منا أحد ، ولكن تقيم في حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقيمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيفنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

منجنيق ودبابة

ولما رأى النبي عليه الصلاة والسلام إصرار العدو على خطته أمر بنصب المنجنيق^(١) عليهم ، فكانوا أول من رمى به في الإسلام ، ثم زحف جماعة من المسلمين في دبابة^(٢) إلى الحصن يريدون ثقب جداره فأرسل عليهم العدو قضبان الحديد ممحمة بالنار ، فاضطر المسلمون الذين في الدبابة إلى الخروج منها اتقاء الحريق فرماهم العدو بالنبال .

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة من الحصن وصاحا بالعدو ، أن أمّنونا حتى نكلمكم ، فأمنوهما ، فأهابا بنساء قريش وكنانة المتزوجات في ثقيف أن يخرجن إلى المسلمين مخافة السبي ، فلم يستجبن لهما وآثرن البقاء مع أزواجهن وكان من بينهن آمنة بنت أبي سفيان كانت عند عروة بن مسعود ، ولهذا المناسبة يحسن أن نذكر أن عروة لم يكن في الحصن وقت حصاره .

الله والرحم

ورأى المسلمون إكراه ثقيف على المناجزة من طريق قطع أشجارها من نخيل

(١) آلة حرب قاذفة .

(٢) سبق أن شرحنا الدبابة عند العرب .

وأغاب ، فلما شرعوا في ذلك ، جزع العدو جزعا شديداً ونادى نفر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن دعما لله وللرحم ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أدعها لله وللرحم .

وحدث أثناء الحصار أن كان النبي عليه الصلاة والسلام يرسل سرايا إلى القبائل والأعراب النازلين بقرب الطائف يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له . وعلى ذلك عزل الطائف وأصبح لا سند له من أحد حوله .

الحرية لا تنزع

ونادى منادى الرسول عليه الصلاة والسلام : أيما عبد نزل من الحصن فهو حر فخرج إليه من عبيد القوم اثنا عشر رجلاً وأسلموا ، فأعتقهم النبي الكريم ، ولما أسلمت ثقيف فيما بعد طلبت إلى الرسول أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه من الرق ، فأبى صلوات الله عليه أن يرجع الحر عبداً ولكنه جعل ولائهم إلى ساداتهم الأقدمين . ولما طال الحصار ، استشار الرسول عليه الصلاة والسلام ، نوفل بن معاوية الديلي في المقام أو الذهاب ، فقال :

يارسول الله : ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ! وحمل شدة الموقف بعض الصحابة على أن يطلب من رسول الله أن يدعو على ثقيف ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين . ثم أمر الجيش بالرحيل .

مُثُلٌ وَأَخْلَاقُ

توزيع غنائم حنين على المسلمين

لم يكن ما لاقاه الرسول من بعض الأعراب الذين ظاهروه على هوازن وثقيف طمعاً في الكسب وهم مشركون ومن بعض حديثي الإسلام ولما يدخل الإيمان

في قلوبهم — أقل إعناتا وإحراجا مما لاقاه من أعدائه أنفسهم ، فقد تكشفت بعض النفوس عما يفعمها من الصغار والدناءة ، وبدا جفاء الأعراب في أشنع صوره ، وعُمِّيت سياسة الرسول عليه الصلاة والسلام على بعض أصحابه الصادقين فوجدوا عليها . وقد عيننا بالقسم الأخير جماعة من الأنصار ، وسيرد نبؤهم مفصلا .

وكان الذي حرك هذا كله عمْد النبي عليه الصلاة والسلام إلى إجزال العطاء لحديثي الإسلام من قریش ليتألف قلوبهم ، وليخفف عنهم مضاضة التفكير فيما كانوا فيه من رياسة وسيادة وما صاروا إليه من تبعية وشعبية ، وهي حال لا يستعصى على على القراء تفهمها إذا استذكروا ما مر بهم من جبروت زعماء قریش ، وما كان لهم من السيادة الروحية على العرب أجمعين إذ كانوا ولاية الكعبة وسدتها وإليهم كل مراسمها .

لما فك النبي عليه الصلاة والسلام حصار الطائف سار حتى نزل بالجعرانة حيث كان قد خلف سبي هوازن وأموالها ، وكان ذلك شيئا كثيرا جداً بلغ نحو ستة آلاف نفس وألوفاً مؤلفة من النعم على اختلاف أنواعها ، ويذكر القراء أن هوازن أحضرت معها أهلها وأموالها لتحت المقاتلين على الثبات — كما قدمنا ذلك — فلما انهزموا استولى المسلمون على ذلك كله ، فأحصى وأعد للتوزيع حسب الشريعة .

المؤلفة قلوبهم

وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام في توزيع الغنائم فأجزل العطاء لفريقين : أولها حديثو الإسلام ليتألفهم ، وثانيهما زعماء القبائل وكبار الشخصيات من غير المسلمين الذين ظاهروا على هوازن وثقيف ليحبب إليهم الإسلام .

فمن الفريق الأول أبو سفيان بن حرب فقد أعطاه الرسول أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل . وأعطى ولديه : معاوية يزيد كلا منهما مائة من الإبل . فقال أبو سفيان وقد بهره هذا العطاء : بأبي أنت وأمي ، لأنك كريم في السلم والحرب .

ومنه حكيم بن حزام من سادة قريش وقد أعطاه الرسول مائة من الإبل ، فاستزاده فأعطاه مائة أخرى فاستزاده فأعطاه مائة ثالثة ، ثم قال :

يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

وقد أثرت هذه الحكم البليغة في نفس حكيم فأخذ العطاء الأول وترك ماعداه . ثم قال : والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا . وقد برّر حكيم بقسمه ، فتنازل عن عطائه العادى في بيت المال طوال حياته وأبى أن يسمع للخلفاء في أخذه .

ومن الفريق الثانى : عيينة بن حصن الفزارى ، وهو مشرك ، وكان كثير المناوشة للمسلمين وهو إلى ذلك كحتم وقد سماه الرسول عليه الصلاة والسلام : الأحمق المطاع ، وقد كان عطاؤه مائة من الإبل .

ومنه صفوان بن أمية — صاحب حديث السلاح الذى استعاره منه النبى عليه الصلاة والسلام فى حرب هوازن — وقد أعطاه الرسول قطعة كبيرة من نعم وشاء رآه يرمقها فقال عليه الصلاة والسلام له : هل أعجبتك ؟ قال : نعم . قال هى لك .

فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ! وكان ذلك الكرم النبوى حافظاً له على الإسلام . ومنهم عروة بن مسعود الثقفى أعطاه الرسول مائة من الإبل . ولما جاء دور التوزيع على الغزاة ، أمر عليه الصلاة والسلام بإحصاء ما بقى من الأموال ، والتف الأعراب الجفاة حول رسول الله عليه الصلاة والسلام يهتفون به : أقسم علينا فيئنا ، حتى ألجؤوه إلى شجرة فعلق رداؤه بعضن منها فارتفع عنه . فقال عليه الصلاة والسلام :

ردوا على رداى أيها الناس فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نعماً لتقسمتها عليكم ، ثم ما لقيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .

ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها ، فقال :

أيها الناس ، إنه والله ليس لى من فيكم ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والخيط فإن الغلول^(١) يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة .

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر وذكر أنه كان قد أخذها لعمل منها برذعة لجل مريض له ، فقال الرسول : أما نصيبى منها فلك ، فقال الرجل : إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لى بها ، ثم طرحها من يده .

وجاء عقيل بن أبى طالب بإبرة كان قد أخذها ليخيط بها ثيابه ، وقد أصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة ، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك .

الحلم شيمته

وأقبل رجل من أعراب تميم فوقف على النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : يا محمد ، لم أرك عدلت .

فغضب الرسول الحليم ، وقال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى . فعند من يكون ؟

واستأذن عمر بن الخطاب الرسول فى قتله فأبى ، وكان الحلم من شيمه والنفو من أسمى صفاته .

وأعطى الرسول عليه الصلاة والسلام عباس بن مرداس دون ما أعطى بعض زعماء العرب المشركين ليحبب إليهم الإسلام ، فلم يتسام عباس لفهم سياسة الرسول ، فقال قصيدة يعتب فيها ويقول إنه ليس دون من أجزل لهم العطاء ، ولا أبأؤه بدون آبائهم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اقطعوا لسانه عنى ، فأعطى حتى رضى .

(١) الغلول : إخفاء شىء من الغنائم قبل التوزيع .

بين النبي والأنصار

لما أعطى الرسول عليه الصلاة والسلام عطاءه الجزيل قریشاً وزعماء العرب ولم يكن للأنصار نصيب من هذه الخصوصية ، وجدوا في أنفسهم شيئاً من ذلك . وقال قائلهم : لقي رسول الله قومه فهو يعطيهم ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم . وذهب سعد بن عبادة رئيس الخزرج إلى الرسول فبلغه عتب الأنصار عليه . فسأله : وأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله . ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لى قومك بهذه الحظيرة ^(١) ، فلما اجتمعوا أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال :

اللهم ارحم الأنصار

يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وموجدة ^(٢) وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة ^(٣) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمين ^(٤) وأفضل .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ألا تحبوننى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ورسوله المن والفضل .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما والله لو شئتم لقتلتم فصدقتهم ولصدقتهم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة ^(٥) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس

(١) الحظيرة : مربوط الإبل والماشية .

(٢) الموجدة : العتاب .

(٣) عالة : جمع عائل أى فقير .

(٤) من المنة : أى النعمة .

(٥) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبا وسلكت الأنصار شِعْبا ، لسلك شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .
فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا^(١) لحاهم . وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا .

إسلام هوازن

ورد أهلها إليها

و بينما كان النبي عليه الصلاة والسلام مقيا بالجعرانة جاء وفد من هوازن يعلن إسلامها ويطلب إليه أن يمن عليهم برد أهلهم وأموالهم إليهم ، وكان رئيس الوفد زهير بن صُرد . فقال قائلهم .

يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامُنن علينا من الله عليك . وقال زهير بن صُرد رئيسهم .

إنما فى الحظائر عمتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك^(٢) ، ولو أنا ملحننا^(٣) للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعأدته^(٤) علينا وأنت خير المكفولين .

فقال عليه الصلاة والسلام : إن أحب الحديث إلى أصدقه : أبنائكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون^(٥) . فقالوا يا رسول الله : خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبنائنا . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

(١) أَخْضَلُوا لحاهم : بلوها بالدموع .

(٢) يشير بذلك إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام رضع فى بنى سعد بن بكر من هوازن .

(٣) ماجنا : أرضعنا .

(٤) العائدة : الفضل .

(٥) لما رجع النبي عليه الصلاة والسلام من الطائف إلى الجعرانة أقام بها بضع عشرة ليلة قبل أن يوزع ما غنمه من ذرارى وأموال هوازن انتظار مقدمها مسلمة فلما لم تقدم وزع الغنيمة .

ثم طلب إليهم عليه الصلاة والسلام أن يقوموا بعد أن يصلى الظهر ، فيستشفعوا به إلى المسلمين ، وبالمسلمين إليه في أبنائهم ونسائهم ، فلما فعلوا ذلك ، قال الرسول : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وأبى بعض أجلاف العرب أن ينزلوا على هذا القضاء الشريف فأخذ النبي عليه الصلاة والسلام جميع من بأيديهم من سبى هوازن وردهم إلى أهلهم . على أن يعطيهم بكل إنسان ست فرائض^(١) من أول غنم يصيبه .

مثل أعلى في التسامح

وأمر عليه الصلاة والسلام بحبس آل مالك بن عوف رئيس المشركين في معركة حنين ، فقال وفد هوازن : إنهم خيرنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنما أريد بهم الخير . وسأل عن مالك بن عوف أين هو ؟ فقالوا : إنه فى الطائف ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بلغوه أنه إن جاءنى مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل .

ولما بلغ مالك هذا العرض الكريم سارع بالهرب من الطائف قبل أن تعلمه ثقيف فتحبسه ، وسار إلى الرسول فأسلم واسترد أهله وماله . وقد ولّاه الرسول عليه الصلاة والسلام على من أسلم من هوازن . ثم صار بعد إسلامه الله عدو لثقيف وأشد الناس نكاية بها .

عمرة الجمرانة

ثم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من الجمرانة معتمراً فى ذى القعدة من

(١) الفريضة : اسم البعير الذى يؤخذ فى الزكاة .

السنة الثامنة فلما فرغ من عمرته ، خرج من مكة عائداً إلى المدينة واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وجعل له درهماً كل يوم يعيش به ، فقال عتاب :
أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد .
وخلف الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، معاذ بن جبل يفتقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن .

وحج العرب الذين لم يسلموا هذا العام — ومكة في أيدي المسلمين — على ما كانوا يحجون عليه في الجاهلية ، وكانت لذلك حكمة سامية هي أن يتصلوا بالإسلام ويتعرفوا تعاليمه ويقفوا على أوامره ونواهيه فيطلعوا على فرق ما بينه وبين عقائدهم الوثنية فيسهل عليهم اعتناقه ، وقد كان ذلك .
وحج بالمسلمين عتاب بن أسيد أمير مكة من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام .

قصة شاعر

كان لزهبر بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي ولدان شاعران أحدهما : بُجَيْر ، وقد أسلم ، وثانيهما كعب ظل على شركه ، ولما بلغه إسلام أخيه لومه لوماً شديداً في شعر أرسله إليه ، فلما فتحت مكة وفر من كان فيها من الشعراء الذين كانوا يؤذون رسول الله بشعرهم خوفاً منه . ذهب بجير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأطلعته على الشعر الذي جاءه من أخيه ثم كتب إلى أخيه ينذره بالقتل إن هو لم يسلم ، ويقول له : إن الرسول لا يقتل أحداً جاءه مسلماً .

فلما تسلم كعب رسالة أخيه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأرجف به أهل الحى أنه مقتول فاعتزم الإسلام وقدم المدينة ونزل على صديق له بها من جهينة فأخذه الجهني معه إلى مسجد الرسول عند صلاة الصبح ، فلما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من صلاته ، أشار الجهني إلى كعب يعرفه بالرسول . فذهب كعب إلى الرسول وهو لا يعرفه ، ووضع يده في يده ، وقال :

يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء يستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم .

قال : أنا كعب يا رسول الله ، ثم أسلم ، واندفع ينشد النبي عليه الصلاة والسلام قصيدته العصماء :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم إثرها لم يفد مكبول
وهي قصيدة من جيد الشعر وعيون القصيد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ،
والتغني بمحامده والإشادة بماثره الشريفة . ولما بلغ كعب في إنشاده قوله :
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
نظر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه كالمعجب لهم من حسن القول
وجودة الشعر .

مولد إبراهيم عليه السلام

وفي ذى الحجة من السنة الثامنة ولدت مارية القبطية إبراهيم ابن الرسول عليه السلام ، فدفعه الرسول إلى أم بردة بنت المنذر زوج البراء بن أوس من بني النجار لترضعه . واشتد الأمر على نساء الرسول حين رزقت مارية منه الولد ولم يرزقن .
وقد توفي إبراهيم عليه السلام في السنة العاشرة الهجرية وعمره ثمانية عشر شهراً ، فحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لوفاته حزناً شديداً فاضت منه عيناه الكريمتان .
وقد صادف يوم وفاته كسوف الشمس فكان لذلك وقع عظيم في النفوس ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نبه إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده ، فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .

الإسلام في اليمن

إسلام صداء

وبعث النبي عليه الصلاة والسلام قيس بن سعد في أربعائة رجل إلى صداء من قبائل اليمن ، فجاء رجل من هذه القبيلة إلى النبي وقال له : إني جئتُك وافداً عمّن ورأى ، فاردد الجيش وأنا لك بقومى ، فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام برد الجيش . وانقلب الرجل إلى قومه فجاء بخمسة عشر رجلاً من خيارهم ، ونزل هو ومن معه ضيوفاً على سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، ثم قابلوا الرسول وبايعوه على الإسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا .

وقد كان هؤلاء القوم من الصادقين ، فإنهم عملوا على نشر الإسلام في قبيلهم حتى فشا فيهم ، وقد قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام مائة من خيارهم أثناء حجة الوداع .

المنادون من وراء الحجرات

إسلام تميم

وحدث في أخريات السنة الثامنة الهجرية أن أرسل النبي عليه الصلاة والسلام بشر بن سفيان العدوى إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم ، فعز على بنى تميم وهم جيران لهم أن يأخذ الرسول الصدقات من الأغنياء ليوزعها على الفقراء ، فمنعوا بنى كعب بالقوة أن يسلموا نائب الرسول صدقاتهم .

ولما بلغت الرسول عليه الصلاة والسلام حماقة بنى تميم أرسل إليهم الأحق المطاع : عينية بن حصن الفزاري - وكان قد أسلم - في رهط من الأعراب ، فأغار عليهم وأسر اثني عشر منهم ، وسبى إحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً .

وجاءت أشراف بنى تميم في إثر أحسابها ، وكان من بينهم عطار بن حاجب ابن زرارة ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمر بن الأهم ، وقيس ابن

عاصم ، وغيرهم من زعماء تميم وأهل البيوتات فيها ، ولكنهم على ذلك أعراب أجلاف ، فلما قدموا المدينة دخلوا مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونادوا الرسول من وراء حجراته ، أن اخرج إلينا يا محمد ، فأذى ذلك رسول الله فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرُكَ فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا .

ثم أذن بلال للظهور وصلى الرسول الفريضة ، فالتف حوله بنو تميم ، وخطب عطار بن حاجب فقال :

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً ، وأيسره عدة ، فمن مثُلنا فى الناس ؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فآخرنا فليُعدّد مثل ما عدّدنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وأنا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لثابت بن قيس بن الشّمس الخزرجى : قم فأجب الرجل فى خطبته . فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقّه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأُنزل عليه كتابه واثمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا .

ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن

آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم .

ثم قام الزرقان بن بدر فألقى قصيدة يفخر فيها بقومه .

وقام حسان بن ثابت فرد عليه بقصيدة من روى قصيده ، افتخر فيها بقومه ونصرهم الإسلام .

فلما فرغ حسان بن ثابت من إنشاده ، قال الأقرع بن حابس :

وأبي ، إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا .

ثم أسلم القوم ، وفيهم نزلت الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) » .

السنة التاسعة الهجرية

غزوة تبوك ^(٢)

بعد أن فتح الله مكة على المسلمين ، وهزم جموع القبائل في حنين ، وأسلمت القبائل التي حول الطائف ، وأخذ الإسلام ينتشر بين القبائل ، اتجهت أنظار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الروم في الشام ، لينشر الإسلام فيه ، وخاصة أنه علم أن الروم تتهيأ لغزوه ، وأن المسلمين عليهم دماء بما أصابوه منهم في غزوة مؤتة التي قتل فيها أمراء الجيش الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، ومن أجل هذا كله أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتجهز لغزو الروم .

(١) الحجرات : ٤ ، ٥

(٢) تبوك : اسم لعين تقع في مكان على مشارف الشام . وهذه التسمية أطلقت عليها في هذه الغزوة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن المساس بها بخالفه أربعة من المنافقين وعذبوا بها فجاءهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم : ما زلت تبوكون بها ، والبوك كالخفر في شيء ، فأطلق عليها هذا الاسم وعرفت هذه الغزوة به .

وكان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام في الغزو أن يكتفم وجهته ليفجأ العدو الذي يقصد إليه ، أما في هذه المرة فقد صرح بها لبعث الشقة وكثرة العدو الذي يقصد إليه ، لكي يتأهب الناس لهذا السفر الطويل الشاق بما هو أهل له من زاد وعدة .

امتحان شديد

وكان ذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، وأحب الناس المقام في ثمارهم وظلالهم ، ولذلك امتحن المسلمون في هذه الغزوة امتحاناً شديداً ، وراجت سوق النفاق بين المنافقين ، وابتلى فيها نفر صدق من المسلمين ، لم يشكّوا ولم يرتابوا ولكنهم ابتلوا فصبروا حتى عفا الله عنهم .

الباذلون الخيرون

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام رسله إلى مكة وإلى القبائل العربية يستنفرها للقتال فنفر كثير منها ، ورغب عليه الصلاة والسلام إلى موسى المسلمين في تجهيز المعسرين ، فاستجاب بعضهم لرغبته ؛ وكان عثمان بن عفان على رأس الباذلين في سبيل الله ، فقد خرج من ماله عن عشرة آلاف دينار ، وأمد الجيش فوق ذلك بثلاثمائة بعير وخمسين فرساً ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

اللهم ارض عن عثمان فإنني راض عنه .

وخرج أبو بكر عن كل ما يملك معونة لتجهيز الجيش ، وهو أربعة آلاف درهم ، فسأله الرسول : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال : لهم الله ورسوله ، وتبرع عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وتبرع عبدالرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب بمال كثير . وتسابق المهاجرون والأنصار في التبرع حتى أرسلت النساء حُلِيِّهنَّ ، مشاركة منهن في إعداد الجيش .

وثقل على بعض المسلمين الغزو في الظروف التي أسلفنا وصفها ، فأخذوا ينتحلون الأعداء المصطنعة للتخلف ، وقد أنزل الله في كل من اعتذر بسبب كاذب قرآناً .

فمن المتخلفين : الجد بن قيس ، فقد أقام عذره على أنه رجل محب للنساء يخشى
الفتنة إذا نظر إلى نساء الروم ، فأُنزل الله فيه :
« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ^(١) » .

وقال قوم من المنافقين لا تنفروا في الحر ، زهادة في الجهاد وإرجافا بالرسول ،
فأنزل الله فيهم :
« وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ^(٢) » .

البكّاءون

ثم إن بعض الصادقين من المسلمين الفقراء ، وكانوا سبعة ، جاءوا إلى النبي عليه
الصلاة والسلام ليكون لعجزهم عن اقتناء دواب تحملهم ، فقال لهم الرسول : لا أجد
ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .
فجهز عثمان ثلاثة منهم ، وجهز العباس اثنين ، وجهز يامين بن عمرو اثنين .
وبلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت أحد
اليهود ، يشبّطون الناس عن الجهاد ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ،
وأمره أن يحرق عليهم البيت ، ففعل وذعر المنافقون ففروا هاربين .
وخرج النبي عليه الصلاة والسلام بالجيش وضرب عسكره على ثنية الوداع ^(٣)
واستعمل على المدينة محمد بن مسامة ، وكان عدد الجيش أكثر من ثلاثين ألفاً ،
وكانت الخيل عشرة آلاف فرس .

وضرب عبد الله بن أبي رأس المنافقين عسكره على حدة ، وكان معه خلق
كثير ، فلما سار الرسول بجيشه تخلف رأس النفاق ومعه عسكره .
وكان هناك نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله حتى تخلفوا عنه

(٢) التوبة : ٨١

(١) التوبة : ٤٩

(٣) مكان مشرف على المدينة .

من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وأبو خَيْثَمَة ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم .

على يخلف النبي في أهله

وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استنقالاته وتخففاً منه ، فحمل على سلاحه ولحق بالرسول وهو على ثلاثة أميال من المدينة ، فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلقتني ، استنقالاتاً وتخففاً !

فقال عليه الصلاة والسلام : كذبوا ، ولكني خلقتك لما تركت ورأى ، فأرجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي !

فرجع على ومضى الرسول لشأنه .

أصحاب الرايات

وأعطى رسول الله عليه الصلاة والسلام لواء الجيش لأبي بكر ، وأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام ، وراية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للحباب ابن المنذر .

ولما مر الجيش بالحجر ، وهي ديار ثمود ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يشرب أحد من ماءها ولا يتوضأ به ، ثم غطى وجهه بثوبه واستحث راحلته ، ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم . فلما أصبح الناس ولا ماء معهم ، شكوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فدعا ربه فأرسل — سبحانه — سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

وحدث أثناء الطريق أن ضلت ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرجف به

أحد المنافقين المصاحبين للجيش طمعاً في الغنيمة ، وقال : يزعم أنه نبي ولا يعرف مكان ناقته ، وأوحى الله إلى نبيه بذلك ، فقال :

إن رجلاً قال : هذا محمد يخبركم أنه نبي ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونني بها . فذهبوا فوجدوا الناقة في المكان الذي وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام . ثم مضى الرسول في طريقه فجعل يتخلف عنه أفراد من الجيش ، فيقولون يارسول الله : تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

كن أبا ذر

وكان أبو ذر الغفاري يركب بعيراً بطيئاً فاتته الجيش ، فقال الصحابة : تخلف أبو ذر يارسول الله ، فقال العبارة نفسها التي قالها فيمن تخلف قبله .

أما أبو ذر — وكان رجل صدق وإيمان — فإنه لما رأى كلال بعيره نزل عنه وحمل متاعه على ظهره وسار في إثر الجيش ، وبينما النبي عليه الصلاة والسلام في بعض منازلهم رأى أحد المسلمين شبحاً يسعى من بعد نحو الجيش ، فنظر إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال :

كن أبا ذر ، وكان أبا ذر ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

فأما الاثنان اللتان من شأن الدنيا فقد صدق الله رسوله فيهما ، فكان أبو ذر أمة وحده في أمر الدين والدنيا ، يعرف ذلك القارئون لحياته ومماته (انظر سيرة ابن هشام : غزوة تبوك) .

نبوءة تحققت

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مكان العين التي سميت بتبوك وهو أول مشارف الشام من الجنوب ، نزل بالجيش في أرض لا عمارة بها ، فقال الرسول لمعاذ بن جبل : يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليء بساتين . وقد تحقق ذلك .
ثم شرع الرسول في تنفيذ الغرض الذي جاء من أجله ، وقبل أن نهلك فيه نخب أن نروى الطريقة الآتية :

كن أبا خيثة

أسلفنا أن من بين النفر الصدق الذين تخلفوا عن رسول الله لا عن ريبة أو شك ، أبو خيثة ، وحدث بعد سفر الرسول عليه الصلاة والسلام بأيام أن خرج أبو خيثة من داره لبعض شأنه ، ثم رجع إليها في الظهيرة فوجد امرأتين له في عريشين^(١) لهما في بستانه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وهيأت له طعاما ، فلما رأى ذلك قال : رسول الله في الشمس والحر والريح وأبو خيثة في ظل بارد وطعام مهيا وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنصف !

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيا لي زاداً ، ففعلتا ، ثم ركب بغيره وخرج في طلب الرسول حتى أدركه وهو نازل بتبوك ، فلما دنا من الجيش ، قال الناس : هذا راكب مقبل ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : كن أبا خيثة .

فقالوا يا رسول الله : هو والله أبو خيثة .

فلما أنأخ راحلته وأقبل على الرسول عليه الصلاة والسلام يسلم عليه قال له :

(١) العريش : شبه خيمة يتخذ في الحر للطف هوائه عن البيوت .

أولى لك^(١) يا أبا خيثمة .

وأخبر أبو خيثمة الرسول بقصته فدعا له بخير .

مصالحة النبي لأهل البلاد

واستقضى الرسول عليه الصلاة والسلام الأنباء فلم يجد أثراً لجيش الروم المزعوم ، ولكن رؤساء البلاد التي تجاور تبوك وهي أيلة وجرباء وأذرح وميناء ، بادروا بالوفود إليه حين علموا بمقدمه ، وطلبوا إليه الصلح ، فأجابهم عليه الصلاة والسلام إلى ما طلبوا وكتب لهم كتباً بذلك ، وفرض عليهم فروضاً إما غينا وإما ثماراً .

أسر صاحب دومة

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد إلى ملك دومة وهو أكيدر بن عبد الملك وكان نصرانياً من كندة ، وقال الرسول لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، فخرج خالد إلى الحصن في ليلة مقمرة حتى إذا كان منه بمنظر العين ، حدث أمر عجيب ؛ فقد جاءت البقر تحك بقرونها باب الحصن ! وكان أكيدر يجلس على سطح له ومعه امرأته ، فقالت له : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذا ؟ قال : لا أحد !

فأخذ سلاحه وركب فرسه وخرج في نفر معه ، فما هو أن برز من باب الحصن حتى تلقته خيل رسول الله فأخذته أسيراً ، وقدم به خالد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فحقت دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .

الرجوع إلى المدينة

وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم استشار أصحابه هل يمضى إلى ما وراء ذلك من الشام أو يرجع إلى المدينة ؟ فقال عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال الرسول : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر . فقال عمر :

(١) أولى لك : كلمة تفيد التهديد ، أى دنوت من الهلكة .

يا رسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ،
وقد أفزع الروم دنوك منهم ، فلورجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً .
فأخذ الرسول برأى عمر ، وانصرف قافلاً إلى المدينة .

هدم مسجد الضرار

حدث أثناء اشتغال النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز الجيش لغزوة تبوك أن جاءه
جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يعارضون به مسجد قباء ، يدعونه للصلاة فيه فاعتذر
لهم عن عدم استطاعته ذلك لما هو فيه من الاهتمام بأمر الغزو ، وهو عليه الصلاة
والسلام يعلم أنهم إنما بنوه ضراراً وتفرقة .

فلما بلغ الرسول في مقدمه إلى المدينة عائداً من غزوة تبوك ذى أوان ، وهو على
مسير ساعة منها ، أرسل جماعة من المسلمين فهدموا مسجد الضرار وحرقوه .

وقد نزل في هذا المسجد قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجاً
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ^(١) » .

المخلفون الكاذبون

وعلى إثر مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة سارع إليه المخلفون الكاذبون
من أهل النفاق ، يعتذرون عن تخلفهم عنه وينتحلون أعذاراً كاذبة ، وكانوا بضعة
وثمانين رجلاً ، فقبل ما ظهر منهم ووكّل ما بطن إلى الله واستغفر لهم ، وقد أنزل الله
عز وجل فيهم قوله :

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ^(٢) » الآية .

الثلاثة الذين خلفوا وكانوا مؤمنين

وكان من حديث الذين خلفوا وهم مؤمنون صادقون ، وقد ذكرنا أسماءهم أول الكلام عند غزوة تبوك وكانوا أربعة ، سلم أحدهم وهو أبو خيثمة ، وقد مرت بالقراء قصته ، أما الثلاثة الآخرون فإنهم سارعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم إثر عودته إلى المدينة ، وصدقوه عن ذات أنفسهم ، فلم ينتحلوا أعذاراً ، ولم يوهموا بأسباب ؛ بل اعترفوا بتقصيرهم وكان من بينهم كعب بن مالك وهو ممن بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، فجاء النبي وقال له :

إني يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني ، وليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه ، إني لأرجو عقابي من الله فيه ، ولا والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك . وأمر النبي عليه الصلاة والسلام المسامحين أن لا يكلموا كعباً وزميليته ، ثم أمر الثلاثة الخلفين أن يجتنبوا نساءهم ، فاشتدت عليهم الحال وعظم عليهم الأمر ، وظلوا كذلك خمسين ليلة حتى أنزل الله رحمته بهم فتاب عليهم وعفا عنهم ، يقول سبحانه وتعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(١) » .

ولما بشر الله المسلمين بهذه التوبة سارع بعضهم إلى الثلاثة الخلفين فبشرهم بذلك ، وجاء كعب بن مالك إلى النبي عليه الصلاة والسلام فسلم عليه ، فقال له المصطفى : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ، فقال كعب : أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله .

قال كعب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ، فقلت :

إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . وقال كعب : فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هداني للإسلام كانت أعظم في نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أن لا أكون كذوبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا .

نكتة بيائية

قال كعب بن مالك في حديثه إلى الرسول بعد عودته إلى المدينة : « ولقد أعطيت جدلا » يقصد به إلى أنه لو اتجه إلى التمويه والفسطحة لوجد متسعا من القول ، ولكنه آثر الصدق . وقد أعجبنا منه تفسيره للآية التى نزلت فيه هو وزميلاه وفيها « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » فقد فسرهما بقوله :

وليس الذى ذكر الله من تخلفنا لتخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عن حلف له — أى للرسول — واعتذر إليه ، فقبل منه .
رضى الله عنه ، ما أبلغه وأعلمه بمرامى الذكر الحكيم !

إسلام عبدة اللات وتحطيم معبودهم

كان عناد ثقيف يشبه من وجوه كثيرة عناد قريش قبل إسلامها ، وربما كانت أشد جفاء منها لغلبة البداوة عليها ولاعتزازها بحصنها النيع وراثتها المستند إلى الزرع

والفاكهة الكثيرة بأرضها ، وكانت حتى الآن هي القبيلة الوحيدة ذات الشأن التي ظلت سادرة في حمايتها وسط الرقعة الإسلامية التي عمها الإيمان بالله وتخلصت من الشرك وعبادة الأوثان ، ولذلك كان أمرها يشغل المسلمين كثيراً ويحملهم على التفكير فيها طويلاً .

إنهم قاتلوك

وكان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف قد هداه الله للإسلام وسأل النبي عليه الصلاة والسلام أن يأذن له في الذهاب إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام ، وخشى عليه الصلاة والسلام جفاء قومه ، فقال له : إنهم قاتلوك . فقال عروة : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم !

وذهب عروة إلى قومه معتزاً بجأه عندهم ومنزلته فيهم ، فأشرف على مرتفع ودعاهم إلى الإسلام وأخبرهم بإسلامه ، فكان رددهم عليه أن رشقوه بالنبل من كل مكان فأصاب سهم منه مقتلاً فسقط شهيداً ، وسئل قبل وفاته ، ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم .

ورأت ثقيف بعد ذلك أنها أصبحت في عزلة من العرب وأن غربان العرب أخذوا يتخطفونها من كل جانب ، فأدركت أنه لا طاقة لها بحرب العرب كلهم ، ذلك إلى ما كان يتناهى إليها من انتشار الإسلام وازدياد شوكته كل يوم ، فكان أن اجتمعت للتشاور ، فأقترحت على عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان في موضع الرياسة منها أن يذهب فيقابل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فخشى أن يصيبه ما أصاب عروة بن مسعود إذا رجع إليهم بغير ما يرضونه ، فأبى إلا أن يبعثوا معه وفداً يمثل عشائهم فاختروا خمسة من بينهم ضمواهم إليه ، ثم سار الوفد حتى أتى المدينة ، فكان أول من لاقاه المغيرة بن شعبة الثقفي ، فلما عرفهم أسرع ليخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بقدم وفد ثقيف ، فلقية أبو بكر ، فسأل ما الخبر ؟ فلما عرفه بقدم وفد ثقيف ،

سأله بالله أن يترك له حمل هذه البشرى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان أن
تولى أبو بكر إخبار الرسول بمقدمهم .

ولما قدموا على رسول الله عليه الصلاة والسلام ضرب عليهم قبة فى ناحية من
مسجده ، وتولى خالد بن سعيد بن العاص السفارة بينهم وبين الرسول ، وكانوا من
الغلظة والجفاء بحيث أنهم لم يكونوا يتناولون طعاماً يأتيهم من عند الرسول إلا بعد
أن يأكل منه خالد قبلهم !

ولا شيئاً مسمى

وقد كانوا سألو الرسول فيما سألوه ، أن يدع لهم معبودهم « اللات » ثلاث سنين
ثم يهدمها بعدها ، فأبى الرسول عليهم ذلك ، فسألوه أن يبقيا سنتين فسنة فشهراً
بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى ^(١) .

فسألوه أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم .
فأجابهم الرسول إلى الثانية وقال : سنعيكم منها ، أما الصلاة فإنه قال لهم :
لا خير فى دين لا صلاة فيه .

إسلام وفد ثقيف

وعلى أثر ذلك أسلم القوم من غير قيد ولا شرط ، وأرسل النبي عليه الصلاة
والسلام معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات ، وأمر أبا سفيان أن
يدفع دين عروة بن مسعود وأخاه الأسود من كنوز اللات ، وأمر الرسول على ثقيف
عثمان بن أبي العاص أحدث الوفد سناً لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام
وتعلم القرآن .

ولما عاد القوم إلى ثقيف وشرع المغيرة بن شعبة فى هدم اللات ، خرج نساء
ثقيف حسراً يبكين عليها ، ويقلن :

(١) أى ولا أى جزء من مقومات الزمن .

لَتُبْكَيْنِ دُقَاقَ^(١) أَسْلَمَهَا الرِّضَاعَ^(٢)

لَمْ يَحْسِنُوا الْمِصَاعَ^(٣)

ثم أسلمت ثقيف ، وبذلك انهاراً كبير حصن من حصون الشرك في قلب الجزيرة العربية .

حجج أبي بكر بالناس

آخر حجة للمشركين وإبراء الذمة منهم

كان فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة الهجرية ، وفيها حج بالناس عتَّاب بن أسيد أمير مكة من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى الحج على ما كان عليه فيما يتصل بالمشركين ، فخرجوا على حسب تقاليدهم وأكثرهم كان يطوف بالكعبة عارياً من ثيابه . وقد اقتضت الحكمة إبقاء العرب على حالهم في هذه الحجة ليتثنى لهم الاختلاط بالمسلمين وتعرف تعاليم الدين الخفيف .

فلما كانت حجة السنة التاسعة ، ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أمر الحج بالناس وأمضى للمشركين حجهم فيها على أن تكون آخر حجة لهم .

وفي هذا الوقت نزلت سورة براءة في تقض ما بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه من أنه لا يُصدَّد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام ، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت هناك إلى جانب ذلك عهود خاصة بين الرسول وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة ، فبين الله سبحانه وتعالى الحكم في ذلك كله في هذه السورة . ولما كان نزول سورة براءة بعد مسير أبي بكر ، فقد ألحق به الرسول ، على ابن أبي طالب ليعلم ما فيها من أحكام على الناس في الحج ، وسئل الرسول

(١) أى المدافعة عنهم .

(٢) الرضاع : أى اللثام .

(٣) المصاع : المضاربة بالسيوف .

أن يكل ذلك إلى أبي بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤدي عنى إلا رجل من أهل بيتي .

وخرج على حتى لحق أبا بكر ، فلما رآه قال : أأمير أم مأمور ؟ قال على : بل مأمور ، وأخبره الخبر وكان يصلى وراءه .

فلما كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذن في الناس بما كلفه الرسول تبليغهم إياه ، فقال :

أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى ما منهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته .

وكان المشركون حين يسمعون نداء على يقولون :

ستون بعد الأربعة الأشهر بأنه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن والضرب ، إلا أن الناس بعد ذلك رغبوا في الإسلام بعد إسلام قريش حتى دخلوا فيه أفواجا ، وحج النبي صلى الله عليه وسلم في العام القابل وقد عاد الدين كله واحد لله رب العالمين .

وفاة رأس المنافقين

في شهر ذى القعدة من هذا العام ، توفى عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين بعد مرض دام عشرين يوماً ، ودعى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فلبى الدعاء ، فلما تهيأ للصلاة ، نهض عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله ، أتصلى على عدو الله ، القاتل كذا يوم كذا ، والقاتل كذا يوم كذا ، وعدد أيامه والرسول يبتسم ، فلما أكثر ، قال الرسول عليه السلام : أخر عنى ، لقد خيرت فاخترت ، قد قيل لى : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللَّهُ لَهُمْ» ^(١) فلو أعلم أني زدت على السبعين غفر له لزدت . ثم صلى عليه ومشي معه حتى قام على قبره ، ولم يمض غير يسير حتى نزل قوله تعالى :
« وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ^(٢) .

تشريع واجتماع

في السنة التاسعة فرضت الصدقات فنزلت الآية الكريمة « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » ^(٣) فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام عماله لجمع الصدقات من المسلمين .

وفيها توفيت السيدة أم كلثوم ابنة رسول الله وزوج عثمان بن عفان .

سورة النصر

إيذان للرسول ببقاء ربه

وفي هذه السنة نزلت سورة النصر :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

وقد أعلم الله نبيه في هذه السورة بقرب انقضاء أجله . والتوبة هنا — في رأى أئمة العلماء — الرجوع عما كان بسبيله مما أرسل به من إظهار الدين إذ قد فرغ من ذلك وتم مراده فيه .

والتقدير : إذا جاء نصر الله والفتح ، فقد انقضى الأمر ودنا الأجل وحن اللقاء ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا .

وفود العرب على الرسول

كما كانت هجرة الرسول من مكة إلى المدينة بدء تاريخ الإسلام باعتباره قوة مؤثرة وحركة دافعة ، كذلك كانت عودة الرسول إلى أم القرى فاتحا ، بداية عهد

(٣) التوبة : ١٠٣

(٢) التوبة : ٨٤

(١) التوبة : ٨٠

جديد ، انتشرت فيه الدعوة الإسلامية بقوة الإيحاء أكثر مما انتشرت بقوة السيف ، وأصبحت الرغبة فيه عاملاً متفوقاً في دخوله على الرهبة ، وصار الأمر في شبه الجزيرة كلها أشبه بالمسابقة والمنافسة بين زعماء العرب ، أيهم يكون له شرف الأولوية في الخطوة بالإسلام ، ومن منهم يكون له فضل القدوم إلى محمد عليه الصلاة والسلام قبل منافسيه في الجاه ، وهم كثيرون ؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام بعد غزوة تبوك قد استقر بالمدينة ولم يخرج بنفسه في غزوة بعدها ، بل كان يرسل في رياسة الغزوات والمهمات ذات الصفة الحربية أو السياسية أحد أصحابه ، وكان مما أعان على تنفيذ هذه الخطة نبوغ كثيرين من الصحابة في فنون الحرب والسياسة ، وتمرسهم الكثير بها ونجاحهم فيها .

وكان استقرار النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة في هذه الفترة — من فتح مكة حتى لحوقه بالرفيق الأعلى — حتماً مقضياً ، وذلك لكي يتهيأ له الوقت لوضع قواعد السياسة وضرب المثل على تعاليم الإسلام الاجتماعية ، وصحيح أنه كان عليه الصلاة والسلام مصدر تعليم وإرشاد في جميع مناهج الحياة إن حالاً وإن راحلاً ، وإن كان على حرب أو جانح إلى سلم ، ولكن مما لا شك فيه أن حال السلم والاستقرار أعون على ذلك وأهدى سبيلاً .

ثم إن هناك مُهِمَّةً سياسية كبرى أُضيفت إلى الأسباب السالفة وأوجبت أن يكون الرسول في أكثر أوقاته مقيماً بعاصمته؛ ألا وهي مهمة استقبال الوفود العربية التي أخذ النور الساطع من المدينة يبهير أبصارها ويجذب أفئدتها إليه . وسندكر في هذا الفصل أمر هذه الوفود التي كثر عددها وعظم شأنها ، وكان فيما انطلقت به السنة خطباءها وشعرائها في حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، تصوير متقن لمبلغ ما عم العرب جميعاً من التأثر بالدين الجديد الخالد، والانجذاب إلى قطبه الأعظم وبطله الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وفد عبد القيس

كان من أكرم الوفود التي قدمت على رسول الله عليه الصلاة والسلام وأشر فها مكانة وأحسنها أدبا ، وفد عبد القيس ، وقد بشر بهم النبي الكريم أصحابه قبل مقدمهم ، فقال : سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق ، لم يُكرهوا على الإسلام ، قد أنصوا الركاب وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس .

وما هو إلا قليل حتى قدم الوفد ، ولما وقعت أبصارهم على النبي عليه الصلاة والسلام رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد ، وسارعوا إليه يسلمون عليه ، فقال لهم : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى .

فقالوا يا رسول الله ، إنا نأتيك من شقة بعيدة ، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام ففرنا بأمر فصل . فقال عليه الصلاة والسلام : أمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس . ثم نهامهم عن الخمر جملة ، فقال أحدهم وهو الأشج : يا رسول الله ، إن أرضنا ثقيلة وخمة ، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشرطة عظمت بطوننا ، فرخص لنا فى مثل هذا ، وأشار بيده إلى هيئة مقدار صغير ، فقال الرسول : يا أشج ، إن رخصت لك فى مثل هذه ، شربته فى مثل هذه — وفرج بين يديه وبسطهما — حتى إذا مثل أحدكم من شرابه ، قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

ومن المعجزات الشريفة للرسول عليه الصلاة والسلام أن أحد أعضاء هذا الوفد كان قد حدث له ما ذكره النبي ، فقد سكر القوم وعدى أحدهم عليه فضربه فجرحه وكان يخفى جرحه ، وذلك الرجل هو جهم بن قيس ، فعجبوا من علم الرسول بهذا الأمر وإشارته إليه .

وكان فيما قاله النبي عليه الصلاة والسلام للمنذر بن عائد الأشج : إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة .

وذكر الوفد للرسول أن معهم ابن أختهم : مطر بن هلال العنزي ، فقال :
ابن أخت القوم منهم .

وقد زودهم النبي عليه الصلاة والسلام الأراك يستأكون به ، ودعا لهم خيراً .

أبرك وافد على قومه

ضمام بن ثعلبة . رائد بني سعد بن بكر

وبعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة رائداً عنهم إلى الرسول عليه الصلاة
والسلام ، فقدم عليه ثم دخل المسجد والرسول بين أصحابه ، وكان ضمام رجلاً جليلاً
أشعر ذا غديرتين^(١) ، فأقبل حتى وقف على المجلس ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟
فقال الرسول : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أحمد ؟ قال : نعم ، قال : يا ابن عبد المطلب ، إني سائلك ومغلظ عليك
في المسألة فلا تجدن بها عليّ في نفسك . قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .
قال : أنشدك : الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آله
بعثك إلينا رسولا ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم .

ثم كرر عليه القسم السابق بالألفاظ نفسها مرات وسأله فيها هل أمره الله بأن يعبد
وحده لا يشرك به شيئاً ، وأن تخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ، وأن نضلي
الصلوات الخمس ، وأن نؤدى الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها . والرسول
يجيبه بعد كل قسم : أن نعم .

فلما فرغ من أسئلته ، قال :

فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض
وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف عائداً إلى قومه ، فقال
النبي عليه الصلاة والسلام : إن صدق ذو الغديرتين دخل الجنة .

(١) الغديرة : النؤابة من الشعر .

ورجع ضمام إلى قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بُسَّت
اللات والعزى !

قالوا : مه ، يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !
قال : ويلكم ! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل
عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ؛ فما أُمسي
من ذلك اليوم أحد في حيه من رجل أو امرأة إلا وهو مسلم .
ولما بلغت هذه الأخبار الطيبة المدينة فرح بها النبي عليه الصلاة والسلام
وأصحابه ، وقال عبد الله بن عباس معلقاً عليها :
ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة .

قوم شرح الله صدورهم للإيمان وفد تَجِيب

وقدم وفد تجيب ، وهي قبيلة كندية ، على الرسول عليه الصلاة والسلام ،
ومعهم صدقات أموالهم ، وقالوا :
يا رسول الله ، إنا سقنا إليك حق الله في أموالنا ، فقال عليه الصلاة والسلام :
ردوها ، فاقسموها على فقرائكم ، فقالوا : يا رسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل
عن فقرائنا .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا !
فقال عليه الصلاة والسلام : إن الهدى بيد الله ، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان .
وجعل القوم يسألون الرسول عن القرآن وأحكام الدين فسرّه ذلك منهم وزاده
إقبالاً عليهم ، ولما هموا بالرحيل ، سأله المسلمون أن يطيلوا إقامتهم بعض الوقت ،
فقالوا إنهم يتعجلون العودة ليخبروا قومهم بما أفادوه من العلم وأسرار التنزيل وأخبار
الرسول ، فلما جاءوه يستأذنونهم في السفر قال لهم هل بقي منكم أحد ؟ فقالوا غلام خلفناه
في رحالنا وهو أحدثنا سنّاً ، قال : فأرسلوه إلينا ، فجاء وسلم على النبي عليه الصلاة والسلام

وقال : يا رسول الله ، اقض حاجتي كما قضيت حاجة قومي .

قال الرسول : وما حاجتك ؟

قال : حاجتي أن يغفر الله لي ويرحمني ، ويجعل غناي في قلبي .

فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه .

زيد الخيل ووفد طي

وقدم على النبي عليه الصلاة والسلام وفد طي^١ وعلى رأسه زيد الخيل ، وكان سيد قومه وفارساً عظيماً من فرسان العرب ، قد جمع إلى حسن الخلق جسامه الخلق ؛ حتى إنه كان يطاء الأرض بقدميه وهو على فرسه ، وكان مغرماً بالخيل يقتني جيادها ولذلك سمي زيد الخيل .

وقد أسلم زيد ومن معه وحسن إسلامهم ، وسر بهم النبي عليه الصلاة والسلام سروراً كبيراً ، وقال :

ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه .

ثم سمى الرسول : زيد الخير ، وأقطعه بعض الأرض ، وقال :

أى فتى إن لم تدركه حمى المدينة .

وأهدى زيد الخير إلى النبي عليه الصلاة والسلام سيفين كانا معلقين على صنم من أصنام العرب في الجاهلية .

ومات زيد بالحصى وهو في طريقه إلى وطنه

وفد همدان

وقدم على الرسول عليه الصلاة والسلام وفد همدان وهو يجمع خيار القوم ، فأنشده شاعرهم مالك بن نمط قصيدة جيدة يمتدحها بها ويقول فيها :

حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب^(١) قردد

(١) الراقصات : الإبل ترقص في سيرها . صوادر : رواجع . القردد : ما ارتفع من الأرض .

بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذي العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى بحمد المشرقي المهتد
ثم تسلم مالك فأكد إسلام قومه وجبههم العظيم لله ولرسوله وحفاظهم على
العهد ما أقام لعل^(١) وما جرى اليعفور^(٢) بصلع^(٣) .
وقد كتب لهم الرسول عليه الصلاة والسلام كتابا يسوغهم فيه استثمار أرضهم
ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقاموا فرائض الإسلام ، وأمر عليهم مالك بن نمط ،
وقال عليه الصلاة والسلام يصف همدان :
نعم الحى همدان ؛ ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال
وفيهم أوتاد^(٤) .

كرام فى كرام

قصة عدى بن حاتم وأخته

كان من أسر عدى بن حاتم وأخته: ولدى كريم العرب وسخيها المشهور : حاتم
طى ، أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل على بن أبى طالب فى ربيع الأول من السنة
التاسعة فى خمسين فارساً لهدم الفلص صنم طىء ، فقاومه عباد الصنم فانتصر عليهم ،
وملاً يده من السبى والغنائم ، ثم هدم الصنم وأحرقه ، وكان من بين السبى : سفانة
بنت حاتم طى ، فلما وصل على إلى المدينة هو ومن معه أوصى سفانة أن تستشفع عند
رسول الله عليه الصلاة والسلام بأبيها ومآثره ففعلت ، فمن عليها بالحرية وأعطاه
عطاء جزيلاً أطلق لسانها ، فقالت :

(١) لعل : اسم جبل .

(٢) اليعفور : ولد الظبية .

(٣) صلح : اسم موضع .

(٤) أبدال وأوتاد صفتان لأهل الخير والفضيلة يقيمونها بين الناس وكلما مات بعضهم حل محله آخر .

شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا رجعت سبباً لردّها عليه .

ثم استضافها الرسول حتى تجد من تذهب في حراسته إلى موطنها ، وجاء المدينة وفد من عشيرتها فذهبت معه حين عاد .

وكان أخوها عدى قد امتلأ ضغنا على رسول الله ، فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية للنبي عليه الصلاة والسلام حين سمع به منى ، وبلغ من كراهيته للنبي والإسلام أنه أعد خيلاً جيداً ليركبها ويفر إلى الشام إذا غشيت خيل محمد بلاده ، فلما حدث ذلك فر إلى الشام وترك أخته فكان من أمرها ما قدمناه .

وبينا هو ذات يوم في مقامه بالشام إذ وفدت إليه أخته وأنبتة على هر به وتركها ، ثم قصت عليه قصتها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال لها وماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تلحق به سريعاً ؛ فإن يكن الرجل نبياً فالسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذلل في عز اليمين ، وأنت أنت ، فقال : إن هذا هو الرأي .

وخرج عدى حتى قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فسلم عليه ، فقال له : من الرجل ؟ قال عدى بن حاتم ، فاصطحبه النبي إلى بيته ، وبينما هما سائران إذ لقيت النبي امرأة ضعيفة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها ، فقال عدى في نفسه : والله ما هذا بملك . ثم مضى به الرسول إلى بيته وقدم له وسادة يجلس عليها ، فأبى عدى مفضلاً أن يجلس عليها الرسول ، ولكنه أصر على ذلك فجلس عليها عدى وجلس الرسول على الأرض . ومرة أخرى قال عدى في نفسه : ليست هذه أخلاق الملوك .

ثم قال له النبي عن مخالفته لعقيدته النصرانية ما أدرك معه أنه عارف بخفايا نفسه ، مطلع على مروقته من دينه ، وأنه يخلط بين عقيدة أهل الكتاب وشطحات الجاهلية ، ودعاه إلى الإسلام وهو يقول له :

لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم !

وما كاد عدى يسمع كلام الرسول ، حتى شرح الله صدره للإسلام فأسلم ، وقال فيما بعد :

قد مضت اثنتان و بقيت الثالثة ، والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها لا تخاف حتى تخرج هذا البيت ، وإيم الله لتكونن الثالثة ، ليفيطن المال حتى لا يوجد من يأخذه .

معجزة الرسول تتحقق في أقل من ثلاث سنين

سداجة عربى شهد وعد الرسول

لما فتح خالد بن الوليد الحيرة في السنة الثانية عشرة أى بعد أقل من ثلاث سنين من إنشاء الرسول عدى بن حاتم بفتح القصور البيض من أرض بابل على المسلمين ، جاءه عربى مسلم من جيشه اسمه شويل ، ومعه شهود بأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يذكر ذات يوم ما رفع له من البلدان ، فذكر الحيرة فيما رفع له ، وكان شرف قصورها أضراس الكلاب ، فعرف أنها ستفتح له فطلب أن يعطى يومئذ كرامة بنت عبد المسيح ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : هي لك إذا فتحت عنوة .

ولما كانت الحيرة قد فتحت عنوة فإن خالدًا جعل من شروط الصلح مع أهل الحيرة تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى هذا العربى ، وفاءً بعهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت كرامة أخت عمرو بن عبد المسيح وهو أكرم رؤساء

الحيرة على أهلها وسفيرهم إلى المسلمين في الصلح ، فاشتد ذلك الشرط على أهل كرامة والحيرة كلها وأعظموه جدا ، فقالت لهم كرامة : هونوا عليكم ! فما تخافون على امرأه بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحق : رآني في شببتي فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد فسلمها إلى شويل .

فلما تم التسليم ، قالت كرامة لشويل : ما أربك إلى عجوز كما ترى ؟ فاذني — أي خذ مني فدية ودعني — فقال لها شويل : لا ، إلا على حكمي .
قالت : فلك حكمك مرسلا .

فقال : لست لأُمّ شويل ، إن نقصتك من ألف درهم !
فتظاهرت كرامة باستكثار ذلك لتخذه ، حتى إذا أصر عليه وتشدد ، جاءته بالمبلغ الذي عينه فدفعته إليه ، ثم رجعت إلى أهلها .
وتسامع الناس بذلك فعنفوا شويلا ، وعرفوه أنه قد خدع ؛ إذ أنه لو ضاعف هذا المبلغ أضعافاً كثيرة لحصل عليه ، فقال شويل في سداجة عجبية :
ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف !..

وأبى القوم على شويل إلا أن يخاصم أهل كرامة في ذلك ، وعرض الأمر على خالد ، وقال شويل : كانت نيتي غاية العدد ، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف ! فقال خالد : أردت أمراً ، وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك ، كاذباً كنت أو صادقاً .

ملوك حمير يسلمون

وقدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، رسول يحمل كتباً من ملوك حمير وأقيالها^(١) بأنهم أسلموا ، وهؤلاء الملوك هم : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قَيْلَ ذِي رعين ، ومعافر وهمدان ، وزرعة ذويزن ، فكتب إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، يحمد الله على إسلامهم وإقامتهم شعائر الدين وأدائهم فرائضه ، ثم

(١) الأقيال : جمع قَيْل ، وهو رئيس دون الملك وفوق زعيم القبيلة .

بَيْنَ لَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَعَبَدَ اللَّهَ
ابْنَ زَيْدٍ وَمَالِكِ بْنِ عُبَادَةَ وَعَقْبَةَ بْنِ نَمِرٍ وَمَالِكِ بْنِ مُرَّةٍ وَأَصْحَابَهُمْ ، لِيَفْقَهُوهُمْ فِي الدِّينِ
وَيَقْرَأُوهُمْ الْقُرْآنَ وَجَعَلَ رَئِيسَ الْبَعْثَةِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَوْصَاهُمْ بِهِمْ خَيْرًا .
وَأَوْصَى الرَّسُولُ مُعَاذًا بِقَوْلِهِ :

يَسِّرْ وَلَا تَعَسِّرْ ، وَبَشِّرْ وَلَا تَنْفِرْ ، وَإِنَّكَ سَتَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
يَسْأَلُونَكَ مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ ؟ فَقُلْ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

يَسْلَمُ فِي قِتْلَةٍ

قِصَّةُ فُرُوقِ بْنِ عَمْرِو الْجَذَامِيِّ

كَانَ فُرُوقُ بْنُ عَمْرِو الْجَذَامِيِّ عَامِلًا لِلرُّومِ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِمَعَانٍ
وَمَا حَوْلَهَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ رَسُولًا يَعْلَمُهُ بِذَلِكَ ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ بَغْلَةً بَيْضَاءَ .

فَلَمَّا بَلَغَ الرُّومَ إِسْلَامَهُ ، قَبِضُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوهُ ، فَقَالَ وَهُوَ مُقَدِّمٌ لِلْمَوْتِ :

بَلَغَ سِرَّاتِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنِّي سَلَّمَ لِرَبِّي أَعْظَمَى وَمَقَامِي

إِسْلَامُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ

عَلَى يَدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ

وَبَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ
بَنِجْرَانَ^(١) فِي جَيْشٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَقَاتِلَهُمْ
ثَلَاثًا ، فَإِنْ اسْتَجَابُوا قَبْلَ مِنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتِلَهُمْ ، فَخَرَجَ خَالِدٌ حَتَّى قَدَّمَ إِلَيْهِمْ ،
وَبَعَثَ رُسُلَهُ يَدْعُونَ الْقَوْمَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَقُولُونَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَسْلَمُوا تَسْلَمُوا ، فَأَسْلَمَ
النَّاسُ ، فَأَقَامَ خَالِدٌ فِيهِمْ يَعْلَمُهُمُ الْإِسْلَامَ وَكِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ، وَكَانَ الرَّسُولُ قَدْ
أَمَرَهُ بِذَلِكَ . ثُمَّ كَتَبَ خَالِدٌ إِلَى الرَّسُولِ :

(١) بَلَدٌ بَيْنَ الْيَمَنِ وَهَجَرَ .

كتاب خالد إلى الرسول

بسم الله الرحمن الرحيم : من خالد بن الوليد إلى محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك بعثني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا أقت فيهم وقبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباً قالوا : يا بني الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، أسرهم بما أمرهم الله به ، وأنهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

كتاب الرسول إلى خالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن كتابك جاءني مع رسولك ، تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى مادعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فأقبل خالد بن الوليد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه وفد بني الحارث ابن كعب ، منهم : قيس بن الحصين ذى الغصّة ، ويزيد بن عبد المदान ، ويزيد ابن الحجل ، وعبد الله بن قُرَاد الزياتي ، وشداد بن عبد الله القناني ، وعمر بن عبد الله الضبابي .

فلما قدم القوم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ .

قيل يا رسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب . فلما وقفوا عليه سلموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله .

فقال الرسول : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، ثم قال : أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا ؟ فسكتوا ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد ابن عبد المدان :

نعم ، يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، قلها أربع مرات .
ثم قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام عبارة معناها أنهم لو لم يسلموا لحلت عليهم العقوبة القاتلة .

فقال يزيد بن عبد المدان :

أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا .

قال : فمن حمدتم ! ؟

قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله .

قال : صدقتم !

ثم سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ .

قالوا : لم نكن نغلب أحدًا .

قال : بل قد كنتم تغلبون من قاتلكم .

قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ، ولا نبدا

أحدًا بظلم .

قال : صدقتم .

وأمر عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام قيس بن الحصين ، وبعث إليهم بعد

أن سافر الوفد عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم ، وكتب له كتاباً مفصلاً لوظيفته ، جامعاً لأصول الدين في العبادة والمعاملات .

مؤامرة لقتل الرسول غدرآ

عامر بن الطفيل وشريكه في التآمر

لم يكن كل وافد على المدينة من العرب ، محباً لله ورسوله ، بل كان منهم الكذابون وفيهم الغادرون ، ولولا عصمة الله نبيه من كيد الناس لما كان هناك شيء يعصمه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يمشى في الأسواق ويغشى المجالس ويقعد لأصحابه والوافدين عليه في المسجد ، يفعل هذا كله من غير حرس يلزمه ولا حيلة يعول عليها . ونحن نقص على القراء قصة غدر أحكم تفصيلها ويؤتت تدابيرها لقتل الرسول ، ونهض بها شيطانان من أخبث شياطين العرب ، وهما : عامر بن الطفيل وأربد بن قيس من بني عامر .

فقد اتفق هذان الخيثنان أن ينتهزا التفاف الوفد الذي انتخبه قومه : بني عامر لزيارة الرسول ومبايعته على الإسلام ، فيشغل عامر الرسول بحديثه ويعلوه أربد حينئذ بالسيف .

وقدم الوفد على الرسول ، وبدأ عامر في تنفيذ كيده ، فقال للنبي عليه الصلاة والسلام : يا محمد ، خالتي — أى اتخذني خليلاً — فقال النبي : لا والله حتى تؤمن بالله وحده ، وأعاد عامر الطلب وسمع الجواب نفسه ، ثم قال حين غضب من زهد الرسول في صداقته وهو على شركه :

والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجلاً مرداً ، ولأر بطن بكل نخلة فرساً .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اكفني عامر بن الطفيل .

كل هذا وعامر ينتظر من شريكه في المؤامرة أن يقوم بما اتفقا عليه من قتل الرسول ، وشريكه لا يفعل شيئاً وهو واقف في ذهول وارتباك !

ولما صرح عامر بن الطفيل وشريكه أربد بن قيس بعداوتهما للرسول جعل أسيد بن حضير، يضرب في رءوسهما، ويقول: اخرجا أيها الهجرسان^(١)، فقال له عامر: ومن أنت؟ قال: أنا أسيد بن حضير. فقال له عامر: أبوك كان خيراً منك! فقال أسيد: بل أنا خير منك ومن أبي، لأن أبي كان مشركاً وأنت مشرك.

وحين خلا عامر بأربد بعد طردهما من حضرة الرسول. قال له: ويلك يا أربد، أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض، رجل هو أخوف عندي على نفسى منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً.

فقال أربد: لا تعجل على، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟
وقفلاً راجعين إلى بلادهما، فلما توسط الطريق أصيب عامر بمرض قاتل، فلجأ إلى بيت امرأة من سلول، وجعل يقول:

أَعُدَّة كَعُدَّة البعير وموت في بيت سلولية، ثم هلك حيث هو.

ومضى أربد وبقية بني عامر إلى منازلهم، فلما جاءوها سألت بنو عامر أربد، ما وراءه؟ فقال: لا شيء والله، لقد دعانا إلى عبادة شيء، لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله.

فخرج بعد مقاتله هذه بيومين معه جمل يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما.

وفود أخرى

وقدمت على الرسول وفود أخرى تباعه على الإسلام من سائر أنحاء الجزيرة العربية، نذكر منها وفد زبيد وكان من بين أفراد عمرو بن معديكرب الزبيدي فارس الجاهلية المشهور، وقد أسلم، فلما اختار الله رسوله إليه ارتد فيمن ارتد من المسلمين ثم أسلم ثانية، وكانت له مواقف حميدة في حرب المسلمين مع الفرس يوم القادسية.

(١) الهجرس: ولد الذئب واللتيم.

ومن رجالات العرب المشهورة ، فروة بن مسيك المرادي والجارود بن عمرو من بنى عبد القيس ، والأشعث بن قيس في وفد كندة ، ورفاعة بن زيد الجذامي .
ومن الوفود كذلك ، وفد فزارة ووفد بنى عذرة ووفد بنى محارب ووفد غسان .
وكان شأن هذه الوفود متماثلاً : تسلم وتبايع وتتفق في الدين ، ثم يرسل النبي عليه الصلاة والسلام معها واحداً أو أكثر من أصحابه ليعلمهم الإسلام ويبصرهم بالدين ، ويكون بمثابة السفير بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام .

الكذابون الأربعة

مسيلمة . سجاح . الأسود العنسي . طليحة الأسدي

لما أظهر الله الإسلام بالجزيرة العربية ، ودخل الناس فيه أفواجا ، دوى اسم الرسول عليه الصلاة والسلام في الشرق والغرب ، وملأ أفواه الناس وأذانهم . فمن آمن به فهو يردده في صلواته ويحمد الله في غدواته وروحاته ، ومن كفر به حسداً وبغياً ، خافه فأصبح همه المقيم المتعد وشغله الخيف المقلق .

وتفرد بسوء الذكر وشين القالة من بين أعداء الله ورسوله ، أربعة أوغاد ، نخر الحسد قلوبهم وأعمى الحقد أبصارهم وبصائرهم ، فراحوا يزعمون لأنفسهم نبوة مثل نبوة محمد ، ورسالة مثل رسالته ، ولما كان لكل ناعق أتباع في كل زمان ومكان فقد التف حولهم خلق كثير ممن لم يكن الإيمان قد عمر قلوبهم وظهر نفوسهم ، وقد خيهم الله جميعاً وقضى عليهم وعلى دعوتهم بالقشل والخسران ، وتكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك على نحو مفصل ، وسنعرض لهم بالقدر الذي يقتضيه سياق السيرة فحسب .

مسيلمة الكذاب

هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير من بنى حنيفة ، وكان معروفاً قبل ولادة عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمى نفسه « الرحمن » ، وقد عمر طويلاً حتى قيل إنه قتل يوم اليمامة وله خمسون ومائة سنة .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد رأى في منامه أن في يديه سوارين من الذهب فكركهما ، فألهم أن ينقنهما فطارا ، وذكر هذه الرؤيا لأصحابه وأولَّها بأن السوارين هما : مسيلة الكذاب ، والأسود العنسي .

ولما قدم وفد بني حنيفة ليبايع النبي على الإسلام كان من بينه مسيلة وقد أسلم معهم ، ثم وقف على النبي وفي يده عليه الصلاة والسلام عسيب^(١) من سعف النخل ، فسأله مسيلة أن يجعل له الأمر من بعده ، فأبى عليه ذلك وقال له : لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه ، إني لأراك الذي منه رأيت (يشير عليه الصلاة والسلام إلى الرؤيا التي أسلفنا ذكرها) .

ولما رجع وفد بني حنيفة إلى بلاده ، ارتد مسيلة عن الإسلام ، وادعى أنه شريك محمد في الرسالة ، وجاء بكذابين من مهرجيه شهدا عند بني حنيفة أن محمداً أقر له بالشركة في النبوة ، وكان يرى من أسباب قوته أن يعترف بمحمد نبياً لكي يفيد من الشهادة الملفقة التي تزعم أن الرسول أشركه معه في الأمر .

فلما اختار الله الرسول إلى جواره صرح مسيلة بالكفر ، وأرسل إليه أبو بكر جيشاً على رأسه سيف الله خالد بن الوليد فقتله وقتك بأذنا به ، وهذه الواقعة تعرف بواقعة الردة وهي مفصلة في كتب التاريخ ولا يتحمل المقام الاستطراد إلى التوسع فيها . وكان مسيلة يومهم قومه بأشياء تدخل في أبواب الشعوذة المختلفة ، وقد استخف قومه فأطاعوه إذ كانوا يطمعون أن يوصلهم إلى السيادة على العرب ، وأن يكون لهم بواسطة من الزعامة الروحية ما كان لقريش في الجاهلية ولمحمد في الإسلام .

ويقول التاريخ : إن مسيلة أول من أدخل البيضة في القارورة ووصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدعى أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنها . وكان مشغوفاً جداً وآياته منكسة على الإطلاق : تفل في بئر قوم سألوه ذلك ليبارك لهم فيها فلاح ماؤها ، ومسح رأس صبي فأصابه القراع ، وعلى عيني رجل استشفى

(١) عسيب : أى جريدة نخل .

فيه فايضنا ، ودعا لرجل بالبركة في ابنه فسقط أحدهما في البئر وأكل الذئب الثاني .
ولما طالبه أتباعه أن يأتيهم بمعجزة حين أعمل فيهم خالد بن الوليد سيفه ، وأوغل
فيهم ضربا وقتلا — قال لهم : يا بني حنيفة دافعوا عن أحسابكم . وبذلك صرح عدو
الله قبل وفاته بكذبه وأقر ببهتانه .

وكان الذي قتله وحشى قاتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في وقعة أحد ،
رماه بحر بته على طريقته فأصماه ، ودعا الله أن يجعل هذه كفارة لتلك .

سجاح

كانت سجاح امرأة من تغلب تفقعت في النصرانية التي كانت شائعة في قومها ،
وقد حافظت هذه القبيلة على نصرانيتها فكانت آخر القبائل العربية إسلاما .

ولما اختار الله نبيه إلى جواره ادعت سجاح النبوة ، فالتف حولها قومها وأخلاط
من القبائل الأخرى ، حطب كل فتنة ، وتبّاع كل دعوة ، فكثرت جمعها واستفحل
خطرها ، ثم خرجت بمن مالاها على خبثها من أرض الجزيرة مختربة نجد ، فكانت
القبائل التي تمر بها تمالئها خوفا منها ، ثم قصدت نحو اليمامة تريد مسيلمة الكذاب
خافها وتحصن منها ، ثم عمل على أخذها باللين والرفق ليأمن شرها حتى يتفرغ لما
كان يتوقعه من حرب الجيوش الإسلامية ، فصالحها على أن يؤدى لها جزية ثم تزوجها .
وبعد قليل تركت لديه اثنين من كبار أتباعها ليحصلوا الجزية ورجعت إلى بلادها .
فلما قتل مسيلمة تفرق أتباع سجاح فأسلمت وخمل ذكرها .

الأسود العنسى

الأسود العنسى ، اسمه : مسعود بن كعب العنسى ، وعنس من مذبح ، ولذلك
اتبعته قبائل من مذبح واليمن وغلب على صنعاء ، وكان يقال له : ذو الخمار ، وقد ادعى
أن سحيقا وشريقا يأتيانه بالوحى وأنها ملكان وهو يضاهاى بهما في زعمه ، جبريل
وميكائيل ، وقد اتخذ خدعا كثيرة يمويه بها على من اتبعه .

وقد قتله المسلمون وهوسكران، وكان قد اغتصب امرأة مسامة بعد أن قتل زوجها
قدلت عليه حتى تمكن منه أنصار الله بعد أن استفحل أمره واستشرى شره وغلب
على اليمن كلها .

طليحة الأسدي

أسلم طليحة بن خويلد الأسدي ثم ارتد في حياة النبي عليه الصلاة والسلام
وقبيل لحاقه بالرفيق الأعلى ، وقد وجه عليه الصلاة والسلام عماله إلى بني أسد وأمرهم
بمناجزة طليحة وكل من شايعه ، فنشطوا لذلك وكادوا يقضون عليه لولا أن جاء الخبر
ب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وارتداد قبائل كثيرة عن الإسلام ، فانعكس
الأمر وأصبح طليحة في المركز الأقوى وتابعته غطفان وعلى رأسها الأحق المطاع: عيينة
ابن حصن الفزاري ، فقد ارتد إثر وفاة الرسول .

وقد أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى طليحة فهزمه هزيمة منكرة وقضى على
دعوته قضاء مبرماً ، وقد أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد في سبيل الله ، وكانت له مواقف
محمودة وبلاء عظيم في فتح فارس وخاصة في موقعة القادسية .

نعود مرة أخرى فنبرئ ذمتنا من الإيجاز الشديد في سرد حوادث هؤلاء
الكذابين إذ أنها أوسع وأعمق بكثير مما أشرنا إليه بها ، ولكن المقام ليس مقامها ،
إنما ذكرناها لأنها وردت في سياق السيرة الشريفة فلم نشأ أن نذرها معلقة ، فاكثفينا
بإشارات موجزة إليها ، ومن أراد التوسع فعليه بموسوعات التاريخ .

حجة الوداع

فتح الله مكة على المسلمين في السنة الثامنة الهجرية ، وحج بالناس في تلك السنة
عنتاب بن أسيد ، وفي السنة التاسعة ولَّى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحج
بالناس ، وفي السنة العاشرة اعتزم النبي صلى الله عليه وسلم الحج فيها ، فاحتفل

المسلمون بحجه وتجمعوا من كل حذب وصوب ليجبوا معه حتى بلغ عددهم قرابة
مائة ألف حاج ، وما ينبغي ذكره أن الحج في السنة العاشرة كان وفقاً على المسلمين ،
فقد أُنذر المشركون في السنة التاسعة بتحريم الحج عليهم ، ولعل النبي عليه الصلاة
والسلام أخر حجه حتى هذه السنة ليخلص الحج من الشرك ولا يكون بالبيت
الحرام إلا من يعبد الله مخلصاً له الدين .

وقد استصحب النبي عليه الصلاة والسلام في حجه أمهات المؤمنين جميعاً ، ولم
يتخلف عن صحبته من الصحابة إلا من أقعده عذر من مرض أو سفر ، وكان الرسول
عليه الصلاة والسلام قد أوفد على بن أبي طالب إلى نجران ليقفه أهلها في الدين ، فلما
علم بحج الرسول قدم إلى مكة وحج معه .

وإنما سميت هذه الحجة حجة الوداع ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يحج
بعدها ، ولأنه صرح فيها بما يفيد قرب لقاءه مولاه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :
أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري ، لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا
الموقف أبداً .

وقد خرج النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة يريد الحج يوم السبت لخمس
بقيين من ذي القعدة ، وساق معه الهدى واستعمل على المدينة أبا دُجانة الساعدى ،
حتى إذا كان بسرف^(١) أمر الناس أن يحلوا بعمره إلا من ساق الهدى .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يُكَبِّي ويقول في تليته : لبيك اللهم لبيك ،
لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ودخل الرسول مكة ضحى من ثنية كداء ، ولما وقع بصره على البيت ، قال :
اللهم زده تشريفاً وتعظيماً وهبة وبراً ، ثم طاف بالبيت سبعة ، واستلم الحجر الأسود
وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة

(١) سرف : اسم مكان بين مساجد عائشة وبطن مرو .

سبعاً راكباً على راحلته ، وكان إذا صعد الصفا يقول : لا إله إلا الله ، الله أكبر ،
لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .
وفي الثامن من ذى الحجة قصد إلى منى فبات بها ، وفي التاسع منه توجه
إلى عرفة .

الخطبة الجامعة

ولما استقر به المقام بعرفة وتهيباً المسلمون لسماع خطابه ألقى عليهم الخطبة الجامعة
التي بينت الحدود ورسمت المعالم ، وكان عليه الصلاة والسلام يلقي عبارته فيسمعها
القريب منه ويقوم بعض الرجال ذوى الصوت الجهورى بنقلها إلى من يلونهم
من الناس ، فأما هذه الخطبة فيها کہا :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره وتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ،
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد
الله بتقوى الله وأحكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

أما بعد : أيها الناس ، اسمعوا مني آيين لكم ، فإني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد
عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم
هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، إن ربا الجاهلية موضوع ،
ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن أول ربا أبداً به ربا عني
العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبداً به دم عامر^(١)
بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن ما أثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ،

(١) كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل .

والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به فيما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسيء^(١) زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم : ثلاث متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واسنوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان^(٢) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ؛ فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعنَّ بعدى كفراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

(١) كانت العرب تعتمد عند الحاجة إلى تأجيل شهر من الأشهر الحرم وسيرد ذكرها في خطبة الرسول .

(٢) جمع عانية : وهي الأسيرة .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،
إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل
بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز وصية
في أكثر من الثلث ، والولد للفراس وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى
غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل .
والسلام عليكم ورحمة الله .

آية السكال والتمام

وبينا كان النبي عليه الصلاة والسلام راكباً ناقته وهو على عرفة نزل قوله
تعالى : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا»^(١) فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي .

وبكى عمر بن الخطاب ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما يبكيك يا عمر ؟
فقال عمر : أبكاني أنا كنا في زيادة ، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص .
فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : صدقت .

وقد كانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسه ، فإنه لم
يعش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

الرجوع إلى المدينة

وبعد أن فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من أداء بقية مناسك الحج قفل
راجعاً إلى المدينة بعد أن أقام بمكة عشرة أيام .

من كنت مولاه فعليّ مولاه

ولما بلغ الركب الإسلامي مكانا بين مكة والمدينة يقال له « غدير خم » جمع الرسول الصحابة وألقى فيهم خطابا كريما ختمه بأن رفع يد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

السلام على همدان

وفي السنة العاشرة من الهجرة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى همدان من قبائل اليمن يدعوها إلى الإسلام فأقام فيهم ستة أشهر وهم لا يجيبونه .

فبعث النبي عليه الصلاة والسلام على بن أبي طالب إليهم وعمه بيده الكريمة ، وقال له : سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا : نعم ، فرهم بالصلاة ولأن يهدي الله بك رجلا واحداً ، خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولا تقتلهم حتى يقتلوك ، ثم أمره أن يرجع خالداً إلى المدينة .

وسار علىّ حتى أتى القوم ، فخرجوا له فصف رجاله ودعا القوم إلى الإسلام ، فأبوا ورموه ورجاله بالنبل ، فهاجم عليهم علىّ بجيشه هجمة لم يتحملوها فولوا مدبرين .

ولم يتعقبهم علىّ بالخيـش بل أعاد دعوتهم إلى الإسلام فاستجابوا إليه ، وأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، فكتب علىّ إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام بالنبا العظيم فلما قرأ كتابه خر ساجداً ، ثم جلس ، فقال :

السلام على همدان ، السلام على همدان .

السنة الحادية عشرة الهجرية

بعثة أسامة بن زيد إلى الروم

لما رجع النبي عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع ، وكان قد أجده السفر وأرهقه الكفاح المتصل عشرين عاما فأكثر ، أمر المسلمين في المحرم من السنة الحادية عشرة بتجهيز جيش كبير ينخرط فيه كبار المسلمين كأبي بكر وعمر ، وجعل أمير هذا الجيش أسامة بن زيد ، مولاه وابن مولاه ، وكانت وجهة هذا الجيش « ابني » وهو موضع يقع على تخوم الشام بجهة البلقاء والداروم قريب من مؤتة التي قتل بها أمراء الجيش : زيد بن أسامة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، وكانت في السنة الثامنة الهجرية .

وكان أسامة بن زيد في هذا الوقت لما يبلغ العشرين من عمره . ولما أمره الرسول على هذا الجيش المنتظم للسابقين الأولين من شيوخ المهاجرين والأنصار ، قال له :

سر إلى موضع أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحا على أهل ابني وحرّق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم ، وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

ثم عقد له اللواء ، وقال له : اغز باسم الله في سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله .

شكوى الرسول

وعلى أثر ذلك اشتكى الرسول عليه الصلاة والسلام وحجبه المرض عن الناس ، وانتشر خبر مرضه في شبه الجزيرة بسرعة شديدة فارتد مسيلة الكذاب والأسود العنسي وطليحة بن خويلد وسجاح ، وانضم إليهم من حولهم من ضعاف العقيدة وصعاليك العرب ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما مضى من هذا الكتاب .

وحملت هذه الحوادث الجسيمة الصحابة على التريث في إخراج الجيش ، ثم انضاف إليها إرجاف المناققين بأسامة بن زيد متخذين من حداثة سنه وإمارته على أناس في سن أجداده ، موضعاً للقليل والقال !

فلما بلغت النبي عليه الصلاة والسلام أراجيف المناققين ، خرج عاصبا رأسه وخطب المسلمين ، قائلاً :

إني رأيت البارحة فيما يرى النائم أن في عُضْدَى سوارين من ذهب فكرهتهما ونفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين : صاحب اليمامة وصاحب اليمن ^(١) . وقد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة ، ولعمري ، لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه خليقاً بالإمارة وإنه خليق لها . فَأَنْفَذُوا بَعَثَ أسامة واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم .

وخرج أسامة بالجيش فضرب عسكره بالجرف ^(٢) ، وثقل المرض على النبي عليه الصلاة والسلام وتمهل الناس ، وشاء الله أن لا يخرج هذا الجيش إلا بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ^(٣) .

مرض الرسول

ومتابعته الجهاد أثناء مرضه

في أخريات شهر صفر من السنة الحادية عشرة الهجرية ابتدأت رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واستأذن المرض على هذا الجسم الكريم الذي حمل

(١) صاحب اليمامة : مسيلة الكذاب ، وصاحب اليمن الأسود العنسي .

(٢) الجرف : مكان على فرسخ من المدينة .

(٣) حدث بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام واستخلاف أبي بكر وشيوع الردة والانتفاض بين العرب ، أن أشار جماعة من المسلمين ، فيهم عمر بن الخطاب ، على أبي بكر أن يعدل عن خروج جيش أسامة أو أن يعزله ويولى غيره من ذوى الأسنان ، فأبى أبو بكر الاستماع لأحد الرأيين ، وقال في الأول : لو لم يكن هناك غيري لخرجت وحدي غازياً ، وفي الثاني : أيوليه النبي عليه الصلاة والسلام ويعزله أبو بكر ؟ تكلمت أمك يا عمر !

الأمانة الإلهية وأداها على خير ما تؤدي به الأمانات وتوفى به الكرامات . وكان من خصائص الشرف التي آثر الله بها رسوله الأمين أن وقف به المرض عند جسمه ، ولم ينل من نفسه الكبيرة ولا أثر في همته الشفاء ؛ فقد ظل أثناء المرض الذي دام بضع عشرة ليلة يتابع جهاده ويوالي إرشاده ، بل تمت له صلوات الله وسلامه عليه ، معجزة كبرى أثناء مرضه كان لها من الأثر الحميد في نصر الإسلام وامتداد نوره ما لم تكن الجيوش الكثيرة تصمد له ، ولكنها بركات الله وآثار نعمته على نبيه الكريم وحفظه لدينه القويم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١) » .

وتفصيل هذا الإجمال ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما بلغه في مرضه استفحال أمر الكذابين الأسود العنسى ومسيمة الكذاب حاربهم بالرسول ، فبعث إليهم رجلا من المسلمين يخوفونهم وينذرونهم ، ثم أرسل رسلا آخرين إلى جميع زعماء القبائل ، ليحاربوا هؤلاء الكذابين ، ويقفوا في وجه دعاوهم الكاذبة وأباطيلهم الملققة ، وقد استجاب كثير من الزعماء لأمر الرسول فتجددوا لمحاربة هؤلاء الكذابين ووقف بعضهم — ممن لم تكن أحوالهم تساعد على الحرب الصراح — موقف الميثاق لقومه ، الميثاق لدعاة الفتنة والارتداد .

وكان أعظم نفحات هذه البركات ما تم في أمر الأسود العنسى ، فقد استطاع أمراء المسلمين الذين تلقوا كتب الرسول القضاء عليه قبل وفاته عليه السلام بليلة واحدة ، وجاءت الأخبار بذلك المدينة بعد أيام ، فكان لها وقع حسن هون على المسلمين ما هم فيه من بلاء بسبب ارتداد القبائل وانتفاضها .

ومن دلائل العظمة البالغة على أن مرض الرسول لم يشغله عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه ما سبق أن تحدثنا عنه بشأن إرجاف المنافقين بالجيش الذي عقد لواءه لأسامة بن زيد ، فقد تحامل الرسول على نفسه ، وخرج من سرير مرضه ليقطع الأراجيف ويدحض الأباطيل ، وقد مرّ بالقراء بيان ذلك .

زيارة البقيع

لما أحسَّ الرسول عليه الصلاة والسلام المرض أرسل في جوف الليل إلى موله
أبي مويهبة ، فجاءه ، فقال له : يا أبا مويهبة ، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع
فانطلق معي ، فانطلق معه فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ،
لِيَهْنُ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ ، أَقْبَلْتُ الْفَتَنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ ،
يَتْبَعُ آخِرَهَا أَوَّلُهَا ، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى .

ثم أقبل على أبي مويهبة فقال له :

يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ،
خيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة ، فاخترت لقاء ربي والجنة .

فقال له أبو مويهبة : بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ،
ثم الجنة .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لا والله ، يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء
ربي والجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف .

دعابة لطيفة

قالت عائشة رضي الله عنها : رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع ،
فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول : واراأساه ! قال : بل أنا والله يا عائشة ،
واراأساه ، ثم قال : ما ضرك لو مُتُّ قبلي ، فقمتم عليك وكففتك وصليت عليك
ودفنتك ؟ . فقلت : والله لكانني بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتي فأعرست
ببعض نسائك . فتبسم الرسول عليه الصلاة والسلام . وتكأ به وجعه .

العدل حتى في التمريض

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص حتى في مرضه على العدل بين زوجاته ، فكان يدور عليهن حسب النظام الذي كان متبعاً ، فلما حل دوره عند السيدة ميمونة اشتد به المرض فدعا بنسائه واستأذنهن في أن يمرض ببيت السيدة عائشة فأذن له . فخرج عليه الصلاة والسلام بين علي بن أبي طالب والفضل ابن العباس تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيت عائشة .

يطلب إلى من ظلمه أن يقتص منه

وجلس النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم من أيام مرضه على المنبر ، ثم أمر الفضل بن العباس أن ينادي في الناس فاجتمعوا ، فقال :

أما بعد أيها الناس ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد^(١) منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقاً إن كان له أو حلتي ، فلقيت الله وأنا طيب النفس .

إخوة الإسلام

وجلس عليه الصلاة والسلام على المنبر يوماً آخر وهو في مرضه الأخير فقال :
إن عبداً خيره الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله .

فبكى أبو بكر ، ثم قال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله . وعجب الحاضرون وقالوا : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله عن عبدٍ يُخَيَّر ، ويقول فدينك بآبائنا

(١) فليستقد : أى يقتص

وأمهاتنا ، ولكنهم أدركوا فيما بعد أن أبا بكر كان أعلمهم بمرمى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال الرسول مستأنفاً كلامه :

إن آمنَّ الناس علىَّ في صحبته وماله ، أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ، لا تبقى خوذة في المسجد إلا خوذة أبي بكر .

وصاته بالأنصار

وأوصى عليه الصلاة والسلام بالأنصار خيراً « فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم في الثمار ، ألم يوسعوا لكم في الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من أحسنهم وليتجاوز عن سيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم » .

وكان فيما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في موضوع الأنصار : يامعشر المهاجرين إنكم قد أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم والأنصار عيتي^(١) التي أويت إليها .

صلاة أبي بكر بالناس

ولما اشتد بالرسول عليه الصلاة والسلام المرض ، قال : مرُّوا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت السيدة عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن ، وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق .

فقال عليه الصلاة والسلام : مرُّوا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت السيدة عائشة مثل قولها الأول ، فغضب الرسول وقال ، إنكن صواحب يوسف ! مرُّوا أبا بكر فليصل بالناس ، وقد صلى أبو بكر بالناس في حياة الرسول سبع عشرة صلاة ، ذكر ذلك الواقدي .

(١) العيبة : ما يجعل فيه الثياب ؛ والمعنى : أنهم موضع ثقتي وسري .

وقد كان قصد السيدة عائشة من الاعتذار عن أييها رغبتها في إبعاده عن ولاية المسلمين العامة لما تعلمه من شدة الصعوبات التي يلقاها من يخلف الرسول ، ولكن الرسول كان يعلم من هو أبو بكر وأى طراز هو من الرجال ، وقد قام أبو بكر بالعبء الثقيل الذي ألقى عليه خير قيام . يشهد بذلك الله ورسوله ، وتؤذن به مواقفه المشهورة وأعماله المبرورة وفضائله التي لا عدد لها ولا حصر رضى الله تبارك وتعالى عنه .

صلاة الرسول الأخيرة

مع جماعة المسلمين

ولما كان يوم الاثنين الذى اختار الله فيه رسوله إلى جواره الكريم خرج إلى الناس عاصباً رأسه وهم يصلون الصبح ، وإمامهم أبو بكر ، فتفرج له الناس وعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظهره ، وقال : صلّ بالناس . وجلس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جنبه ، فضلى قاعداً عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس ، فكلّمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد ، يقول :

أيها الناس، سَعُرَت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإني والله ما تَمَسُّكون على بشيء ، إني لم أُحِلَّ إلا ما أحل القرآن ، ولم أُحرم إلا ما حرم القرآن . فلما فرغ رسول الله عليه الصلاة والسلام من كلامه ، قال له أبو بكر : يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، ثم استأذنه في الذهاب إلى أهله بظاهر المدينة ، فأذن له .

وقد استبشر المسلمون بخروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى الصلاة ، وحسبوا أنه قد نقه من مرضه ، وقال أنس بن مالك :

ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحسن هيئة منه تلك الساعة .

الرفيق الأعلى

قالت السيدة عائشة :

رجع إلى رسول الله صلى عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريد ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم ، قالت : فأخذته فوضعتنه حتى لئنته ، ثم أعطيته إياه ، فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط ثم وضعه .

« ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قالت : فقلت ! خبرت فاخترت والذى بعثك بالحق . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام فى ضحى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة الهجرية (٨ يونيو من سنة ٦٣٣ ميلادية) وقد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة قمرية و بضعة أيام .

وكان مرضه الذى توفى به الخاصرة وهو عرق فى الكلية إذا تحرك وجع صاحبه . وكان آخر ما أوصى به عليه الصلاة والسلام أن قال : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » حرك بها لسانه وما يكاد يبين ، وقد فهمت وصاته بملك اليمين على وجهين ، فإما أنه عليه الصلاة والسلام يوصى بالرفق مع الأرقاء وإما أنه يوصى بالزكاة لأنها تجب فيما يملك وقد جاءت مقترنة بالصلاة فى القرآن وكلا الفهمين سائغ مقبول ولا معارضة فى الجمع بينهما .

مصاب زلزل النفوس وهدة العقول

وما كاد المصاب برسول الله صلى الله عليه وسلم ينتشر بين المسلمين ، حتى زلزل منهم النفوس وهدة العقول ، وأذهل المدارك وحير الألباب ، وفتن كبار المسلمين الأولين عن أنفسهم حتى راح عمر بن الخطاب — وهو من هو ، عقلا وحزما ، وإيمانا وعلمًا — يمسك بسيفه ويقول : من زعم أن رسول الله مات علوته بسيفي . ودهش الناس وأفحموا واختلطوا ، فمنهم من خبل ، ومنهم من أصمت ومنهم من أقعد إلى الأرض ، فكان ممن خبل عمر — على ما قدمنا — وكان ممن أخرس ، عثمان بن عفان حتى جعل يُذهَبُ به ويُجاء ، ولا يستطيع كلاما ، وكان ممن أقعد على ، فلم يستطع حراكا ، وأضنى عبد الله بن أنيس حتى مات كمدا .

أخو الرسول في الإسلام وصاحبه في الهجرة

ينقذ الإسلام والمسلمين

وبلغ المصاب العظيم مسامع أبي بكر الصديق ، أخو الرسول في الإسلام ، وصاحبه في الهجرة ، وخليفته على الصلاة بالمسلمين ، وهو بماله بالسُّنْح بأعلى المدينة فجاء وعيناه تهلان وزفراته تتردد ، وهو في ذلك ، رضوان الله عليه ، جلد العقل والمقالة ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكبَّ عليه ، وكشف وجهه ، ومسحه وقبل جبينه ، وجعل يبكي ، ويقول :

بأبي أنت وأُمِّي ، طبت حيا وميتا ، وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجلت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولو أن موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء ، لأنقذنا عليك بماء الشئون ، فأما مالا نستطيع فنيه ، فكمد وإدناف يتحالفان لا يبرحان .

اللهم ابلغه عنا ، اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالاك ، فلو لا ما خلفت

فينا من السكينة لم نغم لما خلفت من الوحشة . اللهم ابلغ نبيك عنا واحفظه فينا .
ثم خرج أبو بكر إلى الناس فوجد عمر يخطب فيهم بمثل ما كان يخطب من
انكار موت الرسول ، وكان عمر قد قال أثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام :
إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ،
وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله مامات ، ولكنه قد ذهب إلى ربه كما ذهب
موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد
مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي
رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ، ثم توعد من
يقول أن الرسول قد مات بسيفه .

وجاء أبو بكر والناس ملتفون حول عمر يسمعون إليه ، فقال على رسلك يا عمر
فأنصت ، فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس
يتكلم فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فخطب أبو بكر الناس بخطبة جُلها
الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فيها :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم
أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ،
وأن الله هو الحق المبين ، في كلام طويل من هذا القليل ، ثم قال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله
حي لم يميت . ثم تلا الآية الكريمة :

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١)»
وإن الله قد تقدم لكم في أمره ، فلا تدعوه جزعا ، وإن الله تبارك وتعالى ،
قد اختار لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف

فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ^(١) »

ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يلفتنكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان
بالخزي تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم .

ولما فرغ من خطبته ، التفت إلى عمر بن الخطاب ، وقال له : أأنت الذي بلغني
عنك أنك تقول على باب نبي الله ! والذي نفس عمر بيده ما مات نبي الله ، أما علمت
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يوم كذا : كذا وكذا ، وقال الله عز وجل
في كتابه : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ؟

فسقط عمر إلى الأرض أثر سماعه هذه الآية وقال : والله لكأنني لم أسمع بها في
كتاب الله تعالى قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الحديث
كما حدث ، وأن الله تبارك وتعالى حي لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، صلوات
الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله .

أمر ثقيفة بنى ساعدة

و بينما أبو بكر وعمر في بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاءهما من أخبرهما أن
الأنصار تجمعوا في سقيفة بنى ساعدة على أن يبايعوا سعد بن عباد ، فحفا إليهم ولقيا
في الطريق أبا عبيدة بن الجراح فأخذاه معهما ، فقابلهم عاصم بن عدى وعويم بن
ساعدة ، وهما من الأوس وقالاهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون ، فأبوا أن
يسمعوا إليهم ومضوا حتى أتوا القوم وسعد بن عباد جالس وهو مريض متدثر ببعض
ثيابه فقام فيهم أبو بكر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحده ،
وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنا
هي من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ قوله تعالى :

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ^(١) » ، « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ^(٢) » .

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه الإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقله عددهم ، وشف ^(٣) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيك الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم حلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأتم الوزراء ، لا تفتنون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر وحرص الأنصار على الثبات والتثبت بحقهم . وطلب أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير .

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونيها من غيركم . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدْلٍ بباطل أو مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ، أو متورط في هلكة ؟

فقام الحباب بن المنذر ، وطلب من قومه الاستمسك بحقهم ، فإن أبي المهاجرين عليهم ذلك أجلوهم عن المدينة وتولوا الأمر دونهم ، ثم قال : أنا جديليها ^(٤) المحكك وعذيقيها ^(٥) المرجب ، والله إن شئتم لنعيدنها جذعة ؟

(٢) الزمر : ٣

(١) يونس : ١٨

(٣) الشنف : البفض

(٤) الجذيل : تصغير جذل ، وهو عود يوضع وسط مبرك الإبل لتحتك به ويضرب به المثل للرجل يستشفى برأيه .

(٥) العنق المرجب : هو النخلة تبني حولها دعامة ترقد بها الكثرة حملها .

فقال عمر : إذن يقتلك الله !

وقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وعيّر . فقام بشير بن سعد الأنصاري ، فقال : يا معشر الأنصار ، إنا والله لنن كننا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولى النعمة علينا بذلك ، ألا أن محمداً صلى الله عليه وسلم من قریش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخافوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا .

فقالا : لا ، والله لا تتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك . ابسط يدك نبايعك .

فلما ذهبا لبياعه ، سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قام أسيد بن حضير أحد النقباء في بيعة العقبة فبايع أبا بكر ، وتابعت الأوس على ذلك فبايعت وانكسر أمر سعد بن عبادة ، وبايعت الخزرج وأتم الله نعمته على المسلمين فجمع كلمتهم ووحد بينهم حتى أصبحوا — كما كانوا — بنعمة الله إخواناً .

جهاز الرسول ودفنه

أَهَمَّ المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمر وحدتهم وتنصيب من يقوم بالأمر فيهم إذ أنهم كرهوا أن لا تظلمهم راية إمام جمع عليه من عامة الناس يوماً واحداً ، فلما أطفأ الله الفتنة التي كانت على وشك الاضطرام في سقيفة بني ساعدة وتمت بيعة أبي بكر ، انصرف الناس إلى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام بغسله العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ، والفضل بن العباس وقيم بن العباس

وأسماء بن زيد وشقران مولى الرسول ، وناشد أوس بن خولى الأنصارى ، وهو ممن شهد بدرًا ، على بن أبى طالب ، الله وحظ الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معهم فأدخله على^١ ، فحضر الغسل .

وكفن الرسول عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ثم وضع الجثمان الشريف على السرير ، وصلى عليه المسلمون جماعات جماعات : الرجال أولاً ، ثم النساء ، ثم الصبيان .

واختلف الناس على المكان الذى يدفن فيه ، فشهد أبو بكر أنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام ، يقول :

ما قُبِضَ نبى إلا يدفن حيث قبض .

فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحفر له تحته ، ونزل القبر على بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وشقران مولى الرسول ، وأوس بن خولى ، وقد تم الدفن ليلة الأربعاء التالية ليوم الاثنين الذى اختاره الله لجواره الكريم فيه .

الغزوات

التي غزاها الرسول بنفسه

بلغ عدد الغزوات التي غزاها الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه ، سبعاً وعشرين غزوة ، أولها غزوة ودّان فى أوائل السنة الثانية الهجرية ، وآخرها تبوك فى رجب من السنة التاسعة الهجرية .

وجملة السرايا والبعوث ثمانية وثلاثون سرية وبعثاً .

حجّات الرسول عليه السلام

حج الرسول صلى الله عليه وسلم طوال حياته المباركة ثلاث حجج : اثنتان منها قبل الهجرة والثالثة بعد الهجرة فى السنة العاشرة منها وكان معها عمرة وهى حجة الوداع . واعتمر عليه الصلاة والسلام أربع عمرات منها العمرة التي قرنها بحجة الوداع .

أمهات المؤمنين

وتزوج عليه الصلاة والسلام خمس عشرة امرأة ، دخل بثلاث عشرة منهن ، وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفى عن تسع ، وكانت أول زوجاته السيدة خديجة ولم يتزوج في حياتها امرأة غيرها .

سرارى الرسول

وتسرى عليه الصلاة والسلام بمارية بنت شمعون القبطية ، وقد عاشت حتى السنة السادسة عشرة الهجرية وماتت في زمن عمر بن الخطاب وقد مشى في جنازتها ومعه من حضر موتها من المسلمين .
وتسرى كذلك صلوات الله عليه بريحانة بنت زيد القرظية ، وكانت مسالمة صادقة الإيمان .

كتاب الرسول

وكتب للرسول عليه الصلاة والسلام كثيرون أشهرهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن سعيد ، وإبان بن سعيد ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وحنظلة الأسدي ، وخالد بن الوليد .

صفة الرسول عليه السلام

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يصف الرسول عليه السلام :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبيض اللون مُشْرِبًا حمرة ، أدعج ^(١) ، سبط ^(٢) الشعر ، دقيق المسربة ^(٣) ، سهل الخدين ، كث ^(٤) اللحية ، ذا وفرة ^(٥) ،

(١) أدعج : شديد سواد العين .

(٢) سبط الشعر : مرسله .

(٣) المسربة : الشعر من وسط الصدر إلى البطن .

(٤) كث اللحية : غزير شعرها .

(٥) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أو ما سال على الأذنين منه ، أو ما جاوز شجمة الأذن

كأن عنقه إبريق فضة . كان له شعر من لبته^(١) إلى سُرته يجري كالقضيبي ، لم يكن في أبطه ولا صدره شعر غيره ، شن^(٢) الكف والقدم ، إذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صَب^(٣) ، وإذا التفت التفت جميعاً ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، ولا العاجز ولا اللثيم ، كأن العرق في وجهه اللؤلؤ ولرَّيح عرقه أطيب من المسك ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

خاتمه مسك

أما بعد : فإنني أحمد الله الذي وفقني لإخراج هذه السيرة المهدبة لحياة نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .
وأحمده سبحانه وتعالى مرة ثانية إذ رزقني الصبر ومنحني القوة في هذا المقام ، وهما لا غنى عنهما فيه ولا أمل في الحصول على شيء ذي بال بدونهما .
وأحمده مرة ثالثة ورابعة وخامسة بل حمداً لا يحصى عدده ولا يتناهى أمدّه إذ كتب لي شرف اللصوق بصاحب السيرة صلوات الله وسلامه عليه ، والالتقاء إليه .
والتقى محبته في نفسي وملاً بعظمته صدرى ، وشغلنى به عن كل ما سواه ، وهياً لي نعمة التخيل حتى أصبحت وكأنى أعيش في عصره وأحيا على عهدّه وأسمع صوته وأرى شخصه صلى الله عليه وسلم .

والحق أن اشتغالى بتأليف هذه السيرة قد هياً لي الحياة زمناً مباركا بين موسوعات كتب السيرة ووسط مطولات كتب التاريخ ، أقابل الروايات بعضها ببعض ، وأقارن بين الوقائع وأتحرى الحقائق ، وكلما أنجزت شيئاً وارتضيته عدت إليه كثيراً وأقمت عنده طويلاً ، واطردت هذه العادة في كل جزئية من جزئيات الكتاب حتى كونت حقيقة كنت في شغل بالموضوع نفسه عن الفطنة إليها ، وهى أننى قد أخذت بجلال العظمة الحمديدية وبهرت مما قرأت عن مكارم عصر

(١) اللبة : المنعر ، وموضع القلادة من الصدر .

(٢) شن الكف والقدم : ضمهما .

(٣) صب : مرتفع .

الرسالة ، حتى وددت أن أظل فيه وأن يكون تفكيري وتصوري وخيالي وكل ما أملك من جهد وما يقع لي في طوق وقفاً عليه ومحصوراً فيه .

والآن وقد استحضرت الرسول وعهده والإسلام ومجده ، فإني أحس رغبة قوية جامحة تستفزني للحديث عن هذا المقام ، ولو أنني استنجبت لها لما رويت وشبعت إلا بعد تحرير ما يتجاوز حجم هذا الكتاب أضعافاً مضاعفة ، وإني أستعين الله عليها فأرجئها إلى حين قد يكون قريباً إن شاء الله .

ويقتضيني عرفان الجميل أن أشكر للسيد محمد حلمي الميناوي ، صاحب دارالكتاب العربي ما هيأه لي من أسباب التيسير والمعونة في إخراج هذا الكتاب المبارك ، أسأل الله أن يغفر لي وله ولكل من عاون في إخراج هذا الكتاب ، إنه سميع مجيب والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلوات الله وسلامه على محمد نبيه ورسوله ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى جميع من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

محمد خالد

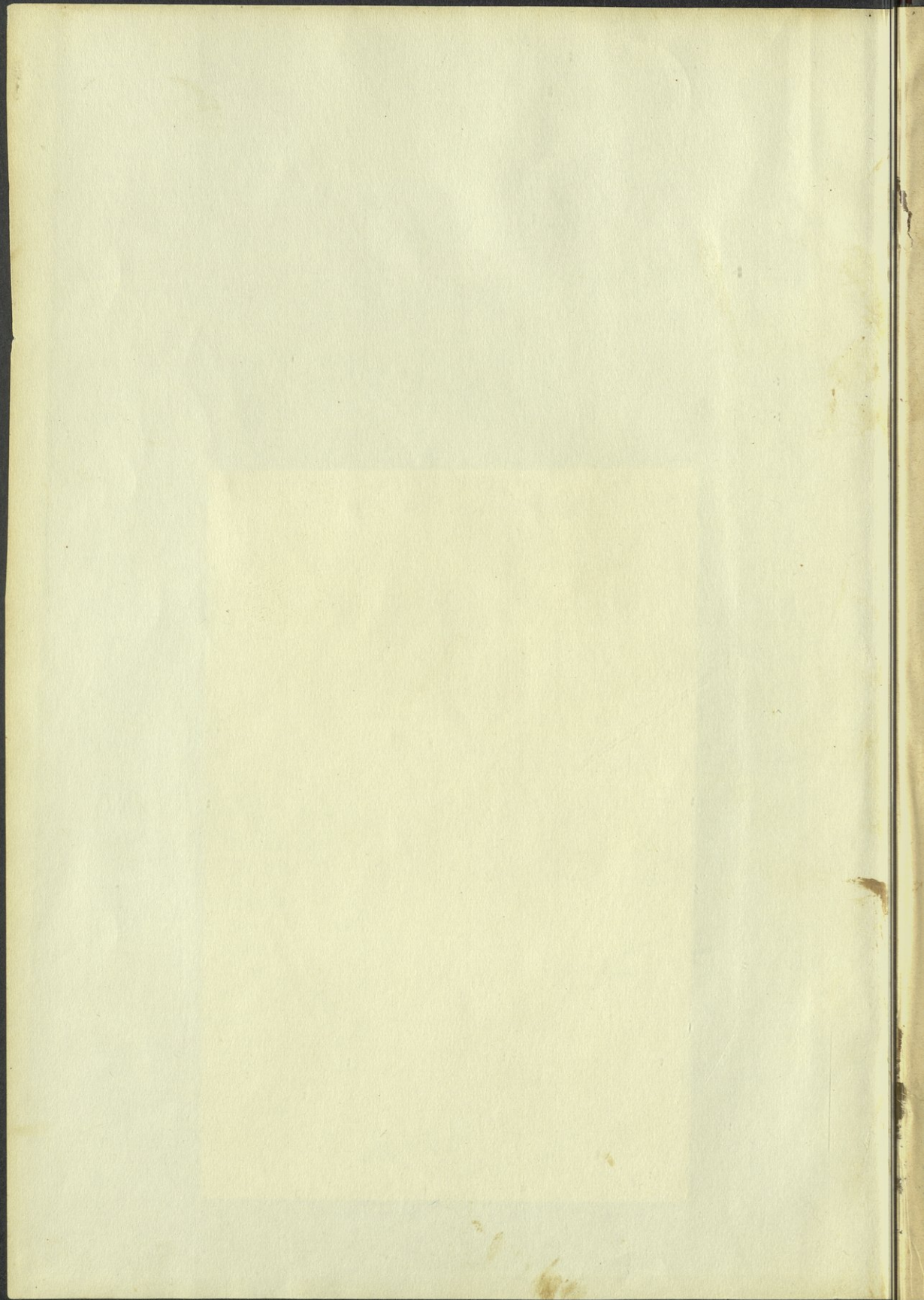
١١ ربيع الأول سنة ١٣٧٥
الجيزة في : ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٥

تمت هذه الطبعة بعون الله تعالى في يوم الجمعة المبارك ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٥٥ م وهو يوم الاحتفال بذكرى مولد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه

الفهرس

صفحة	صفحة
١١٦ عهد جديد	٣ مقدمة
١١٧ خطب الرسول - تشريع الأذان	أحول الجزيرة العربية والعالم قبل ظهور
١١٨ اسلام عبد الله بن سلام	الرسالة المحمدية ٨
١٢٠ اسلام مخيريق	نظرة عامة الى العالم ١٠
١٢٥ أحداث سياسية واجتماعية	التمهيد لظهور الرسالة المحمدية ٢٤
١٢٥ البناء بعائشة	يهود يثرب يتنبأون بالنبي العربي ٢٥
١٢٨ بدء الجهاد	مولد الرسول عليه السلام ٢٧
١٢١ السنة الثانية الهجرية	رؤيا صادقة ٣٢
١٣١ غزوة الأبواء	رضاعة الرسول في بني سعد ٣٤
١٣١ غزوة بواط	وفاة والدته ٣٩
١٣١ غزوة العشيرة	كفالة عبد المطلب للرسول ٣٩
١٣٢ غزوة سفوان	وفاة عبد المطلب ٣٩
١٣٥ غزوة بدر الكبرى	رحلة الشام الأولى ٤١
١٣٧ أبو سفيان ينذر قريشا	بدء الاتصال بالسيدة خديجة ٤٤
١٤٣ بناء عريش للنبي	نزول الوحي بالرسالة والقرآن ٥٠
١٤٦ هزيمة المشركين	اسلام خديجة ٥٣
١٤٩ اللين والشدة في الحرب	الجهر بالدعوة الاسلامية ٥٧
١٥٢ قصة أسير - زينب بنت الرسول	تعصب أبى طالب لرسول الله ٥٩
١٥٣ قريش تبكى قتلها	مكرمة للصدیق ٦١
١٥٦ أدب وعتاب	ابتلاء الصدیق ٦٢
١٥٦ معالم واضحة في غزوة بدر	الهجرة الى الحبشة ٦٣
١٦٠ غزوة السويق	اسلام حمزة بن عبد المطلب ٦٨
١٦٢ السنة الثالثة الهجرية	اسلام عمر بن الخطاب ٧٣
١٦٢ غزوة غطفان	وفاة خديجة ٨٣
١٦٣ غزوة بنى سليم	وفاة أبى طالب ٨٤
١٦٦ غزوة أحد - زعامة قريش	أم المؤمنين سودة بنت زمعة ٨٥
١٧٢ نعيمة قريش	أم المؤمنين عائشة ٨٥
١٨٨ خيانة الرجيع	الاسراء والمعراج تحت ضوء الاعتقاد ٨٦
١٨٢ غزوة حمراء الأسد	قصة الاسراء والمعراج ٨٩
١٨٧ السنة الرابعة الهجرية	عرض الاسلام على قبائل العرب ٩٠
١٨٩ خيانة بئر معونة	بشائر الفتح ٩٢
١٩١ اجلاء بنى النضير	حصار الرسول بمكة ١٠١
١٩٥ غزوة دومة الجندل	الهجرة الى المدينة ١٠١
١٩٦ غزوة بنى المصطلق	الصاحبان في الفار ١٠٧
٢٠٢ غزوة الأحزاب	يوم الاثنين يوم الايام في حياة الرسول ١١١
٢٢٠ غزوة بنى لحيان	بناء المسجد والمساكن ١١٢
٢٢١ غزوة ذي قرد	التاريخ الهجرى ١١٣
٢٢٥ صلح الحديبية	السنة الأولى الهجرية ١١٣

صفحة	صفحة
٢١٣ نبوة تحققت	٢٢٩ بيعة الرضوان
٢١٥ هدم مسجد الضرار	٢٣١ شدة الأمر على المسلمين
٢٢٠ اسلام وفد ثقيف	٢٣٥ الفتح المبين أو صلح الحديبية
٢٢٠ حج أبى بكر بالناس	٢٤٠ كسرى ملك الفرس
٢٢١ وفاة رأس المنافقين	٢٤١ قيصر ملك الروم
٢٢٢ تشريع واجتماع	٢٤٢ بين قيصر وأبى سفيان
٢٢٢ وفود العرب على الرسول	٢٤٤ المقوقس والى مصر
٢٢٥ أبرك واقد على قومه	٢٤٥ النجاشى ملك الحبشه
مجزرة الرسول تتحقق فى أقل من ثلاث	٢٤٦ النجاشى وكيل النبى
٢٣٠ سنوات	٢٤٧ السنة السابعة الهجرية
٢٣١ ملوك حمير يسلمون	٢٤٧ فتح خيبر
٢٣٢ اسلام بنى الحارث بن كعب	٢٥٠ سقوط الحصون حصنا بعد حصن
٢٣٢ كتاب خالد الى الرسول ورد الرسول عليه	٢٥١ زواج النبى بصفية
٢٣٥ مؤامرة لقتل الرسول غدرا	٢٥٢ تسليم أهل فوك
٢٣٧ الكذابون الأربعة	٢٥٣ تسليم أهل تيماء
٢٤٠ حجة الوداع	٢٥٣ فتح وادى القرى
٢٤٢ الخطبة الجامعة	٢٥٦ عمرة القضاء
٢٤٤ آية الكمال والتنام	٢٥٨ سبعة أعوام
٢٤٤ الرجوع الى المدينة	٢٥٨ زواج النبى من السيدة ميمونة
٢٤٥ من كنت مولاه فعلى مولاه	٢٦٠ فاتح مصر
٢٤٦ السنة الحادية عشرة	٢٦٠ السنة الثامنة الهجرية
٢٤٦ بعثة أسامة بن زيد الى الروم	٢٦١ الاقتصاص ممن قتلوا
٢٤٦ شكوى الرسول	٢٦٢ غزوة مؤتة
٢٤٧ مرض الرسول ومتابعته الجهاد	٢٦٣ مقتل الامراء الثلاثة
٢٤٩ زيارة البقيع	٢٧٠ قريش تدرك خطاها
٢٥٠ العدل فى التمرىض	٢٧٨ دخول الجيش الاسلامى مكة
٢٥١ وصاته بالانصار	٢٧٨ دخول الرسول مكة
٢٥١ صلاة أبى بكر بالناس	٢٨٠ أهل مكة يبايعون الرسول
٢٥٢ صلاة الرسول الأخيرة	٢٨٤ بلال يؤذن على الكعبة
٢٥٣ الرفيق الأعلى	٢٨٥ مائدة الفتح
٢٥٤ مصاب زلزل النفوس	٢٨٦ غزوة الفميط
٢٥٤ أخو الرسول ينقذ الاسلام والمسلمين	٢٩٥ غزوة الطائف
٢٥٦ أمر ثقيفة بنى ساعدة	٣٠١ بين النبى والانصار
٢٥٨ جهاز الرسول ودفنه	٣٠٤ قصة شاعر
٢٥٩ الفزوات التى غزاها الرسول بنفسه	٣٠٥ مولد ابراهيم عليه السلام
٢٥٩ حجرات الرسول عليه السلام	٣٠٦ الاسلام فى اليمن
٢٦٠ أمهات المؤمنين	٣٠٨ السنة التاسعة الهجرية
٢٦٠ سرارى الرسول وكتابه	٣٠٨ غزوة تبوك
٢٦٠ صفة الرسول عليه السلام	٣١٠ البكاؤون
٢٦١ ختامه مسك	٣١١ على يخلف النبى فى أهله



DATE DUE

JAFET LIB.

~~28 JUL 1977~~

~~10 DEC 1987~~

~~21 OCT 1984~~

JAFET LIB.

~~28 JUN 1985~~

J. Lib.

JAFET LIB.

~~28 JUL 1977~~

~~21 JUN 1985~~

~~JAFET LIB.~~

~~28 JUL 1977~~

~~28 DEC 1987~~

~~JAFET LIB.~~

~~1 JUL 1977~~



297.63:K452ka:c.1

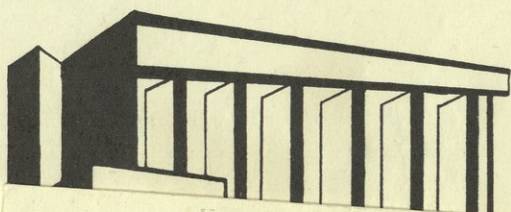
خالد، خالد محمد

خاتم النبیین، محمد بن عبد الله... سيرة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01013058



297.63:K452ka

خالد

297.63
K452KA

297.63
K452KA
C.1